سلسلة أركان الإيمان ٤

الإيمان بالرسل والرسالات

د. علي محمد محمد الصلابي





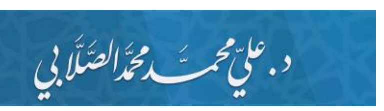
بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُــولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُــلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ *﴾
[البقرة: 285]

الإيمان بالرسل والرسالات

بقلم

علي محمد محمد الصَّلاَّبي



الإهداء

إلى كلِّ إنسانٍ في الوجودِ يبحثُ عن حقيقةِ الرسل والرسالاتِ أهدي هذا الكتاب.

سائلاً المولى عزّ وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يكونَ خالصاً لوجهه الكريم. قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *﴾

علي محمد محمد الصَّلاَّبي



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلِلْ فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلاّ الله وحده ، لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمّداً عبده ورسوله.

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ *﴾ [آل عمران: 102].

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا *﴾ [النساء: 1].

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا *﴾ [الأحزاب: 70 ـ 71].

يا ربِّ لك الحمدُ حتى ترضى ، ولك الحمدُ إذا رضيتَ ، ولك الحمدُ بعد الرضى.

أما بعد: فهذا الكتاب: «الرسل والرسالات» هو خاتمة سلسلة أركان الإيمان ، وقد تحدّثت فيها عن الخالق العظيم، والرازق الكريم ، الفعّال لما يريد ، الكريم المنّان ، الواسع العليم ، الذي رأيتُ من خلال مسيرتي في الدنيا وعالمِ التاريخ عظمته في الحياةِ ، وفي قيام الدولِ وزوالِها ، وانتشارِ الحضاراتِ واندثارِها ، وعزِّ الحكوماتِ وإذلالها ، وقصص الناس ، وفي مخلوقاته العجيبة الغريبة ، وفي هذا الكون الفسيح ، وحركة التاريخ ، كم مِنْ ملوكٍ وأمراء وقادة وحكام ، وعلماء وفقهاء وفلاسفة وعوام الناس لا يحصيهم إلا الذي خلقهم ، قد ماتوا وأصبحوا في الأمس الغابر ، ودخلوا في عالم البرزخ العظيم.

علمتني الحياةُ أنَّ المؤمنَ لا يقنع بأمر يسكنُ إليه دون الله ، ولا يفرحُ بما حصل له دون الله ، ولا ييأس على ما فاته سوى الله ، ولا يستغني إلا بالله ، ولا يفتقر إلا إلى الله ، ولا يفرح إلاّ بموافقته لمرضاة الله ، ولا يخافُ إلا من سقوطه من نظر الله ، فكلّه بالله ، وكلّه لله ، وكلّه مع الله ، وسيرُه دائماً إلى الله ، يحبّ اللهَ ، ويحبّه الله ، ويرضى بالله ، ويرضى عنه الله.



إنّ بين العبدِ وبين ربّه مسافة لا تُقْطع إلا بقطع العلائق ، ورفض العوائق ، وكيف يصل إلى الله مَنْ لا يسيرُ وهو في قبضة العوائق أسير؟!. قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ *﴾ [الذاريات :50].

كلُّ شـــيء تخافه فإنّكَ تفرُّ منه وتهربُ إلا الواحد الأحد ، فإن من خافه يفر منه إليه ، ويهرب من ســـخطه إلى رضوانه ، ومن وعيده إلى وعده ، فلا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه ، الفرارُ إلى الله تعالى هو الانطراحُ ببابه ، والانكسارُ لجنابه ، هو اللجوءُ إليه تعالى ، والدخولُ في الإيمان والطاعة ، والهروبُ من المعصية والخطيئة.

والفرار نوعان: فرار السعداء ، وفرار الأشقياء ، ففرار السعداء: هو الفرار إلى الله عز وجل ، وفرار الأشقياء: هو الفرار منه تعالى لا إليه ، والذي يظنُّ أنه يستطيع أن يفرَّ من الله تعالى ، وأن يفلتَ من قبضته ، فهو جاهلٌ أحمق ، فإنَّ المرجع إليه ، والمصير إليه[1].

لقد رأيتُ من خلال مسيرتي في عالم التاريخ أهميةَ الإيمان للإنسان والشعوب والجماعات والأمم ، وقد حرصتُ على أن يكون أسلوبُ هذه السلسلة واضحاً ، معتمداً على الأدلةِ من القرآن والسنة الصحيحة ، وابتعدتُ كلَّ البعدِ عن مناهجِ الفرق الكلامية ، والمذاهب الفلسفية ، والمسائلِ الجدلية العقيمة.

وحرصتُ على أن أبيّن ما كان عليه رسول الله (ﷺ) وأصحابه من صفاءٍ ووضوحٍ في أصولِ الإيمان.

وهذه السلسلةُ تهدف إلى مخاطبة العقول ، وإحياء القلوب ، وتحريك فطرة الإنسان ، وربط الناس بالخالق العظيم ، وبيان ما يجبُ على المكلّف النبيل فضلاً عن الفاضل الجليل ، وقد كُتِبَتْ بطريقةٍ يستفيدُ منها العالم ، وطالبُ العالم ، وعوامُّ الناس ، ومن أشغلتهم زحمةُ الحياة عن البحث والتنقيب ، فهذه زبدةُ سنين من العكوف على مئات المصادر والمراجع القديمة والحديثة ، تقدَّم بين يدي القارأى الكريم.

والمنهجية التي سرت عليها قد خضعتْ لمناقشاتٍ وحواراتٍ مع العلماء والفقهاءِ وطلاّبِ العلم ، وبعضِ العلماء الذين استفدتُ من توجيهاتهم وأفكارهم منهم الدكتور يوسف القرضاوي ، والدكتور سلمان العودة ، والدكتور عائض القَرَني الذي كان يمازحني ويقول لي: إنّ الله عزّ وجل يوم القيامة لن يسأل الأفارقة ولا غيرهم عن السلاجقة والزنكيين والأيوبيين والتتار ـ ولكن سيسألهم عن التوحيد والإيمان ، وكان يشجّعني بقوّةٍ للاهتمام بالتفسير ، والحرص على الطرح

[1] الله أهل الثناء والمجد. ناصر الزهراني ص (681).

القرآني والنبوي الكريم ، وكذلك الدكتور محمد طاهر البرزنجي وغيرهم من الأخوة الكرام والسـادة العلماء والمفكرين فلهم مني الدّعاء الصالح في ظهر الغيب.

فهذه السلسلة «أركان الإيمان» كانت فكرةً ، وأصبحت حقيقةً بفضل الله وتوفيقه ، وهي الان في متناول الدعاة والخطباء والعلماء والساسة ورجال الفكر وطلاب العلم وعموم الناس ، لعلّهم يستفيدون منها في حياتهم ، وبعد مماتهم.

إنّ الأيام تمضي ولا أعلمُ أحداً من الناسِ حقّق كلَّ ما يريده قبل أن يغادرَ هذه العاجلة.
وطموحاتي العلمية والفكرية والثقافية لا تنتهي ، وأنا على يقينٍ بأنني سأرحلُ من هذه الحياة قبل تحقيقها ، ولذلك رأيتُ أن أذكر بعض هذه المشاريع لعلّ الله يشرحُ قلوب بعض طلاب العلم أو العلماء أو الباحثين لكتابتها بطريقة منهجية صحيحة ، لعلّها تساهِم في نهضة الأمة ، وتنوير الطريق أمام الأجيال القادمة ، التي ستحمِلُ رايةَ الإسلام ، وتعمل على إعادة دوره الحضاري في قيادة الأمم والشعوب ، وإخراجها من ضيق الدنيا إلى سعة الاخرة ، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام.

وهذه المشاريع تهدف إلى الاهتمام بالاتي بحيث تكونُ من ضمن الثقافة العامة للناس:

1 . الاهتمام بمقاصد الشريعة.

2 . فك الاشتباك بين السياسة الشرعية والعقائد.

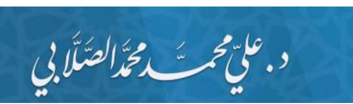
3 . استيعاب فقه السنن ، والنظر في اثارها في الأفراد والجماعات والشعوب والأمم والحضارات.

4 . إعادة النظر والبحث في القصص القرآني ، واستخراج العبر والدروس والسنن وربطها بواقع الحياة.

5 . تقديم القيم والمبادأى الإنسانية العامة من خلال التصور الإسلامي ، كالشورى ، والحريات ، والمساواة ، والعدالة ، وحقوق الإنسان ، والمرأة ، وتقديم رؤية للدولة المدنية الحديثة التي مرجعيتها الإسلام.

6 . استخراج منهج للتزكية وعلم السلوك من الكتاب والسنة وتراث الأمة يلائم العصر.

7 ـ الاهتمام بالدّراساتِ المتعلّقة بعلم الإدارة والتخطيط ، والمتابعة والتنظيم ، والتطوير ، وتجمع بين الأصالة والمعاصرة والتأصيل.





8 ــــ الاهتمام بفقه الجهاد ، وتطوير المؤسسات العسكرية في الدول الإسلامية والجمع بين الإعداد المعنوي والمادي ، ومتابعة التقنيات الحديثة في هذا المجال.

9 ــــ دراسةُ المشاريع الغازية قديماً وحديثاً ، والعمل على إيجاد مشروع حضاري يستوعبُ طاقات الأمة لكي تتصدّى لهذه المشاريع أو تحاورها من موقف قوة.

10 . دراسةُ فقد الموازنات ، والأَوْلَوِيات والاختلاف ، وفقه المالات.

11 ــــ البحثُ عن السبل والوسائل لإحياء وتطوير الاجتهاد الجماعي وغيرها من المشاريع العلمية الهادفة والمهمة لنهضة شعوبنا وأمتنا.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً *﴾ الكهف: 30.

- هذا وقد قمت بتقسيم هذا الكتاب إلى فصولٍ:

فالفصل الأول: كان الحديث فيه عن مفهوم النبوة والرسالة والفرق بينهما ، وتعريف النبي والرسول ، والفرق بين الرسول والنبي.

وفي الفصل الثاني: تكلّمتُ عن وجوب الإيمان بالرسل ، وموجز تاريخهم.

والفصل الثالث: تضمّن خصائصَ وسماتِ دعوة الأنبياء ، وتفاضلهم فيما بينهم.

والفصل الرابع: أشرتُ فيه إلى جوانب الاقتداء بهدي الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام.

وفي الفصل الخامس: فصّلتُ الحديثَ عن الوحي ، وإثبات النبوة ، والمعجزات.

وفي الفصل السادس: لخّصت فيه خصائص الرسالة المحمدية ، وحقوقَ النبيِّ (ﷺ) على أمته.





ثم كانت الخاتمة:

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم 24/ذي الحجة 1431هـ الموافق 2010/11/30م الساعة السادسة إلا ربع بعد صلاة المغرب بتوقيت الدوحة.

والفضل لله من قبلُ ومن بعدُ ، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبّلَ هذا العملَ قبولاً حسناً ، وأن يكرمنا برفقة النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين.

قال تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [فاطر: 2].

وبهذا الكتاب أضعُ سلسلة أركان الإيمان بين يدي قارئيها ، ولا أدّعي الكمال فيها ، كما قال الناظم:

وما بها مِنْ خطأٍ ومِنْ خَلَلْ ... أَذِنْتُ في إصلاحِهِ لِمَنْ فَعَلْ

لكنْ بِشَرْطِ العِلْمِ والإِنْصَافِ ... فذا وذا مِنْ أَعْظَمِ الأَوْصَافِ

واللهُ يهدي سُبُلَ السلامِ ... سبحانه بِحَبْلِهِ اعْتِصَامي

فلله الحمد على ما منّ به عليّ أولاً واخراً ، وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا ، أن يجعل هذه السلسلة الإيمانية لوجهة خالصة ، ولعباده نافعة ، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ، ويجعله في ميزان حسناتي ، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع ، ونرجو من القارأى الكريم أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه في صالح دعائه.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ *وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ *وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *﴾ [الصافات: 180. 182].

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنتَ ، أستغفرْكَ وأتوبُ إليك ، واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين[2].

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصلاّبي

[2] أيها الإخوة الكرام: يسرّني أن تصلني ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبي من خلال دور النشر ، وأطلب من إخواني الدعاء لي بظهر الغيب بالإخلاص لله ، والصواب ، لخدمة دينه العظيم.

الفصل الأول

مفهوم النبوة والرسالة
والفرق بينهما

أولاً ـ تعريف النبوة لغة وشرعاً.

ثانياً ـ تعريف الرسول لغة.

ثالثاً ـ الفرق بين النبي والرسول.



الفصل الأول

مفهوم النبوة والرسالة والفرق بينهما

أولاً ـ تعريف النبوة لغة وشرعاً:

أ ـ تعريف النبوة لغةً:

للنبوّةِ عند أهل اللغة ثلاثةُ استعمالات:

1 ـــ حينما تكون مشتقةً من النبأ ، فتكون بمعنى الإخبار ، لأنّ النبأ معناه الخبر ، ومنه قوله تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ *عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ *﴾ [النبأ: 1 ـ 2].

2 ـ حينما تُشْتَقُّ من النباوة ، أي الطريقُ الواضحة ، فتكونُ بمعنى الطريق الموصلة إلى مرضاة الله عز وجل[3]، وكل هذه المعاني موافقةٌ للمعنى الشرعي للنبوة.

ب ـ تعريف النبوة شرعاً:

هي أخبارُ رجُلٍ عن اللهِ عز وجل بما أُوْحِيَ إليه من ربّه ، وهي أيضاً رفعةٌ لصاحبها ، لما فيها من التكريم والتشريف ، فإن مقامَ النبوّة مقامٌ رفيعٌ ، لا يكون إلاّ لمن يقع عليه الاختيار من الله عز وجل بحمل أعباء الرســـالة ، وإبلاغها للناس ، يقول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الانعام: 124] ، وقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: 68].
كما أنها الطريق الواضحة الجلية ، الذي لا يمكن الوصول إلى مراضي الله ، واجتناب مساخطه؛ والفوز بجنته؛ والنجاة من ناره؛ إلا عن طريقه.

إلاّ أنّ أخصَّ تلك المعاني بالدلالة هو الاستعمال الأول ، لأنّ وظيفةَ النبي الرئيسة هي الإخبارُ عن اللهِ ، وإبلاغُ الأمةِ بما أُوحِيَ إليه من ربّه[4].

---

[3] الشيخ عبد القادر الجيلاني ، د. سعيد القحطاني ص (295).

[4] الشيخ عبد القادر ص (296).





ثانياً . تعريف الرسول لغة:

الرسول مأخوذٌ من الإرسال. أي البعثُ والتوجيه ، والرسول بمعنى الرسالة وهو الذي يتابِعُ أخبارَ الذي بعثه[5]، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ *﴾ [النمل: 35].

وعلى ذلك فالرسل إنّما سُمّوا بذلك ، لأنّ الله أرسلهم وبعثهم بالرسالات إلى أممهم ، وكلّفهم بحملها وتبليغها ، قال عز وجل: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: 44].

ثالثاً . الفرق بين النبي والرسول:

ذهب بعضُ العلماء إلى التفريق بين النبيّ والرسول ، وعرّفوا النبيَّ بأنَّه إنسانٌ أوحيَ إليه بشرعٍ سواءٌ أمر بتبليغه أم لم يؤمر ، والرسول هو إنسانٌ أوحي إليه بشرعٍ ، وأُمر بتبليغه للناس ، فالنبيُّ أعم من الرسول ، فمن نبأى وأُمر بتبليغ ما نبّأى به إلى الناس فهو نبيٌّ ورسولٌ ، وإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبيٌّ غيرُ رسولٍ ، وعليه فكلُّ رسولٍ نبيٌّ ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولٌ[6].

ويشهد لهذا التفريق ما ورد من الوصف بالمصطلحين وفيه إشعار بتغاير المفهومين في الاصطلاح الشرعي ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا *﴾ [مريم: 51].
ومثال النبيّ غير الرسول (يوشع) صاحب موسى وفتاه ، فقد نبّأه الله ، وخلف موسى وهارون في بني إسرائيل ، وهو الذي غزا بيتَ المقدس وفتحها.

ومثال النبيِّ الرسول نبينا محمد (ﷺ) ، إذ هو نبي الله ورسوله إلى الناس أجمعين ، وكذلك سائِرُ الأنبياء المرسلين إلى أقوامهم المذكورين في القرآن الكريم.

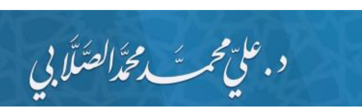
وذهبَ اخرون إلى أنَّ الكلمتين مترادفتان ، ولهما مدلولٌ واحد ، فالنبيُّ يسمّى رسولاً ، والرسول يسمى نبياً ، فيسمى رسولاً بالنظر إلى ما بينه وبين الناس الذين أرسله الله تعالى إليهم ، ويسمى نبيّاً بالنظر إلى ما بينه وبين الله ، حيث إنه نبي أوحي إليه ، وكلاهما متلازمان ، وقد ذهب إلى هذا الرأي القاضي عياض والسعد التفتازاني[7].

---

[5] لسان العرب ، لابن منظور (2/14/11) الشيخ عبد القادر ص (296).

[6] أما العضد الإيجي فيرى أن الرسول أعم من النبي ، فبينهما عموم وخصوص مطلق ، لأن كل نبي رسول ، وليس كل رسول نبي ، ويمثّل لذلك بجبريل عليه السلام ، فهو رسول بنصّ القران الكريم ، ولكنه ليس نبياً (ن).

[7] حاشية الباجوري على الجوهرة ص: 6 ، العقيدة الإسلامية أركانها واثارها على الفرد والمجتمع ، د. أحمد محمد الجلي ص: 219.



وذهب اخرون إلى رأي غير هذين الرأيين ، مفاده أن النبيَّ هو مَنْ أوحى الله إليه ، وهو يبلغ ما أوحي إليه ، لكنّه لم يرسل إلى قوم كافرين ، ليخرجهم من الكفر إلى الإيمان ، أمّا الرسول فهو مَنْ أرسل إلى قومٍ كفّارٍ يدعوهم للتوحيد ، فإن الله تعالى قال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾ [الحج: 52]. فذكر أنَّ الإرسال يعمُّ الرسول والنبي ، وخصَّ أحدَهما بأنه رسول ، وهذا هو الرسول المطلق ، الذي أمر بتبليغ رسالة الله إلى قوم خالفوا أمر الله ، ووقعوا في الشرك ، كما كان شأنُ نوحٍ عليه السلام ، وقد ثبت في (الصحيح) أنّه أوّل رسولٍ بُعِثَ إلى الأرض ، وقد كان قبله أنبياء كادم وإدريس عليهم السلام.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾ [الحج: 2] دليلٌ على أنَّ النبيَّ مرسلٌ ، ولا يسمّى رسولاً عند الإطلاق ، لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه ، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفون أنّه الحق ، كالعالم ، ولهذا قال النبي (ﷺ): «العلماءُ ورثةُ الأنبياء». وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة ، فإنّ يوسفَ كان رسولاً ، وكان على ملة إبراهيم ، وداود وسليمان كانا رسولين ، وكانا على شريعة التوراة[8].

والتعريف المختار أنّ الرسول مَنْ أُوحي إليه بشرعٍ جديدٍ ، والنبيُّ هو المبعوثُ لتقرير شرعِ مَنْ قبلَه[9].

وقد كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلّما مات نبي قام نبي ، كما ثبت في الحديث[10]، وأنبياءُ بني إسرائيل مبعوثون بشريعة موسى (التوراة) ، وكانوا مأمورين بإبلاغ قومهم وحيَ الله إليهم ، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا﴾ [البقرة: 246].

فالنبيُّ كما يظهر من الآية يوحى إليه شيءٌ يوجِبُ على قومه أمراً ، وهذا لا يكون إلا مع وجوب التبليغ ، واعتبر في هذا بحال داود وسليمان وزكريا ويحيى ، فهؤلاء جميعاً أنبياء ، وقد كانوا يقومون بسياسة بني إسرائيل ، والحكم بينهم ، وإبلاغهم الحق ، والله أعلم بالصواب[11].

* * *

[8] كتاب النبوات ، ابن تيمية ص (172 ـ 173).
[9] الرسل والرسالات عمر الأشقر ص (15).
[10] البخاري ومسلم ، الرسل والرسالات ص (15).
[11] المصدر السابق ص (15).



الفصل الثاني

وجوب الإيمان بالرسل وموجز تاريخ الرسل

أولاً ـ وجوب الإيمان بالرسل الكرام.

ثانياً ـ موجز تاريخ الرسل الكرام.

ثالثاً ـ جوهر الرسالات كلها.

رابعاً ـ حقيقة النبوة.

خامساً ـ حاجة البشر إلى الرسل الكرام.

سادساً ـ الحكمة من إرسال الرسل الكرام.

سابعاً ـ من أهم صفات الأنبياء والمرسلين.

ثامناً ـ شبهات حول عصمة الأنبياء.

تاسعاً ـ مَنِ اختلف في نبوتهم



الفصل الثاني

وجوب الإيمان بالرسل وموجز تاريخ الرسل

أولاً . وجوب الإيمان بالرسل الكرام:

من المسلّمات البدهية في الإسلام ، التي اعتبرت ركناً أساسياً من أركان الإيمان والعقيدة: الإيمان بالنبوة والوحي ، والتصديق برسالات الله وبرسله إلى خلقه ، الذين بعثهم مبشّرين ومنذرين ، لكي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

فلا يصحُّ إيمان مؤمن ، ولا يدخلُ في دين الله ، ولا يُقْبَلُ في جماعةِ المؤمنين ، ما لم يؤمنْ بكلِّ كتابٍ أُنزل ، وبكلِّ نبيٍّ أُرسل.

وهذا أمرٌ في غايةِ الوضوح في كتاب الله ، وسنة رسوله (ﷺ) ، لا يرتاب فيه مسلم ، ولا يتردد فيه عقل ، ولا يتلجلج به لسان.

يقول تعالى مبيناً حقيقة البِرّ وأركان الإيمان ، ردّاً على اليهود ، الذين أثاروا ضجّة حول تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة[12]. قال تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [177] ، وقال سبحانه: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ *﴾ [البقرة: 285] ، فذكر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله صراحةً.

وأشار إلى الإيمان باليوم الاخر بقوله تعالى:
﴿ يا ايها الذين آمنوا آمنوا بالله وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا *﴾ [النساء: 136].

[12] فتاوى معاصرة يوسف القرضاوي (167/3).



وقال تعالى: ﴿ سَـابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُـهَا كَعَرْضِ السَّـمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُـلِهِ﴾ [الحديد: 21].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْـحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْـبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *﴾ [آل عمران: 84].

وقال تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْـحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْـبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيْسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *﴾ [البقرة: 136].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ *﴾ [غافر: 78].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ *﴾ [فاطر: 24].

وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ *﴾ [يونس: 47].

وفي السـنة حديثُ جبريلَ المشـهور ، عندما سـأله عن الإيمان قال: «الإيمانُ: أن تؤمنَ باللهِ ، وملائكتهِ ، وكتبِهِ ، ورسلِهِ ، واليومِ الاخرِ ، وتؤمن بالقدرِ»[13].

وإنّما لم يذكر القرآن الكريمُ الإيمانَ بالقدر ، لأنَّه من جملة الإيمان بالله تعالى ، فهو إيمانٌ بمقتضـى الكمال الإلهي ، وأنّه عَلِمَ كلَّ شـيءٍ وأرادَه قبل أن يقعَ ، قال تعالى: ﴿ وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *﴾ [الانعام: 59].
المهم أنَّ الإيمان بالرسلِ لا ريبَ فيه ، ولا خلافَ عليه ، ولهذا ورد أنَّ

الناس يوم القيامة يُسألون سؤالين رئيسين: أولهما: ماذا كنتم تعبدون؟ والثاني: بماذا أجبتم المرسلين؟ ويقول تعالى: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ *﴾ [القصص: 66].

[13] مسلم رقم (8).



ولقد ردّ القرآن الكريم على المكذّبين ، الذين استبعدوا أن يرسلَ الله إليهم رسولاً يبشّرهم وينذرهم ويهديهم إلى صراط مستقيم ، قال عز وجل على لسان نوح عليه السلام: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *﴾ [الاعراف: 63].

المهم أنّ الإيمانَ برسل الله جميعاً عقيدةٌ إسلاميةٌ أساسيةٌ ، ومن كذَّب رسولاً واحداً من رسل الله حقاً فكأنما كذّب المرسلين جميعاً ، وهذا ما يقرره القرآن الكريم حينما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ *﴾ [الشعراء: 105]. وهم لم يكذّبوا إلاّ نوحاً ، وكما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ *﴾ [الشعراء: 123]. وهم لم يكذبوا إلا هوداً ، وكما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ *﴾ [الشعراء: 141]. هم لم يكذبوا إلا صالحاً ، وكذلك قال عن قوم لوط وقوم شعيب ، وإنّما نسبَ إليهم تكذيب المرسلين ، لأنّهم لما كذبوا واحداً منهم ، فكأنهم جحدوا مبدأ الرسالة نفسه ، فمن زعم أنّه امنَ بالله تعالى ، وكذّب رسله ، أو واحداً منهم ، ممن ثبتت رسالتُه ، فهو كاذِبٌ في دعوى الإيمان ، إذ الإيمانُ الحق: هو ما جاء على لسان الرسول الصادق المؤيّد بالآيات ، ومن قال: أومنُ بواحدٍ أو بمجموعةٍ ، ولا أومنُ بغيره ممّن هو مثلهم ، أو أعلى منهم ، فهو كاذِبٌ في دعوى إيمانه ، بل القرآن يقول عن مثله إنّه الكافر حقاً[14].

اقرأ معي قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً *أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِيناً *﴾ [النساء: 150 . 151].

وهاتان الايتان نزلتا في شأن اليهود والنصارى ، فاليهود امنوا بموسى ، وكفروا بعيسى ومحمد ، والنصارى امنوا بموسى وعيسى ، وكفروا بمحمد ، والمسلمون وحدهم هم الذين امنوا بكلِّ نبي أرسله الله ، وبكلِّ كتاب أنزله الله ، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *﴾ [النساء: 152][15].

لقد جاء الرسل كلُّهم بقضية واحدة وكلمة واحدة ، جاؤوا يبيّنون أنه لا إله بحقٍّ في هذا الوجود كله إلا إله واحد ، هو الله سبحانه وتعالى بلا شريك ، جاؤوا يقولون للناس: ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾ [هود: 50] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25] .

[14] فتاوى معاصرة (3/169).

[15] المصدر نفسه (3/169).





لقد منح القرآن الكريم مسألة الإيمان بالأنبياء والرسل أهميةً كبيرة تتناسب مع عظمتها وخطورة شأنها ، إنّ الله تعالى أمرَ العباد بتحقيق العبادة الشاملة لله ، والعبادةُ هي امتثالُ الأمر والنهي ، وهذا يقضي أنَّ لله أوامر ونواهي ، فكيف يتعرّف الإنسان على هذه الأوامر والنواهي؟.

إنّه لا طريقَ للتلقي من الله إلا بواسطة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وعلى هذا ، فإنَّ الذي لا يؤمن بالرسل لا يمكن أن يكون موحّداً لله ، ومن هذا ندرك لماذا اهتمّ القرآن الكريم بهذه القضية؟ ونلاحظ مظاهر هذا الاهتمام في النماذج التالية:

1 ــ كثرة النصوص القرآنية التي جاءت مفصّلة ومبيّنةً ومؤكِّدةً لهذه القضية ، ويكفي أن نعلم أنّ كلمة (الرسول) وحدَها تكررت في القرآن الكريم نحو (363) مرة ، وكلمة (النبي) نحو (75) مرة.

وأمّا الحديث عنهم عليهم الصلاة والسلام وما جرى لهم فهذا أخذَ حيّزاً كبيراً من القرآن الكريم.

2 . اقتران الإيمان بهم بالإيمان بالله ، في مواضعَ كثيرة من القرآن الكريم ، سواء أكان هذا في النبوّة العامة أم الخاصة.

أ ــ فأما في النبوة العامة ، فمثلاً قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[البقرة: 177].

ب ـ وأما في النبوة الخاصة ، قوله تعالى: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ﴾ [الاعراف: 158] وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النور :62].

3 ــ التحذير من تكذيبهم ، وتخويف المكذبين بما لاقى أسلافهم ، ويكفي أن تمرَّ على هذه الآيات: قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا *قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاَءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّك يافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا *فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا *﴾ [الإسراء :101 . 103][16].

ثانياً . موجز تاريخ الرسل الكرام:

تاريخُ الأنبياء الكرام تاريخُ العظمة والجلالِ ، وحياتُهم حياةُ الكفاح والنضال والجهاد ضد أعداء الحق وأعداء الله وأعداء الإنسانية في كلِّ زمان ومكان ، وليس الغرض من ذكر القصص في القرآن التسليةَ أو الترفيه عن النفس ، وإنّما

[16] ركائز الإيمان ، محمد قطب ص (227).



الغرضُ العظةُ والعبرةُ ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: 111].

كما أشارت الآية الأخرى إلى ضرورة الاستفادة من قصص القرآن بالتفكر والتدبر ، والسير على منهاج الأنبياء والمرسلين: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ *﴾ [الاعراف :176]. وخاصة بالنسبة إلى مقام الدعاة ، فإنَّ الغرضَ من ذكر قصص الأنبياء لهم تثبيتُهم على الدعوة ، وتقويةُ عزائمهم بإطلاعهم على سيرة الأنبياء الأطهار ، وما تحمّلوه من أذى في سبيل الله[17] ، كما قال تعالى لسيد الخلق محمد (ﷺ): ﴿ وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ *﴾ [هود:120].

1 . من أغراض قصص الأنبياء في القرآن الكريم:

للقران الكريم في ذكر قصص الأنبياء أغراضٌ عديدةٌ وجليلةٌ:

أ ــــ إثبات الوحي والرسالة: بيّن القرآن الكريم أنّ هذا القصص إنما هو بوحي الله ، فمحمد (ﷺ) أمي لا يكتب ولا يقرأ: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ *﴾ [العنكبوت: 48].

ولم ينقل عن الرسول (ﷺ) ، أنه كان يجلس إلى أحبار واليهود ، أو رهبان النصارى ، فمن أين جاء بهذا القصص الرائع عن الأنبياء قبله ، وعن الأمم والخلائق ، وما وقع لهم ، وما حلّ بهم ، وبعض القصص جاء في دقة وإسهاب ، كقصص إبراهيم ، ويوسف ، وموسى وعيسى عليهم السلام.

إنّ مجيءَ القصص بهذه الدقة المتناهية ، وورودها في القرآن بهذا البيان المحكم ، أعظمُ دليل على أنه وحيٌ من عند الحكيم الخبير ، وقد أشار كثيرٌ من الآيات القرآنية إلى هذا الغرض إشارةً واضحةً جليّةً في مقدّماتِ بعض القصص أو في أواخرها ، مثل قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ﴿ هَذَا القرآن وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ *﴾ [يوسف: 3] وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ*﴾[هود: 49][18].

ب ـ تثبيت النبي (ﷺ) في دعوته: ببيان أنّ النصرَ في النهاية للرسل الكرام ، وأن الهلاكَ والدمارَ للأمم المكذبين ، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ

[17] المحكم في العقيدة د. محمد عياش ص (123) ت(124).

[18] عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة ، سعاد مبير ص (300).

لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ *﴾ [الأنعام:34] ويقول سبحانه أيضاً داعياً رسوله (ﷺ) إلى تدبّر ذلك الجزاء العادل ، الذي أخذ به القوم المجرمين: ﴿ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *﴾ [العنكبوت: 39 ـ 40].

ج ـ دفع الناس إلى الإيمان بخاتمة الرسالات: لقد أكثر القرآن العظيم من ذكر دعوات الأنبياء السابقين ، وموقف الناس منها طائعين وعصاة ، وعاقبة كل منهم ، وذلك بقصد خلق تأثيرٍ نفسي لدى المطّلع على ذلك ، يجعله يؤمن بالدعوة المعروضة عليه ، لأنَّ المسألة من خلال ما سمع أو قرأ قد وَضُحَتْ وبانت ، فمن امن نجا ، ومن كفر هلك ، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ*﴾ [يوسف: 109].

د ــ إظهار الترابط الوثيق بين الرسالات السماوية: فكلُّ نبي إنّما يأتي برسالة متممة ومكملة لرسالة النبي الذي سبقه ، ويدعو إلى الإيمان برسالته ، وقد أخذ الله سبحانه وتعالى العهدَ والميثاقَ على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد (ﷺ) ، ويتبعوه ، ويكونوا من أنصاره إن أدركوا حياته وعهده[19]، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ *﴾ [آل عمران: 81].

2 ـ الرسل والأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم:

وهم خمسة وعشرون رسولاً ، أولهم ادم عليه السلام ، واخرهم محمد (ﷺ)، وقد جمع هؤلاء الرسل في آيات كريمة من سورة الأنعام ، ذكر منهم فيها ثمانية عشر ، والسبعة الباقون ذكروا في آياتٍ متفرّقةٍ من كتاب الله تعالى ، أما الآية الكريمة فهي قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ *وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ *وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾ [الانعام :83 ـ 86].

وقد جمع بقية الرسل في الآيات الكريمة التالية: قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا *﴾ [مريم :56] وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود :50] وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [هود:61] وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ﴾ ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[هود: 84] وقال جل وعلا: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا

[19] عقيدة التوحيد ص (301).



الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّـابِرِينَ *﴾[الأنبياء: 85] وقال سـبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْـطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآل عمران عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾[آل عمران: 33] وقال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾[الفتح: 29][20].

وهؤلاء من ذكرهم الله في القرآن الكريم ، وهناك من لم يذكرهم ، ولا نعرف عددهم ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَـلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: 78].

وقد أخبرنا رسـول الله (ﷺ) بعدة الأنبياء والمرسـلين ، فعن أبي ذر ، قال: قلتُ يا رسـول الله ، كم المرسـلون؟ قال: «ثلاثمئة وبضـعة عشـرَ جماً غفير» وفي رواية أبي أمامة ، قال أبو ذر قلت: يا رسـول الله ، كم وفاء عدّةِ الأنبياء؟ قال: «مئة ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ ألفاً ، الرسل من ذلك ثلاثمئةٍ وخمسةَ عشرَ جماً غفيراً»[21].

ثالثاً ـ جوهر الرسالات كلها:

إنّ الدينَ الإسلامي هو الدّين الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين الموحّدين ، فهو دينُ الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وبعث به كل الرسل ليُبلغوه للناس ، ودعا له الرسلُ ونشروه في أرجاء المعمورة ، فهو أصلُ رسالتهم الذي اتّحدوا عليه ، وانطلقوا منه ، فكان هو دينهم جميعاً ، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْـلاَمُ﴾ [آل عمران: 19]. وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ *﴾ [آل عمران: 85].

فالإسـلامُ دين جميع الأنبياء والمرسـلين ، وإن اختلفت شـرائعهم وأحكامهم ، فإنّهم متفقون على الأصـل الأول ، وهو التوحيد والإسلام ، فمثلاً:

أخبر الله عن نوح عليه السلام: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ *﴾ [يونس :72].
وأخبر عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ *﴾ [البقرة :131].

وأخبر عن موسى عليه السلام: ﴿ ياقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ *﴾ [يونس :84].

وأخبر عن حواريي المسـيح: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُـولِي قَالُوا آمَنَّا واشْـهَدْ بِأَنَّنَا مُسْـلِمُونَ *﴾ [المائدة :111].

[20] عقيدة التوحيد ص (301).
[21] المصدر نفسه ص (303).



وأخبر عن سليمان عليه السلام على لسان ملكة سبأ: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *﴾ [النمل :44].

وأخبر سبحانه وتعالى عن الأنبياء الذين تقدموا: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة :44][22].

إنّ أصل الدين واحدٌ ، بعث الله به الأنبياء والمرسلين جميعاً ، واتفقت دعوتهم إليه ، وتوحّدت سبيلهم عليه ، وإنّما التعدّد في شرائعهم المتفرعة عنه ، وجعلهم الله سبحانه وسائطَ بينه وبين عباده في تعريفهم بذلك ، ودلالتهم عليه ، لمعرفة ما ينفعهم وما يضرّهم ، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم.

بُعثوا جميعاً بالدّين الجامع ، الذي هو عبادةُ اللهِ وحده ، لا شريك له ، بالدعوة إلى توحيد الله ، والاستمساك بحبله المتين.

وبُعثوا للتعريف بالطريق الموصل إليه ، وبُعثوا ببيان حالهم بعد الوصول إليه ، فاتّحدت دعوتهم إلى هذه الأصول الثلاثة:

1 . الدعوة إلى الله تعالى في إثبات التوحيد ، وتقريره ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، وترك عبادة ما سواه ، فالتوحيدُ دينُ العالم بأسره من لدن ادم إلى اخر نفسٍ منفوسةٍ من هذه الأمة.

2 . والتعريف بالطريق الموصل إليه سبحانه في إثبات النبوات ، وما يتفرّع

عنها من الشرائع ، من صلاةٍ ، وزكاة ، وصيامٍ ، وجهادٍ ، وغيرها ، أمراً ونهياً في دائرة أحكام التكليف الخمسة: الأمر وجوباً ، أو استحباباً ، والنهي تحريماً ، أو كراهة ، والإباحة ، وإقامة العدل والفضائل ، والترغيب والترهيب.

3 ـــ والتعريف بحال الخليقة بعد الوصول إلى الله: في إثبات المعاد ، والإيمان باليوم الاخر ، والموت ، وما بعده من القبر، ونعيمه وعذابه ، والبعث بعد الموت ، والجنة والنار ، والثواب والعقاب.

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدارُ الخلق والأمر ، وبُعث به الأنبياء والرسل جميعاً ، وتلك هي الوحدة الكبرى بين الرسل والرسالات والأمم ، وهذا هو المقصود من قول النبي (ﷺ): «إنّا معاشرَ الأنبياءِ أخوةٌ لِعلاتٍ ، أمهاتُهم شتّى ، ودينُهم واحدٌ» ، وهو المقصود في مثل قول الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ

[22] مشكاة المصابيح (122/3) وقال الألباني: إسناده صحيح.

مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ *﴾ [الشورى :13]. وهذه الأصول الكلية هي ما تضمنته عامة السور المكية من القرآن الكريم.

وإذا تأملتَ سرّ إيجاد الله لخلقه ، وهو عبادته ، كما في قول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *﴾ [الذاريات :56]. عرفتَ ضرورةَ توحُّد الملة والدين ، ووحدةِ الصراط ، ولهذا جاء في أم القرآن فاتحةِ كتاب الله عز وجل: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ *﴾ [الفاتحة :6 . 7] ثم أتبع ذلك بأن أهل الكتاب ، خارجون عن هذا الصراط فقال: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ *﴾ [الفاتحة: 7].

وبهذا تدركُ الحكمَ العظيمة ممّا قصه الله تعالى علينا في القرآن العظيم من قصص الأنبياء وأخبارهم مع أممهم لأخذ العبرة ، والتفكر ، وتثبيت أفئدة الأنبياء ، وإثبات النبوة والرسالة ، وجعلها موعظةً للمؤمنين ، وأخبار الأمم المكذّبة لرسلهم ، وما صارت إليه عاقبتُهم ، وأنها سننه سبحانه فيمن أعرض عن سبيله.

والدّينُ بهذا الاعتبار هو (دين الإسلام) بمعناه العام ، وهو: إسلام الوجه لله

وطاعته ، وعبادته وحده ، والبراءة من الشرك ، والإيمان بالنبوات ، والمبدأ والمعاد[23].

ولوحدة الدين بهذا الاعتبار في دعوة جميع الأنبياء والمرسلين وحّد سبحانه (الصراط) و(السبيل) في جميع آيات القرآن الكريم ، وهذا الدين (دين الإسلام) باعتبار وحدته العامة وتوحد صراطه وسبيله ، هو الذي ذكره الله في آيات من كتابه عن أنبيائه: نوح ، وإبراهيم ، وبنيه ، ويوسف ، وموسى ، وسليمان ، وجواب بلقيس ملكة سبأ ، وعن الحواريين، وعن سحرة فرعون ، وعن فرعون حين أدركه الغرق.

ودين الإسلام بهذا الاعتبار: هو دين الأنبياء والمرسلين جميعاً وملتهم ، بل إن إسلام كل نبي ورسول يكون سابقاً لأمته ، وهو محل بعثته إلى أمته ، وما يتبع ذلك من شريعته ، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل :36] وقال سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ *﴾ [الانبياء :25].

[23] العقيدة الصافية للفرقة الناجية ص (119 . 120).



وإنما خص الله سبحانه نبيه إبراهيم عليه السلام بأن: (دين الإسلام) بهذا الاعتبار العام هو ملته في مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: 95] لوجوهٍ:

1 ـ أنه عليه السلام واجه من أجل تحقيق التوحيد وتحطيم الشرك أمراً عظيماً ، وقد نصره الله بعد ذلك ، وهو ما قصَّ الله خبره.

2 ـــ أن الله سبحانه وتعالى جعل في ذريته النبوة والكتاب ، ولذا قيل له: (أبو الأنبياء) ولذا قال الله تعالى: ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ [الحج :78].

وهو عليه السـلام تمام ثمانية عشـر نبياً سمّاهم الله في كتابه من ذريته وهم: ابنه إسماعيل ، ومن ذريته: محمد عليهما الصلاة والسلام ، وابنه إسحاق ومن ذريته: يعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، وذو الكفل ، وموسى ، وهارون ،

وإلياس ، واليسع ، ويونس ، وداود ، وسليمان ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، عليهم السلام.

3 ـــ لإبطال مزاعم اليهود والنصارى في دعواهم أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام ، فقد كذبهم الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *﴾ [البقرة :140][24].

وردّ الله عليهم محاجتهم في ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *هَاأَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ *مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [آل عمران: 65 ـ 67].

ثم بين سـبحانه إن أَوْلى الناس بإبراهيم هم الذين على ملته وسـنته ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [آل عمران: 68].

وبيّن سبحانه مدى الضلال البعيد في جُنوح أهل الكتاب إلى هذه الدعوى ، وما هم فيه من الغلو والضلال ، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ *﴾ [المائدة :77].

[24] الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان ، بكر عبد الله أبو زيد ص (50 ـ 51).





ويبيّن سبحانه أنّ هذه المحاولة الكاذبة اليائسة من أهل الكتاب جاريةٌ في محاولاتهم مع المسلمين لإضلالهم عن دينهم ، ولبس الحق بالباطل ، فقال تعالى:

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ،فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *﴾ [البقرة :135 ـ 137].

وهكذا يجد المتأمل في كتاب الله تعالى التنبيه في كثير من الآيات إلى أن هذا القرآن ما أُنزل إلا ليُجدِّدَ دين إبراهيم عليه السلام ، حتى دعاهم بالتسمية التي يكرهها اليهود والنصارى، (ملة إبراهيم) فأقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج :78].

والخلاصة: أن لفظ: (الإسلام) له معنيان.

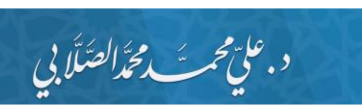
معنى عام: يتناول إسلامَ كلِّ أمةٍ متبعة لنبي من أنبياء الله ، الذي بعث فيهم ، فيكونون مسلمين حنفاء على ملة إبراهيم بعبادتهم لله وحده ، واتباعهم لشريعة مَنْ بعثه الله فيهم ، فأهل التوراة قبل النسخ والتبديل مسلمون حنفاء على ملة إبراهيم ، فهم على (دين الإسلام).

ثم لما بعث الله نبيه عيسى عليه السلام كان على الإسلام.

ثم لما بعث الله محمداً (ﷺ) وهو خاتمهم ، وشريعته خاتمة الشرائع ، ورسالته خاتمة الرسالات ، وهي عامّةٌ لأهل الأرض ، وجب على أهل الكتابينِ وغيرهم اتباع شريعته ، وما بعثه الله به لا غير ، فمن لم يتبعه فهو كافر ، لا يوصف بالإسلام ، ولا أنّه حنيف ، ولا أنّه على ملة إبراهيم ، ولا ينفعه ما يتمسّك به من يهودية أو نصرانية ، ولا يقبله الله منه.

فبقي اسم (الإسلام) عند الإطلاق ــ منذ بعثة محمد (ﷺ) حتى يرث الله الأرض ومن عليها ــ ، مختصاً بمن يتبعه لا غير. وهذا هو معناه الخاص الذي لا يجوز إطلاقه على دين سواه ، فكيف وما سواه دائر بين التبديل والنسخ ، فإذا قال أهل الكتاب للمسلمين: فقد أمر الله المسلمين أن يقولوا لهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾

ولا يوصَفُ أحدٌ اليوم بأنه مسلم ، ولا أنّه على ملة إبراهيم حنيفاً ، ولا أنّه من عباد الله الحنفاء إلا إذا كان متّبعاً لما بعث الله به خاتم أنبيائه ورسله محمّداً (ﷺ).





وأمّا تنوع الشرائع وتعدُّدُها: فيقول الله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة :48].

شرعة: أي شريعة وسنة ، قال بعض العلماء: سميت الشريعةُ شريعةً ، تشبيهاً بشريعة الماء ، من حيث إنّ مَنْ شرع فيها على الحقيقة المصدوقة رُوي وتطهّر[25].

ومنهاجاً: أي طريقاً وسبيلاً واضحاً إلى الحق ، ليعملَ به في الأحكام ، والأوامر والنواهي ، ليعلم الله من يُطيعه ممّن يعصيه.

ويقول سبحانه: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ *﴾ [الحج :67]. منسكاً: متعبداً ، هم ناسكوه: متعبدون به.

وقال تعالى في حق نبيه ورسوله محمد (ﷺ): ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية :18].

وقد علمنا الأصولَ التي تساوت فيها الملل ، وتواطأت دعوةُ أنبياء الله ورسله عليها: على دين واحد ، وملة واحدة ، في تقرير العبودية لله سبحانه لا شريك له ، وتوحيده ، وتقرير النبوة والمعاد ، ووحدة التشريع من عند الله تعالى ، فهذه لا تتغير ولا تتبدل ، ولا يدخلها نسخٌ ، فهي محكمة غيرُ منسوخة ، ولا تقبل الاجتهاد ولا التخصيص.

أما الشرائع ، فهي مختلفة ، متنوعة ، متعددة ، ويعترضُها النسخ ، فشريعة كل رسولٍ تخالف الأخرى في كلّ أو بعضِ أمور التشريع ، فهناك حكم تعبدي في شريعة رسول ينتهي بانتهاء شريعته ببعثة رسول اخر ، وهناك حكم يغير في بعض جزيئاته في وقته ، أو كيفيته ، أو مقداره ، أو حكمه من التشديد إلى التخفيف وبعكسه. وهناك حكم يكون في شريعة لاحقةً دون السابقةِ أو عكسه[26] وهكذا من تنوع التشريع في الأحكام العملية والقولية ، من الأوامر والنواهي حسب سابق علم الله تعالى وحكمته في تشريعه وأمره بأوضاع كل أمة ، وأزمانها وأحوالها ، وطبائعها من قوتها وضعفها ، وحسب أبدية التشريع ، أو تغييره ونسخه ، وهذا يكاد ينتظِمُ أبوابَ التشريع في العبادات والمعاملات والنكاح ، والجنايات والحدود ، والإيمان والنذور والقضاء وغير ذلك من الفروع ، التي ترجع إلى وحدة الدّين والملة ، ولذا فإنَّ شريعةَ الإسلام ــــ وهي اخر الشرائع ــــ باينت جميع الشرائع في عامة الأحكام العملية والقولية ، والأوامر والنواهي لِمَا لها من صفة الدوام والبقاء ، وأنها اخرُ شريعةٍ نزلت من عند الله ناسخةٌ لما قبلها من شرائع الأنبياء[27].

[25] الإبطال ص (53).

[26] الإبطال ص (57).

[27] الإبطال.





رابعاً ـ حقيقة النبوة:

النبوةُ والرسالةُ اصطفاءٌ خالصٌ من عند الله ، يختصّ به مَنْ يشاء من عباده ، وليست شيئاً يكتسِبُه العبادُ من ذاتِ أنفسهم بعمل يعملونه من جانبهم ، وكل ما يقعُ للبشر في حياتهم هو من عند الله ، ولكنَّ الله قدّر أن يكونَ للإنسان جانب من الكسب في كلّ ذلك ، فقد أعطى الإنسانَ القدرةَ على المعرفة ، ووهبَ له ذكاءً يتفاوتُ من شخص إلى شخص ، ومنحه طاقةً مختلفةً ، ثم كلّفه أن يعملَ ، وأن يبذلَ جهداً معيّناً لتحصيل المعرفة ، واستخدام الذكاء في عمارة الأرض وغيرها من شؤون الحياة.

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ *﴾ [الملك : 15] وقال تعالى: ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود :61] وقال تعالى: ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ *﴾ [العلق :4 ـــ 5] وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *﴾ [النحل :78].

ويستطيعُ الإنسانُ بتحصيله الشخصي أنْ ينمّي ما وهب الله له من مواهبَ ، فيستطيع مثلاً أن ينمّي قوته الجسدية بالرياضة البدنية والتدريب ، فيصبح قويَّ الجسم ، متينَ العضلات ، ويستطيعُ أن ينمّي قوته الذهنية بالتدريبات العقلية، وتعلّم العلم ، وإمعان الفكر ، فيستنبطُ ويكتشفُ ويخترعُ ويدبّرُ ويخطّط ، ويستطيعُ أن ينمّي قوته الروحية بالامتناع عن بعض لذائذ الحسّ ، وبالتأمّل وبإبعاد النفس شيئاً من الوقت عن عالم الحسّ القريب بصورة من الصور ، فتصفو روحُه ، ويكتسب طاقةً روحيةً كبيرة ، كل هذه الأعمال هي في أصلها موهبة من الله ، وهي فيما تنتهي إليه كسب يكسبه البشر بجهد يبذلونه ، وتحصيل يكدون فيه ويكدحون.

أمّا الرسالة والنبوة فموهبةٌ من الله ذات طبيعة مختلفة ، إنه لا يد للإنسان فيها ولا كسب ولا اختيار، إنّما هي اصطفاء خالص من جانب الله سبحانه وتعالى لعبد من عباده يجتبيه ، وينعم عليه ، ويبعثه بالهداية إلى الناس[28].

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ *﴾ [الحج :75].

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم :58].

وقال سبحانه في إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ [البقرة :130].

---

[28] المصدر السابق ص (59).





وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي﴾ [الاعراف :144].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآل عمران عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾ [آل عمران: 33].

وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى *﴾ [طه :13].
وحقيقة أنّ الذين يصـطفيهم الله ليكونوا رسـلاً وأنبياء هم خيار الناس وأفضـلهم ، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ *﴾ [ص :47].

ولكن نحن لا نستطيع بمقياسنا أن نقول: إن فلاناً من البشر يستحق النبوة أو أنه أولى بها من غيره ، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الانعام :124].

فالنبوة إذاً محض اختيار من الله واصطفاء واجتباء ، ولذلك ردَّ الله زعم المشركين أن النبوة لا تليق إلا برجل عظيم من الأثرياء حين قالوا: فيما حكاه الله عنهم: ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القرآن عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ *﴾ [الزخرف :31] رد عليهم سـبحانه قائلاً: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف :32].
أي ليس الأمر مردوداً إليهم ، بل إلى الله عز وجل ، والله أعلم حيثُ يجعل رسـالته ، فإنّه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً ، وأشرفهم بيتاً ، وأطهرهم أصلاً ، فبيّن سبحانه في ردّ زعمهم أنّ النبوةَ رحمة منه يخص بها مَنْ يشاء من عباده ، وأنها منزلة رفيعة يرفع الله بها عبده فوق خلقه درجات ، ثم إنّ النبوة قد انقطعت بعد محمد (ﷺ) ، فلا نبيَّ بعده البتة ، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الاحزاب :40] كما هو ثابتٌ بالقرآن أيضاً ، فلا مطمعَ لأحدٍ في هذه المنزلة بعده (ﷺ) ، ولم يبلغْها من البشرِ إلاّ هو ، ومن تقدّمه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، فلا يبلغها غيرهم إلى قيام الساعة[29].

وقال (ﷺ) «أنا خاتم النبيين»[30]، وقال (ﷺ): «إلاّ إنه لا نبي بعدي»[31]. وفي الجملة ، فإن كونه (ﷺ) خاتمَ النبيين ، وأنه لا نبيَّ بعده ثابت بالتواتر من أحاديث رسول الله (ﷺ)[32].

ويأتي الحديثُ عن انقطاع النبوة بعد محمد (ﷺ) لاحقاً بإذن الله تعالى.

---

29 ركائز الإيمان ص (229).

30 مباحث في المفاضلة في العقيدة ، محمد الشليفي ص (176).

31 البخاري مع الفتح (58/6) ، تفسير ابن كثير (128/4).

32 البخاري مع الفتح (495/6).





خامساً ـ حاجة البشر إلى الرسل:

لم يستطع العقلُ البشري مرةً واحدةً أن يضعَ منهجاً متكاملاً خالياًمن العيوب ، وكلّما أبرزَ التطبيقُ العملي عيباً في تلك المناهج البشرية حاول البشرُ إصلاحه بعيبٍ جديدٍ تظهر نتائجه المنحرفة بعد حين من الزمان ، ذلك أنَّ وضعَ المنهج الصالح لحياة البشر يحتاجُ إلى جملةِ أمورٍ يقصُرُ عنها العلمُ البشري منها:

1 ـ أنّه يحتاج إلى معرفة حقيقية كاملة بالكيان البشري ذاته ، والإنسان ـ على الرغم من كلّ العلم المادي الذي عرفه ـ ما يزال شديدَ الجهلِ بكيانه الذاتي ، وهو بالتالي شديدُ الجهل بما يصلحه وما يصلح له.

2 ـ وأنّه يحتاجُ إلى إحاطة كاملة بماضي الجنس البشري وحاضره ومستقبله والتجارب التي خاضها ، وأسبابها ونتائجها ، وهذا يستحيل استحالة كاملة على الإنسان ، لأن كثيراً من أحداث الماضي مجهول له ، وهو عاجز عن الإحاطة بكل أحداث الحاضر الذي يعيشه ، أمّا المستقبل فهو غيب موصد أمامه لا يستطيع الاطلاع عليه.

3 ـــ وأنّه يحتاجُ إلى أن يكونَ واضحَ المنهج غير متحيّز ، لا مصلحة له في أمر من الأمور ، ولا هوى ولا شهوات ، وهذا أمر لا يتوفر أصلاً في الإنسان ، الذي ينجذبُ دائماً إلى مصلحته الذاتية ، وتحرّكه دائماً الأهواء والشهوات ما لم يلتزم بأمر الله ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا *إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا *وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا *إِلاَّ الْمُصَلِّينَ*﴾ [المعارج :19 ـ 20].

4 ـ وأنَّ واضعَ المنهج يحتاج إلى علم كامل بمن يطيعه في السرّ والعلن ، وإلى قدرة تامة على مجازاة من يطيع ، ومعاقبة من يعصي ، حتى يكونَ المنهجُ محترماً ومطبقاً ، وهذه الأوصافُ لا تتوفّر في الجنس البشري ، فالإنسان لا يرى إلاّ في حدود ما تبصر عيناه ، ولا يسمع إلاّ في حدود ما يبلغ سمعه.

أما الله عز وجل فإنه يعلم جميع ما يفعله الإنسان من خير وشر ، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *﴾ [المجادلة :7].

والله عز وجل قادر على أن يجازي من أطاعه ، ويعاقب من عصـــاه على الدقيق والجليل ، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ *وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ *﴾ [الزلزلة :7 ـ 8].

ومن ثَمَّ فإنّ المنهجَ الصالح لا يمكن أن يأتي إلا من مصدر واحد هو الله تعالى.





فالله هو الذي يعلم حقيقة الإنســـان ، لأنّه هو الذي خلقه ســـبحانه: ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ *﴾ [الملك :14][33].

والله هو الذي يعلمُ كلّ شـيء في حياة البشـر وفي الكون كله ، علم إحاطة واطلاع: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ *﴾ [سبأ :2] وقال تعالى: ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *﴾ [سبأ :3].

واللهُ هو الذي شرع التشريع الحكيم ، لأنه هو الغني القادر ، وليس محتاجاً إلى شيءٍ ممّا عند الناس ، وهو الواهب لهم كلَّ شــيءٍ ، وهو الذي لا يزيد في ملكه أن يكونَ الناسُ كلُّهم على أتقى قلب رجلٍ منهم ، ولا ينقص في ملكه على أن يكونوا كلهم على قلبِ أفجرِ رجلٍ منهم ، كما جاء في الحديث القدسي.

والهدايةُ الربانيةُ التي تشتمل على المنهج الصالح لحياة البشر طريقُها هو الرسل والرسالات ، ومن ثَمَّ تصبحُ الرسالةُ حاجةً بشريةً لا غنًى عنها ، ولا استقامة لحياة البشر من دونها. فكما تكفّل الله سبحانه وتعالى ـــ رحمة منه بعباده ـ بكل ما يحفظ حياتهم من الطعام والكساء والمأوى والعقل المدبر المنظم ، فقد تكفّل سبحانه كذلك بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب لتستقيمَ حياة الناس في الأرض ، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد :25][34].

فحاجةُ البشـر إلى رســالة الرســل: ضـرورةٌ للعباد ، لابدّ لهم منها ، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شــيء ، والرسالة روح العالم ونوره وحياته ، فأيّ صلاحٍ للعالم إذا عَدِمَ الروح والحياة والنور؟ والدُّنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمسُ الرسـالةِ ، وكذلك العبدُ ما لم تشـرقْ في قلبه شمس الرسـالة ، ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة ، وهو من الأموات ، قال الله تعالى:

﴿ فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الانعام :122].

فهذا وصــفٌ المؤمن كان ميتاً في ظلمة الجهل ، فأحياه الله بروح الرســالة ونور الإيمان ، وجعل له نوراً يمشــي به في الناس ، وأمّا الكافر فميت القلب في الظلمات.

إنَّ الله سمّى رســـالته روحاً ، والروح إذا عدم فُقِدت الحياة ، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى :52].

[33] المصدر نفسه ص (176).

[34] ركائز الإيمان ص (224).



فذكر هنا أصلين هما: الروح والنور ، فالروح الحياة ، والنور النور.

إنّ اللهَ يضـــرب الأمثال للوحي الذي أنزله حياة للقلوب ونوراً لها بالماء الذي ينزله من الســـماء حياة للأرض ، وبالنار التي يحصل بها النور ، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْـــرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ *﴾ [الرعد :17].

فشـبّه العلمَ بالماءِ المنزَلِ من الســماء ، لأنّ به حياة القلوب ، كما أنَّ الماء حياة الأبدان ، وشـبّه القلوبَ بالأودية ، لأنَّها محلّ العلم ، كما أنَّ الأودية محل الماء ، فقلب يسـع علماً كثيراً ، وواد يسـع ماءً كثيراً ، وقلب يسـع علماً قليلاً ، وواد يسـع ماءً قليلاً ، وأخبر تعالى أن الزَّبَدَ يعلو على السـيل بسـبب مخالطة الماء ، وأنّ هذا الزَّبَدَ يذهب جفاءً ، أي يرمى به ويختفي ، والذي ينفع الناس يمكث في الأرض ، ويستقرّ ، وكذلك القلوب ، تخالطها الشـهوات والشبهات ، ثم تذهب جفاء ، ويستقر فيها الإيمان والقرآن الذي ينفع صاحبه والناس.

وقال تعالى: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْـــرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ [الرعد:17] فهذا المثل الاخر هو الناري ، فالأول للحياة ، والثاني للضياء.

إنَّ الكافرَ يعيشُ في ظلمات الكفر والشـــرك ، فهو غير حيّ ، وإن كانت حياته حياة بهيمية ، فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التي سـببها الإيمان ، وبها تحصـلُ للعبدِ السـعادةُ والفلاحُ في الدنيا والاخرة ، فإنّ الله سـبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم بما ينفعهم وما يضرّهم ، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم ، وبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله ، وتعريف الطريق الموصـــلِ إليه ، وبيان حالهم بعد الوصـــول إليه: وهذا يحتاجُ إلى معرفة ثلاثة أصول:

الأصـل الأول: يتضـمّن إثبات الصـفات ، والتوحيد ، والقدر ، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه ، وهي القصـص التي قصّها الله على عباده ، والأمثال التي ضربَها لهم.

والأصل الثاني: يتضمّن تفصيلَ الشرائع ، والأمر والنهي والإباحة ، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه.

والأصل الثالث: يتضمّن الإيمانَ باليوم الاخر ، والجنةَ والنارَ ، والثوابَ والعقابَ.



على هذه الأصول الثلاثةَ مدارُ الخلق والأمر ، والسعادةُ والفلاحُ موقوفةٌ عليها ، ولا سبيل إلى معرفتها إلاّ من جهة الرسل ، فإنَّ العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها ، وإن كان يدرِكُ وجهَ الضرورة إليها من حيث الجملة ، كالمريض الذي يدرِكُ وجهَ الحاجة إلى الطب ، ومن يداويه ، ولا يهتدي إلى تفاصيلِ المرضِ ، وتنزيلِ الدواء عليه[35].

سادساً ـ الحكمة من إرسال الرسل:

من رحمة الله بعباده ، ومن جميل لطفه بهم ، وإحسانه إليهم ، أنْ بعثَ إليهم الأنبياء والمرسلين ، مبشرين ومنذرين ، ليكونوا منارات للهدى ، وأعلاماً للفضيلة ، ونجوماً زاهرة في سماء الإنسانية ، تضيء للعالم طريق الخير ، وترشدهم إلى السعادة ، وتنقذهم من براثن الشرك والوثنية ، وتسمو بهم إلى مدراج العزّ والكمال ، وقد جرت سنةُ الله في خلقه ألاّ يعاقبَ أمةً قبل أن يبعثَ إليها رسولاً ، يدعوهم إلى الخير والبر ، وينهاها عن السوء والشر ، وذلك حتى لا يدعَ لأحدٍ من البشر عُذراً ، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً *﴾ [الإسراء: 15]

ولئلا يقول الناس يوم القيامة: ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ﴾ [المائدة :19] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى *﴾ [طه : 134] وقال تعالى: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *﴾ [النساء:165].

فكانت حكمةُ الله ورحمته بعباده أن يقيمَ لهم موازين الحق والعدل ، ويفتح أعينهم على الهدى والرشاد ، وينصب لهم الدلائل والبراهين حتى تقومَ الحجة ، وتتضحَ المحجّة[36].

سابعاً ـ وظائف الرسل ومهماتهم:

1 ـ دعوة الخلق إلى عبادة الله الواحد القهار:

هذه هي الوظيفة الأساسية ، بل هي المهمة الكبرى التي بعث الله من أجلها الرسل الكرام ، وهي تعريف الخلق بالخالق جلا وعلا ، وإرشادهم إلى الإيمان بوحدانيته ، وتخصيص العبادة له دون سواه ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ *﴾ [الانبياء : 25].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل :36][37].

---

35 المصدر نفسه ص (245).

36 فتاوى ابن تيمية (93/0 ـ 96) ، الرسل والرسالات ص (34).

37 دراسات في التفسير الموضوعي ، د. زاهر الألمعي ص (242).





وقد بذلَ الرسلُ في سبيل دعوة الناس إلى الله جهوداً عظيمة ، وحسبُك في هذا أن تقرأ سورةَ نوحٍ لترى الجهدَ الذي بذله على مدار تسعمئة وخمسين عاماً ، فقد دعاهم ليلاً ونهاراً ، سرّاً وعلانية ، واستعمال أساليب الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد ، وحاول أن يفتحَ عقولهم ، وأن يوجّهها إلى ما في الكون من آيات ، ولكنّهم أعرضوا ، قال تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا *﴾ [نوح :21][38].

وقد ضــربت الملائكة للرســول (ﷺ) مثلاً توضّــح دوره ، وتبين وظيفته ، ففي الحديث: «إنّي رأيتُ في المنام كأنّ جبريل عند رأســي ، وميكائيلَ عند رجلي ، يقول أحدهما لصــاحبه: اضــربْ له مثلاً ، فقال: اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنّما مثلك ومثل أمتك ، كمثل ملكٍ اتخذَ داراً ، ثم بنى فيها بيتاً ، ثم جعلَ فيها مائدةً ، ثم بعث رســولاً يدعو الناسَ إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرســول ، ومنهم مَنْ تركه ، فالله هو المِلكُ ، والدار الإســلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد رسول ، من أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل ما فيها» رواه البخاري والترمذي[39].

2 . تبليغ أوامرِ الله ونواهيه للبشر:

فالأوامرُ الإلهية لابدَّ لها من مُبلّغٍ ، ولابدّ أن يكونَ هذا المبلّغُ من البشـر ، ليمكن الأخذُ عنه ، ولهذا فقد اختار الله عزّ وجلّ الرسل من البشـر ، وقد بلّغ الرسلُ عليهم السلام رسالةَ اللهِ إلى خلقه على الوجه الذي أمر به دون زيادة أو نقصـان ، أو تغيير أو كتمان ، يقول تبارك وتعالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَـوْنَهُ وَلاَ يَخْشَـوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا *﴾ [الاحزاب :39][40].

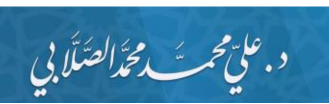
وقد جعل الله تعالى علامة الرسول تبليغ الرسالة وخاطب سيد الأنبياء بقوله عز من قائل: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَــالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِــمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ *﴾ [المائدة :67].

فالرسل سفراء الله إلى عباده ، وحملة وحيه ، ومهمتهم هي إبلاغ هذه الأمانة التي حملوها إلى عباد الله ، والبلاغ يكون بتلاوة النصــوص التي أوحاها الله من غير نقصــان ولا زيادة ، قال تعالى: ﴿ اتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [العنكبوت :45].

[38] عقيدة التوحيد ص (228).

[39] الرسل والرسالات ص (45).

[40] صحيح الجامع (319/2).



وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ [البقرة :151].

ومن البلاغ أن يوضّحَ الرسولُ الوحيَ الذي أنزله الله لعباده ، لأنه أقدر من غيره على التعرّف على معانيه ومراميه ، وأعرفُ من غيره بمراد الله من وحيه ، وفي ذلك يقول الله لرسوله (ﷺ): ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ *﴾ [النحل :44].

والبيانُ من الرسول للوحي الإلهي قد يكون بالقول ، فقد بيّن الرسول (ﷺ) أموراً كثيرة استشكلها أصحابُه ، كما بيّن المرادَ من الظلم في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ *﴾ [الانعام:82]. بين الرسول (ﷺ) أنَّ المراد به الشرك ، لا ظلمَ النفس بالذنوب ، كما بيّن الرسول (ﷺ) الآيات المجملة في الصلاة والزكاة والحج وغير ذلك بقوله.

وكما يكون البيانُ بالقول ، يكون بالفعل ، فقد كانت أفعالُ الرسول (ﷺ) في الصلاةِ والصدقةِ والحجِّ وغير ذلك بياناً لكثير من النصوص القرآنية ، وعندما يتولّى الناسُ ويعرضون عن دعوة الرسل ، فإنَّ الرسلَ لا يملكون غير البلاغ[41]، ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ﴾ [آل عمران: 20].

فالغايةُ من إرسالِ الأنبياء والمرسلين هو القيامُ بالتبليغ الديني ، فلو لم يأتوا لما عرفنا المسائل المتعلّقة بالعبادة ، ولما وصلتنا الأوامرُ والنواهي ، ولما عرفنا واجباتنا وما فرض علينا[42].

إنّ رسولنا (ﷺ) تحمّل عبئاً كبيراً مثل عبء النبوة ثلاثة وعشرين عاماً ، وقام بإيفاءِ حقّ وظيفته بنجاحٍ منقطعٍ النظير ، لم يتيسر لأي صاحب دعوةٍ اخر ، وبمثل هذه الروح ، وبهذه المشاعر الممتلئة بحب الله كان يتقدّم ويقترب من الهدف المنشود ، ومن النهاية المباركة.

وحج حجةَ الوداع ، وفي هذا الحجّ ركب رسول الله (ﷺ) ناقته ، وبلّغ كل ما يجب تبليغه مرة أخرى ، فمن قضايا القتل والفدية إلى حقوق المرأة ، إلى قضايا الربا ، إلى العلاقات بين الأقوام والقبائل ، إلى سواها من الأمور والمواضيع ، بل كلُّ ذلك مرةً أخرى ، وكان يتوجّه كلّ مرة إلى الجماعة المؤمنة قائلاً: «ألا هل بلغت؟» فكانت ترد عليه: نشهدُ أنك قد بلّغتَ وأدّيتَ ونصحتَ ، فكان يشيرُ بأصبعه إلى السماء ، وينكتُها على الناس قائلاً: «اللهم أشهد ، اللهم أشهد» ثلاث مرات[43].

---

[41] عقيدة التوحيد ص (229).

[42] الرسل والرسالات ص (44).

[43] النور الخالد محمد مفخرة الإنسانية ، محمد كولن ص (57).



لـقـد أدّى مهمتـه بحق ، وقـام بالتبليغ على أفضل وجه ، لذا فقد كان مستريحَ الضمير ، مرتـاحَ الـنفس ، مطمئنَ القلب ، وكان يتهيّأ لملاقاة ربِّه بعد أن استطاع أن يبلّغَ رسالة الله ، وحقق هدفه الذي من أجله أرسله خالقه[44].

3 . هداية الناس إلى طريق الخير وإرشادهم إلى الصراط المستقيم:

فمن وظائف الرسل:

أ ـــــ هداية البشـرية إلى معرفة الخالق وتوحيده: إنّ الفطرة البشـرية بذاتها تعرِفُ وجودَ الخالق ، وتتجه إليه بالعبادة ، ولكنّها كثيراً ما تضـلّ ، فتتصـور الخالق على غير حقيقته ، وتشـرك معه الهةً أخرى ، ومن ثَمَّ يرسـل الله الرسـلَ ليعرّفوا البشـر بحقيقة خالقهم ، وينفوا من عقولهم ونفوسـهم التصـوّرات الباطلة عن الله سـبحانه وتعالى ، وما يترتّب عليها من الخرافات في الفكر والسـلوك ، وليعالِجُوا بصـفة خاصـة قضـيةَ الشـرك ، وهي أشـدّ ما يتعرّض له البشـر من انحرافٍ في تصوّرهم للخالق وسلوكهم.

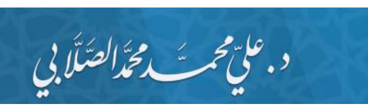
يقول الرسل جميعاً لأقوامهم: ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [:59 و65 و73 و85].

فالله سبحانه وتعالى واحدٌ أحدٌ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ *اللَّهُ الصَمَدُ *لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ *وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ *﴾.

ومن ثَمَّ تنتفي كلُّ نبوة لله ، أو قرابة لأحدٍ من البشـــــر أو الجنّ أو الملائكة مما تعجُّ به خرافاتُ الجاهلية ، ما بادَ منها وما لا يزالُ باقياً حتى اليوم ، كذلك ليس الله متمثّلاً في صـنم أو وثن أو في الشـمس أو القمر أو النجوم أو غيرها من الكائنات ، فكلُّها مخلوق ، والله هو الخالقُ ﴿ لاَ تَسْـجُدُوا لِلشَّـمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْـجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾[فصلت: 37].

وكذلك فإنّ الله لا يشركُ في حكمه أحداً، ولا يوزّع اختصاصاته سبحانه على أحدٍ من خلقه ، ولا يُنْتَزَعُ منه قهراً عنه ، قال تعالى: ﴿ لَهُ غَيْبُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِـرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ يُشْـرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا *﴾ [الكهف :26] ، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّـــــمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ *﴾ [سبأ :22] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ *﴾ [الانبياء :29].

[44] البخاري (132) مسلم (147).



كما يقوم الرسل بتعريف البشر بإلههم بصفاته كلّها ، وأسمائه الحسنى ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الاعراف : 180]. وقال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ *هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ *هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِىءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [الحشر :22 ـ 24].

فإذا عرفَ البشرُ ربَّهم على هذه الصورة ، وانتفى كلُّ وهم باطل عنه في أذهانهم وفي مشاعرهم ، بقيت القضيةُ الثانيةُ التي يضلّ البشر بشأنها في جاهليتهم ، وهي الطريقة الصحيحة لعبادة الله.

ب ـ العبادة الصحيحة: إنّ العبادةَ ليست فقط في الاعتقاد بأنّ الله واحدٌ لا شريكَ له ، ولا في تقديم شعائر التعبد من صلاة ونسك ودعاء الله وحده دون شريك ، بل هناك أمرٌ اخرٌ ، قال تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ *﴾ [الاعراف :3].

إنّه لابدّ من اتباع ما أنزل الله ، وإلا فقد بطلت العبادة ، ولم يصبح المعبود إلهاً واحداً ، وإنّما إلهين اثنين ، واحد تُقدَّم له شعائر التعبد ، وواحد يَشْرَعُ وتُطاع تشريعاته من دون الله ، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل :51].

تلك هي المهمةُ الكبرى للرسل جميعاً صلوات الله عليهم وسلامه ، أن يهدوا البشرية إلى الإله الواحد ، ويدلّوهم على الطريقة الصحيحة لعبادته ، وبذلك تقوم حياتُهم على قاعدتها الصحيحة: إفرادُ الله سبحانه وتعالى بالإلوهية والربوبية ، وتوحيد العبادة له في الاعتقاد وشعائر التعبد ، واتباع ما أنزل الله من التشريع ، أي الحكم بما أنزل[45].

4 ـ تقديم القدوة الحسنة:

ومن الأسباب التي يمكن ذكرها لإرسال الله تعالى أنبياءه ورسله ، هو أنْ يكونوا أسوةً حسنة وقدوة متبعة لأممهم ، فالله تعالى يذكر في قرانه الكريم: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الانعام :90].

هذه الآية موجهةٌ للرسول (ﷺ) توصيه بالاقتداء بالأنبياء الذين سبقوه ، بعد أن ذكر أسماءَهم واحداً تلوَ الاخر ، ثم إنّ القرآن الكريم يخاطِبنا قائلاً: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: 21].

45 النور الخالد ص (61).



فالأنبياءُ أسوةٌ حسنة لنا ، وهم أئمتنا ، فكما نتّبع الإمامَ في الصلاة ، نتبع سلوك الأنبياء في جميع تفاصيل الحياة ، وتقتدي بهم ، ذلك لأنّ الحياة الحقيقية بالنسبة إلينا يمثّلها نبينا والأنبياء الاخرون صلوات الله وسلامه عليهم والصحابة الذين عاشوا عهد رسول الله (ﷺ) اقتدوا به[46].

5 . تأمين التوازن بين الدنيا والاخرة:

أتى الأنبياءُ والرسلُ لتأمين التوازن بين الدنيا والاخرة ، فبمقياس التوازن الذي جاؤوا به يستطيعُ ابنُ ادم أن يجدَ طريقه المستقيم ، ومنهاجه الصحيح ، ويتخلّص من الإفراط والتفريط ، فلا يجب ترك الدنيا ، والاعتكاف في الأديرة والصوامع كالرهبان ، ولا يجبُ الانغماسُ في الدّنيا ، والانقلابُ إلى عبدٍ لها ، وأسير في يدها ، بل الأفضلُ العثور على الطريق الوسط ، ولا يمكن ذلك إلا بواسطة الوحي ، فالعقلُ والوجدان لا يستطيعان إنشاءَ مثل هذا التوازن ، والعلم الصرف

أبعد منهما عن الوصول إلى هذا الهدف ، وتحقيق هذه الغاية ، إذ لا يستطيعُ رفعَ الإنسان إلى هذا المستوى ، والقرآن الكريم يشرحُ هذا التوازنَ فيقول تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ *﴾ [القصص :77].

فإذا وضعتَ في إحدى كفتي هذا الميزان الإلهي الحقائقَ التي تنطق بها الآية الكريمة عليك أن تضع التحذيرَ الذي تتضمنه الآية الكريمة ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ *﴾ [التكاثر :8].

وهكذا يتمّ حفظ التوازن بهذه المقاييس والموازين ، ومع أنّ الدنيا أقبلت على الصحابة ، فإنهم عاشوا حياة متوازنة ، ذلك لأن قدوتهم وأسوتهم ومرشدهم عاش كذلك[47].

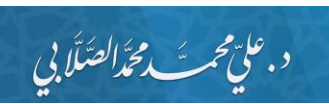
6 . تعريف الناس بالقيم الحقيقية التي تستحقُّ الاعتبارَ ، وتستحقُّ أن يحرصَ الناسُ عليها ، ويَسْعَوا إلى تحصيلها:

فالناسُ بطبيعتهم منجذبون دائماً إلى متاعِ الأرض ، قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: 14].

---

46 ركائز الإيمان ص (248).

47 النور الخالد ص (62).



وهم يحتاجون دائماً إلى مَنْ يرفعهم من ثقلة الأرض هذه ، ويبصّـــرهم بالقيم العليا التي ينبغي أن يتّجهوا إليها من صـدقٍ وإخلاصٍ وأمانةٍ وتضـحيةٍ وكرمٍ وشـجاعةٍ وإيثارٍ وعدلٍ ، ممّا يليقُ بالإنسـان الذي كرّمه الله وفضّـله وجعله خليفة في الأرض ، وحمّله الأمانة الكبرى.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة :30].
قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّـــلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً *﴾ [الاسراء :70].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْـــنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ ﴿ وَأَشْـــفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾[الأحزاب: 72].

فالرسلُ والأنبياء يقرّون ــــ بصورة واقعية مشهودة ــــ أنّ القيمة الحقيقية العليا هي الإيمان بالله ، والدعوة إلى الله ، والجهاد في سـبيل الله ، وأنّ ذلك أفضـلُ وأعلى وأغلى من متاع الأرض كله ، ومن الذهب والسـلطان ، عندئذٍ تتغير القيم والمعايير في حياة الناس ، فأمّا الأتباع الذين امنوا ، فإنّهم يرون رسـولهم الذي اقتدوا به ، وامنوا على يديه ، يصـبر على الأذى في سـبيل عقيدته ، ويصـبر عليها ، ولا يتخلّى عنها تحت أي ضـغط من إغراء أو تهديد ، فيقتدونَ به ، ويصبرون معه على الأذى والاضطهاد والتشريد والتعذيب والحرمان ، ويستعلون بالعقيدة على متاع الأرض كله ، كما استعلى سحرةُ فرعون بعد إيمانهم.

قال تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّـحَرَةُ سُـجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَـى *قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى *قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِـي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا *إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى *﴾ [طه :70 ـ 73].

وأمّا بقية الناس فإنّهم ـ تدريجياً ـ يستيقظون من غفلتهم ، إذ يرون قوماً من الناس يهدّدون في أمنهم وراحتهم ، وفي كلّ المتاع الذي يحرصـــون هم عليه ، ويرون أنّه غاية الحياة كلّها ، وأغلى ما فيها ، ومع ذلك لا يتخلّون عن إيمانهم وعن عقيدتهم ،

فيتعلّمون أنّ هناك في الحياة ما يُحْرَصُ عليه أكثر المتاع ، وما يضحي من أجله بالمتاع ، ذلك هو رضوان الله وهو متاع الاخرة ، قـال تعـالى: ﴿ وَمَـا هَـذِهِ الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَـا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الـدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَـانُوا يَعْلَمُونَ *﴾ [العنكبوت :64] وقـال تعـالى: ﴿ كُـلُّ نَفْسٍ ذَائِقَـةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَـا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَـامَـةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّـارِ



وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ *﴾ [آل عمران: 185] وعندئذٍ يعدّلون معاييرَ حياتهم ، ليرتفعوا كما ارتفعتْ تلك الفئةُ المؤمنةُ ، ويدخلوا في الإيمان.

وأمّا الذين أصرّوا على الباطل ، واستحبّوا الحياة الدنيا على الاخرة ، ورفضوا الهُدى الرباني ، فأولئك مالهم الدمار والبوار ﴿ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ *وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ *﴾ [ابراهيم :28 . 30]. وهكذا تتقرّر القيم العليا . في ذروتها . من خلال الصراع الذي يخوضه الرسل وأتباعهم بين الحق والباطل ، ويتميّز النفع الحقيقي من الزائف ، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ *﴾ [الرعد :17] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾ [البقرة :251]. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *﴾ [الحج :40][48].

7 . التعريف والتعليم والتزكية:

من وظائفِ الأنبياءِ والمرسلين تعريفُ الناس بالمنهج الحقّ ، الذي تستقيم به حياتهم في الدنيا ، وينالون به رضوان الله في الاخرة ، وذلك بتبليغ ما أوحى الله به إليهم وشرحه وبيانه ، وتعريف الناس به بطريقة تطبيقية ، وتدريبهم على ذلك ، كما يفعل المعلّم مع تلاميذه ، حتى يطمئنوا أنَّ أتباعهم قد وعوا ما أنزل الله وعياً صحيحاً ، وطبقوه التطبيق الصحيح.

ولا تقتصر مهمةُ الرسل على التعريف والتعليم ، على ما لهذا الأمر من أهمية بالغة في حياة الناس ، إنما تمتدّ إلى التربية والتزكية ، فليس دينُ الله معلوماتٍ تلقى ثم تحفظ ، إنما هو سلوكٌ علمي بمقتضى التعليم الرباني[49]، والوحي الإلهي الذي أخرجَ الله به من شاء من الناس من الظلمات إلى النور ، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة :257].

وقد أرسل الله رسلَه بهديه ، ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [ابراهيم :5] وقال تعالى:

48 النور الخالد ص (64).

49 ركائز الإيمان ص (254).





﴿ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *﴾ [الجمعة :2].

8 ـ التذكير بفقه القدوم على الله والذي مِنْ مفرداته التذكير بالنشأة والمصير ، وتعريف الناس بما بعد الموت من شدائد وأهوال ، وإلى أين المصير:

قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ *فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ *﴾ [المؤمنون :115 ـ 116].

ويعرّفون الناسَ بحقيقةِ الموت ، وأهمية تذكره في حياة الإنسان ، للابتعاد عن المعاصي ، وتليين القلب القاسي ، وتهوين المصائب ، فمن أكثر من ذكر الموت قلّ فرحه ، وقلّ حسده ، واستعدّ للرحيل.

يعلّمون الناسَ أنّ حياة الإنسان لا تنتهي بانتهاء الحياة الدنيا ، وإنّما تنتهي مرحلة فحسب ، وتبدأ مراحلُ أخرى ، تنتهي بالبعث والنشور والامتحان الذي يُكْرَمُ المرءُ فيه أو يُهان ، فيصل إلى النعيم الخالد ، أو العذاب المقيم ، فالحياة التي يحياها الناسُ على الأرض هي أقصر مراحلها؟ سنوات معدودة هي سنوات العمر المحدود ، وبعد ذلك من الاماد ما لا يحصيه إلا الله ، ثم بعد ذلك الخلود.

ألا إنه هو الخسران المبين ، حين ينحصر تفكيرُ الناس في الحياة الدنيا ، ولو أصلحوا كلَّ أمور الحياة الدنيا ، واستمتعوا فيها بكل ما يشتهون ، قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ *ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ *مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ *﴾ [الشعراء :205 ـ 207].

فكيف وهم لا يصلحون كلَّ أمور الأرض؟! وكيف ونعيمُ الأرض دائماً مشوبٌ ، وأقل عيوبه القلقُ الدائمُ من تقلّب الأحوال ، وهي دائماً تتقلب ، من الموت ، وهو لابدّ أن يجيء.

إنها الخسارة المضاعفة ، في الحياة الدنيا وفي الحياة الاخرة ، قال تعالى: ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *﴾ [العنكبوت :64].

لذلك فكلُّ علم الأرض لا ينفعُ إذا انقطع بالإنسان عن الله واليوم الاخر ، إنّما العلمُ النافعُ هو الذي ينفعُ الناسَ في دنياهم واخرتهم معاً ، فيحقق لهم مصالحهم الحقيقية في الدنيا ، ويصل بهم إلى دار الأمان في الاخرة ، قال تعالى: ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ *﴾ [إبراهيم: 23] وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ *﴾ [الأنبياء: 102 ـ 103].



وفقه القدوم على الله ـــ هو المعرفةُ اليقينية بالله واليوم الاخر ـــ واتباع ما أنزل الله في الحياة الدنيا ، وهذا هو الذي يضمنُ للناس حاضرَهم ومستقبلهم ، فأمّا حاضِرُهم فيصلح ويستقيم باتباع المنهج الرباني ، وأمّا مستقبلهم فيصلحُ بدخول الجنة التي وعدَ اللهُ بها عباده المتقين ، الذين امنوا به في الحياة الدنيا ، واستقاموا على أوامره ، وانتهوا عن نواهيه، وعندئذٍ يكون العلم الأرضي كله ـ من طب ، وهندسة ، وعلوم ، ورياضيات ، وكيمياء ، وفيزياء...إلخ ـ محققاً الفائدة ، لأنه يعينُ الناسَ على تحقيق المنهج الرباني ، ولا يفتنهم عن الاخرة ، وإلا فإنه ـ هو ذاته ـ يصبحُ علماً ضاراً إذا استُخدِم في تزيين الحياة الدنيا ، يفتن الناس عن عبادة ربهم الحق ، وينسيهم ثواب الله وعقابه ، ويغرقهم في ضلال الشهوات.

وهذا العلمُ النافع ينفردُ به الأنبياء والرسل ، لأنهم يتلقّونه تلقياً مباشراً من الله سبحانه وتعالى عن طريق الوحي ، ويؤمنون به إلى درجة اليقين ، ثم يدعون الناس إلى الإيمان به لتصلحَ دنياهم واخرتهم[50].

وبالعلم النافع وحدَه صلحتْ أحوالُ الناسِ خلالَ التاريخ ، واستخدم العلم الأرضي في ظله في نفع الناس وفي الخير، وبغير هذا العلم ـ الذي تفرّدَ به الأنبياء والرسل ، ودعا به الدعاةُ المؤمنون من بعدهم ـ ظل العلم الأرضي ينفعُ ويضرُّ ، ويزدادُ ضرره على نفعه على مرّ الأجيال[51]، عندما ابتعد عن هداية السماء ووحي الهادي إلى الصراط المستقيم.

9 . قيادة الأمة وسياستها الدينية والدنيوية:

الرسولُ في قومه هو قائدُهم وزعيمُهم ورئيسُهم وحاكمُهم وقاضيهم ومديرُ سياستهم الدينية والدنيوية ، ولذلك أمرَ اللهُ أتباع كلّ رسولٍ بطاعة رسولهم ، وجعل طاعتهم للرسول جُزءاً من طاعته سبحانه ، فقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء :64] وقال سبحانه: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً*﴾ [النساء :59].

وأما كون الرسول حاكماً وقاضياً في أمته فتشهدُ له نصوصٌ كثيرة من القرآن منها قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة :49][52].
وقاله تعالى: ﴿ يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: 26].

---

50 المصدر نفسه.

51 ركائز الإيمان ص (364) الإيمان باليوم الآخر للمؤلف.

52 ركائز الإيمان ص (365).



وقاله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور :51].

وقاله تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80].
وقاله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31].

10 . الشهادة على الأمة وإقامة الحجة لئلا يبقى للناس حجةٌ عند الله تعالى:

كما قال سبحانه: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165].

ووظيفة الشهادةِ هذه يقوم بها أيضاً أتباعُ الرسول الذين بلّغوا رسالته للناس في عصره ، وللأجيال من ورائه ، وفي ذلك يقول الله تعالى في حق أمة محمد (ﷺ): ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة :143][53].

ولو لم يرسل الله الرسلَ إلى الناس لجاءوا يومَ القيامة يخاصمون الله جلّ وعلا ، ويقولون: كيف تعذّبنا وتدخلنا النار ، وأنت لم ترسلْ إلينا مَنْ يبلّغنا مرادك منا ، كما قال تعالى: ﴿ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى *﴾ [طه: 134].

أي لو أهلكهم الله بعذابٍ جزاءَ كفرهم قبل أن يرسلَ إليهم رسولاً لقالوا: هلاّ أرسلتَ إلينا رسولاً كي نعرفَ مرادك ، ونتبعَ آياتك ، ونسيرَ على النهج الذي تريد؟ وفي يوم القيامة عندما يجمعُ الله الأولين والاخرين يأتي الله لكلّ أمة برسولها ، ليشهدَ عليها بأنّه بلغها رسالة ربه ، وأقام عليها الحجة. ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا *يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا *﴾ [النساء: 41 ـ 42].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاَءِ﴾ [النحل: 89].

ولذلك فإنّ الذين يرفضون اتّباع الرسل ، ويُعْرِضون عن هديهم لا يملكون إلاّ الاعترافَ بظلمهم إذا وقع بهم العذاب في الدنيا ، قال تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ *فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ *لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ *قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ *فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ *﴾ [الانبياء: 11 ـ 15].

---

[53] عقيدة التوحيد ص (230).

ويوم القيامة عندما يساقون إلى المصير الرهيب ، وقبل أن يُلْقَوْا في الجحيم يسألون عن ذنوبهم فيعترفون ، قال تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ *قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ *وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ *فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ *﴾ [الملك: 8 ـ 11].

وعندما يضجّون في النار بعد أن يُحيطَ بهم العذابُ من كلّ جانب ، وينادَوْنَ ويصرخون يقول لهم خزنة النار ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ *﴾ [غافر :50][54].

11 ـ التبشير والإنذار:

دعوةُ الرسل إلى الله تقترنُ دائماً بالتبشير والإنذار ، لأنّ ارتباطَ الدعوة إلى الله
بالتبشير والإنذار وثيقٌ جداً ، فقد قَصَرَ القرآن مهمة الرسل عليهما في بعضِ آياته ، قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [الكهف :56].

وتبشيرُ الرسل وإنذارهم دنيوي وأخروي ، فهم في الدنيا يبشّرون الطائعين بالحياة الطيبة، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل :97] وقال تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى *﴾ [طه :123]. ويَعِدُونهم بالعزّ والتمكين والأمن ، وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: 55].

ويخوّفون العصاة بالشقاء الدنيوي ، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124].

ويحذّرونهم من العذاب والهلاكَ الدنيوي ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ *﴾ [فصلت: 13].
وفي الاخرةِ يبشرون الطائعين بالجنة ونعيمها ، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *﴾ [النساء: 13].
ويخوّفون المجرمين والعصاة من عذاب الله في الاخرة ، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ *﴾ [النساء : 14].ومن يدرس دعواتِ الرسلِ يجد أنّ مِن وظائفها التبشيرَ والإنذار[55].

[54] عقيدة التوحيد ص(230).
[55] الرسل والرسالات ص (53).





ثامناً ـ من أهمّ صفات الأنبياء والمرسلين:

ذكر العلماء صفات في الأنبياء منها:

1 ـ الذكورة:

فالنبوّة خاصّـةٌ بالرجال ، ولا تكونُ للنســاء أبداً ، والدليلُ على ذلك هو واقعُ حالِ الرســل ، فالله سـبحانه لم يختر رسلَه الذين بعثهم إلى الناس على مرّ العصور إلاّ من الذكور ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ *﴾ [الانبياء : 7] وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِـــيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *﴾ [يوسف: 109] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ *﴾ [النحل : 43].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره يا محمد لا نساء ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً﴾ ملائكة[56].

والحكمةُ من تخصيص الرجال بالنبوّة دون النسـاء ، أنّ النبوة عِبءٌ ثقيل ، وتكليف شـاق ، لا تتحمّله طبيعة المرأة الضعيفة بتركيبها البيولوجي والنفسي ، الذي أعدت من خلاله لأداء وظائف الأمومة والتربية ، ولهذا كان جميعُ الأنبياء من الذكور ، لأنّ مهام الرسـالة مضـنيةٌ ، تحتاجُ إلى مصـابرة ومجاهدة ، وتتطلّب الكفاحَ والسـفر ، وخوض المعارك ، وتحمّل المشـاق ، والرجلُ أقدر على ذلك من المرأة ، ولقد عانى الرسـلُ جميعاً محناً قاسـيةً من قِبلِ أقوامهم حين كانوا يدعونهم ، وابتلوا ابتلاءاً شـديداً في سبيل تبليغ دعوة الله ، ولهذا قال تعالى مخاطباً سيد المرسـلين: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف :35].

2 ـ الحرية:

وكما اشـــترط في الرســـول أن يكون ذكراً ، كذلك لابدّ أن يكون حراً ، لأنّ العبودية مطعنٌ يطعن به الكفّار على الرسول ، ويعيّرونه بها ، هذا بالإضافة إلى أنها قيدٌ لا يتّفق مع المهمة التي أرسل الرسول من أجلها[57].

3 ـ البشرية:

لقد أكّد القرآن الكريم على صفات الرسل البشـرية لحماية جانب التوحيد ، فالخالق خالق ، والمخلوق مخلوق ، وإذا كانت تلك الصـفات تدفع بالنفس الضـعيفة أن تؤلّه هؤلاءِ الصـفوة ، فإنّ هذه الصـفات تعين على الثبات في الموقف الصحيح ، وتقي من الانزلاق ، وهي مع تلك تكمّل الصورة الحقيقية لهؤلاء الصفوة ، ومن الأمثلة على ذلك:

---

[56] الرسل والرسالات ص (48) .

[57] تفسير الطبري (380/13).



أ ـــ التأكيد على أن هؤلاء الصفوة هم بشرٌ من خلق الله: قال تعالى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [ابراهيم: 11]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَــرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *﴾ [الكهف: 110]. وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 79].

ب ـــ التأكيد على أنهم عباد الله: فعن نوح عليه السلام قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ *﴾ [القمر : 9].

وعن داود عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ *﴾ [ص: 30].

وعن أيوب عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص: 41].

وعن عيسى عليه السلام قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا *﴾ [مريم :30].

عن محمد (ﷺ) قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الاسراء :1] وقال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: 1][58].

ج ـــ ليس فيهم شيءٌ من خصائص الألوهية: إنهم لا يملكون من أمر الله شيئاً ، ولا ينفعون ولا يضرون إلا بإذن الله ، ومقتضى كونهم بشراً أنهم ليسوا بالهة ، وليس فيهم من صفات الألوهية شيءٌ ، ولذلك فإنّ الرسل يتبرؤون من الحول والطول ، ويعتصمون بالله الواحد الأحد ، ولا يدّعون شيئاً من صفات الله تعالى ، قال تعالى مبيناً براءة عيسى عليه السلام مما نسب إليه:

﴿ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *﴾ [المائدة: 116ـ117].

والرســول لا يتصــرّف في الكون ، ولا يملك النفع أو الضــر ، ولا يؤثر في إرادة الله ، ولا يعلم من الغيب إلا القَدْرُ الذي أراده الله له ، قال تعالى: ﴿ قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّــنِيَ السُّــوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِــيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *﴾ [الاعراف: 188][59]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لاَ

[58] عقيدة التوحيد ص (239).
[59] المحكم في العقيدة ص (139).





تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص : 56] وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَدًا *﴾ [الجن : 21] وقال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الانعام : 58].

د ـــ ذكر عوارضهم البشرية ، كالمرض والجوع والتعب والأكل والموت والغضب.. إلخ: فهم يتّصفون بالصفات التي لا تنفكّ عنها البشرية ، فمن ذلك كونهم جسداً يحتاجون لما يحتاجُ إليه البشر من الطعام والشراب ، ويُحْدِثون كما يحدث البشر ، لأنّ ذلك من لوازم الطعام والشراب.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ *وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ *﴾ [الانبياء: 7 ـ 8].
ومن ذلك أنّهم وُلدوا كما وُلِدَ البشر ، لهم اباء وأمهات ، وأعمام وعمات ، وأخوال وخالات ، يتزوّجون ، ويولد لهم ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد : 38].

ويصيبُهم ما يصيبُ البشر من أعراض ، فهم ينامون ، ويقومون ، ويصحّون ، ويمرضون ، ويأتي عليهم ما يأتي على البشر ، وهو الموت.
قال تعالى في ذكر إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام: ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ *وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ *وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ *﴾ [الشعراء: 79 ـ 81][60].

وقال تعالى عن لوط عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ*﴾ [هود: 77].

وقال تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ*﴾ [يوسف: 13].

وقال الله تعالى لعبده ورسوله محمد (ﷺ): ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ *﴾ [الزمر: 30].

وقال تعالى مبيناً أنّ هذه سنته في الرسل كلهم: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ﴾ ﴿ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[آل عمران: 144].

وقد جاء في وصف الرسول (ﷺ): كان بشراً من البشر يفلّي ثوبه ، ويحلبُ شاته ، ويخدمُ نفسَه[61].

---

[60] العقيدة الإسلامية ، د. أحمد جلي ص (226).

[61] الرسل والرسالات ص (74).



وقد صحّ أنَّ الرسول (ﷺ) قال لأم سُلَيْمٍ: «يا أمَّ سُليم ، أما تعلمينَ أنّي اشترطتُ على ربّي فقلت: إنّما أنا بشرٌ ، أرضى كما يرضى البشرُ ، وأغضبُ كما يغضبُ البشرُ ، فأيّما أحدٍ دعوتُ عليه من أمّتي بدعوةٍ ليسَ لها بأهلٍ ، أن يجعلها طهوراً وزكاةً وقُربةً يقرّبه بها منه يوم القيامة»[62].

هـ تعرض الأنبياء للبلاء: الأنبياءُ لا يصابون بالبلاء فحسب ، بل هم أشدُّ الناس بلاءً ، فعن المصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت لرسول الله (ﷺ): أي الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجلُ على حَسَبِ دينه ، فإنْ كانَ دينُه صلباً اشتدّ بلاؤه ، وإن كان في دينه رقةٌ ابتلِيَ على حسب دينه ، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يتركَه يمشي على الأرضِ ما عليه خطيئةٌ»[63].

ودخل أبو سعيد الخدري على الرسول (ﷺ) وهو يوعَكُ ، فوضعَ يده على الرسول (ﷺ) ، فوجدَ حرّاً بين يده فوق اللحاف ، فقال: يا رسول الله ، ما أشدّها عليك؟! قال: «إنّا كذلك ، يضعّفُ علينا البلاءُ ويضعّفُ لنا الأجرُ» قلت، يا رسول الله ، أي الناسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياءُ ، ثم الصالحون ، إنْ كانَ أحدُهم ليُبتلى بالفقر ، حتى ما يجدُ إلا العباءةَ التي يحويها ، وإن كان أحدُهم ليفرحُ بالبلاءِ كما يفرحُ أحدُكم بالرخاء»[64].

فالأنبياءُ قد يسجنون كما سُجنَ يوسف ، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف : 33] ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ *﴾ [يوسف: 42] كما ذكر الله تعالى.

وقد يصيبهم قومُهم بالأذى ، وقد يرمونهم ، كما أصابوا الرسول (ﷺ) في معركة أُحدٍ فأدموه ، وكسروا رباعيته ، وقد يخرجونهم من ديارهم ، كما هاجر إبرهيم عليه السلام من العراق إلى الشام ، وكما هاجر نبينا محمد (ﷺ) من مكة إلى المدينة ، وقد يقتلونهم ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ *﴾ [البقرة: 87].

وقد يصابون بالأمراض ، كما ابتلى اللهُ نبيَّه أيوبَ فصبر ، وقد صحّ عن الرسول (ﷺ) أنه قال: «إنَّ نبيَّ الله أيوب لبثَ في بلائه ثمانيَ عشرةَ سنةً ، فرفضه القريبُ والبعيدُ إلا رجلينِ من إخوانِه»[65].

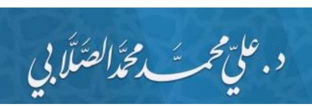
---

62 سلسلة الأحاديث الصحيحة ، الألباني رقم (671).

63 المصدر نفسه رقم (84).

64 سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (143).

65 المصدر نفسه رقم (17).



وكان من ابتلائه أنْ ذهبَ أهلُه ومالُه ، وكان ذا مالٍ وولدٍ كثير ، قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ *فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ*﴾ [الانبياء: 83 . 84].

و ـــ اشتغال الأنبياء بأعمال البشر: ومن مقتضى بشريتهم أنّهم قد يقومون بالأعمال والأشغال التي يمارسها البشر ، فمن ذلك اشتغال الرسول (ﷺ) بالتجارةِ قبل البعثةِ ، ومن ذلك رعي الأنبياءِ للغنم ، فقد روى جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنه قال: كُنّا مع رسول الله (ﷺ) نجني الكُبَاث[66]، وأنّ رسول الله (ﷺ) قال: «عليكم بالأسود منه ، فإنّه أطيبُه» قالوا: أكنت ترعى الغنم؟ قال: «وهل مِنْ نبيٍّ إلا وقد رعاها»[67].

ومن الأنبياء الذين نصّ القرآن على أنهم رعوا الغنم نبيُّ الله موسى عليه السلام ، فقد عمل في ذلك عِدّةَ سنوات ، فقد قال له العبد الصالح: ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ *﴾ [القصص: 27 . 28].

قال ابن حجر: والذي قاله الأئمة: إنّ الحكمةَ في رعاية الأنبياء للغنم ليأخذوا أنفسَهم بالتواضع ، وتعتادَ قلوبهم بالخلوة ، ويترقوا من سياستها إلى سياسة الأمم[68].

ومن الأنبياء الذين عملوا بأعمال البشر داود عليه السلام ، فقد كان حداداً يصنع الدروع ، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ *﴾ [الانبياء : 80] ، وكان في الوقت نفسه ملكاً ، وكان يأكل مما تصنعه يداه ، ونبي الله زكريا كان يعملُ نجاراً[69].

ز ـــ لِمَ لمْ يكن الرسل ملائكة؟ الرسل جميعاً من البشر ، ومن الأمم نفسها التي بعثوا فيها ، يتحدّثون لغة قومهم ، ويعيشون بينهم ، وقد كان ذلك لحكمةٍ أرادها الله تعالى لم تتضح للمخاطبين وبالرسالات ، ومن ثَمَّ أنكروا أن يكون الرسل بشراً.

---

[66] الكباث: ثمرُ الأراك ، ويقال ذلك للناضجِ منه.
[67] المصدر نفسه رقم (144).
[68] البخاري ، فتح الباري (6/438).

[69] المصدر السابق (6/439).





قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الانعام: 91] أوأن يتنزّل الوحيُ الإلهي على واحدٍ من البشرِ على الإطلاق. وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً *﴾ [الاسراء : 94].

لأنّ طاقات البشر وإمكاناتهم المألوفة لديهم لا تتناسبُ وتحمُّل الوحي ، بل الذي يتناسب مع ظاهرة الوحي العجيبةِ نزولُ ملَكٍ يقوم بهذه المهمة ، أو يعيّن الرسول في القيام بها. قال تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ *﴾ [المؤمنون : 24]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا*﴾ [الفرقان: 7].

وقد بيّنَ القرآن أنَّ هؤلاء القوم بمطلبهم هذا قد غفلوا عن عِدّة أشياء منها:

* أنّ الملائكة لم يخلقوا لسكنى الأرض، والعيش فيها باطمئنان ، قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً *قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً *﴾ [الاسراء: 94 ـ 95].

* أنّ الملك لو نزل على الأرض؛ فلابدّ أن يتّخِذَ صورةَ البشرِ ، وعندئذٍ لا يستطيعون أن يتعرّفوا على حقيقته الملائكية، ولا أن يميّزوا بينه وبين سائر البشر. قال تعالى:
﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ *﴾ [الانعام: 9].

* لو كان الرسولُ من غير البشر أنفسهم لانتفت الحكمةُ من إرساله ، لأنّ الرسل أرسلوا لا للتبليغ فحسب ، بل ليكونوا قدوةً عملية لأقوامهم ، فلو كان الرسول مَلَكاً ، لما تحققت القدوة والمثال ، ولامتنع الناسُ من الالتزام بأوامر الله، ولقالوا: نحنُ بشرٌ لنا نَزَعاتٌ وشهواتٌ ، وليس في وسعنا الالتزامُ بما تلتزم به الملائكةُ ، فكيف يُطْلَبُ منا الاقتداء بهم في أعمالهم ، أفلا يرسِلُ إلينا بشراً مثلنا ، يحسّ كما نحسّ ، ويفكّر كما نفكّر ، ويشعر بضروراتنا وبحدود طاقاتنا؟ وبذلك تتجلى الحكمة من إرسال الرسل بشراً ، حتى لا يقف اختلاف الجنس حائلاً بين الناس وبين الاقتداء برسولهم فيما يفعل وما يقول ، وحتى تتمثل الأسوة للبشر في واحدٍ من جنسهم له نفس تركيبهم ونفس ضروراتهم البشرية من طعام وشراب وملبس ومسكن.. إلخ فهو يأكلُ الطعامَ ، ويمشي في الأسواقِ ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا *﴾ [الفرقان: 20].





والله سبحانه وتعالى اصطفى الأنبياء والرسل ، ومنحهم القدرةَ على تلقي الوحي الإلهي بإمكاناتٍ خاصة ، أودعها نفوسَهم ، دون أن يخرِجَهم ذلك عن حدودِ بشريتهم[70].

4 . الصدق:

الصدقُ هو محورُ النبوةِ ، ومدارُ ارتكازها ، فكلّ ما ينطق به الأنبياءُ صدقٌ خالصٌ ، ولا يمكن أن يجافي الواقعَ أو الحقيقةَ ، وعندما يشرح القرآن الكريم فضائل الأنبياءِ يشيرُ إلى هذه الصفة عندهم[71].

لقد وصف الله تعالى أنبياءه بالصدق على سبيل التعيين أو الإجمال في غير ما اية من كتابه العزيز ، كقوله عن إدريس عليه السلام: [مريم: 41]. ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَدِّيقًا نَبِيًّا *﴾ عن إسماعيل عليه السلام: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا *﴾ [مريم: 54]. وقوله عن موسى عليه السلام: ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ [الاعراف: 105]. وقوله عن يوسف عليه السلام: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف : 46]. وقوله فيه: ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ *﴾ [يوسف :51]. وقوله في حقِّ نبينا محمد (ﷺ): ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الاحزاب: 22]. وقوله في حقه أيضاً: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ *وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ *﴾ [الزمر: 32 . 33].

فسمى ما جاء به من عند الله من أحكام شرعه ، وأخبار رسله وخلقه ، قراناً أو سنة ، سمّاه صدقاً ، وذلك وقفٌ له بالالتزام ، إذ لا يأتي بالصدق إلا صادقٌ ، وذلك مما لا جدال فيه ، حيث كان صدقُه معلوماً من حداثةِ سنه ، وشهد له بذلك أعداؤه قبل أصدقائه ، فإنّ الأعداءَ من الكفرة والمشركين لم يكونوا يشكّون يوماً في صدقه كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ *﴾ [الانعام: 33].

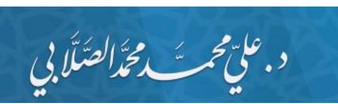
وكما كانوا يشهدون له بذلك في مواقف مختلفة ، فقد ذكر بعضها ومثل هذا الدليل الالتزامي قول الله تعالى في حقه (ﷺ): ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ *لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ *ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ *فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ *﴾ [الحاقة : 44 . 47].

حيث دلّلَ الله تعالى على صدق نبيه بدليل التمانُع ، فقد امتنع أخذه سبحانه لنبيه (ﷺ) بتلك الصفة ، لامتناع تقوّله عليه ، وامتناعُ التقوّل عليه يعني الصدق فيما يقول: فالآية إذاً تطمئِنُ النفوسَ على صدق وأحقيّة ما جاء به محمد (ﷺ) غاية الاطمئنان ، إذ دلّت على أنّ الله تعالى له بالمرصاد ، إن هو تقوّل عليه ، ـــ وحاشاه ذلك ـــ والواقع

---

[70] ثبت في حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه ، انظر: مشكاة المصابيح (117/3) ، الرسل والرسالات ص (7).

[71] العقيدة الإسلامية ص (226).





خلافه ، فإنّ الله تعالى مازال يؤيده بالمعجزات الدالّة على صدقه ، وهي منزلةٌ منزَّلةَ أن يقول الحقّ تبارك وتعالى: صدقَ عبدي فيما يبلّغ عني ، إذ لولا صـــدقُه لما أمدّه بها ، كما يُعْلَمُ من حال الكذّابين من مدّعي النبوة ، وكما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَيَمْحُو اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى: 24][72].

ولكن لما كان الله تعالى يؤيد نبيه المصطفى (ﷺ) بالمعجزات الباهرات ، وينصره على عدوّه المرة تلو الأخرى ، ويظهر دينه يوماً بعد يوم ، دلّ ذلك على صدقه (ﷺ) فيما يبلّغُ عن ربه جل شأنه.

وقد أكد الله تعالى ذلك بأدلة أخرى كثيرةٍ ، كقوله سبحانه: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى *مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى *وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى *﴾ [النجم: 1 ـ 4].

فهذا قَسَـــمٌ من الله جلا وعلا ، على أنّ ما ينطق به النبيُّ (ﷺ) هو وحيٌ من الله تعالى ، لا مجال لمحمد (ﷺ) في أن يأتيَ به من عنده ، أو أن يتقوّله عنه[73]. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ *﴾ [يونس: 15 ـ 17].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَـــيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَـــأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الانعام: 93].

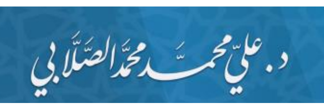
ولقد اشتَهَرَ الرسولُ (ﷺ) منذُ الصغر بالصدقِ والأمانة حتى كان المشركون يسمّونه الصادق الأمين ، وكانت ثقتُهم به تامةً ، ومع أنه لم يكنْ قد بُعثَ بعدُ نبياً ، إلا أنه كان محطَّ ثقةِ الجميع ، إذ كان يحمل جميع صفات الأنبياء.

أجل ، فالفضلُ ما شهدت به الأعداءُ ، فها هو أبو سفيان ألدُّ أعداء الرسول (ﷺ) انذاك يشهد بصدقه ، ففي رواية لعبد الله بن عباس عن أبي ســـفيان أنه قال: إنّ هرقلَ أرســـل إليه في رَكبٍ من قريش، فأتوه وهم بإيلياء (بيت المقدس)، فدعاهم إلى مجلســـه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ، ودعا بترجمانه فقال: أيُّكم أقربُ نســـباً بهذا الرجل الذي يزعمُ أنّه نبيٌّ؟ فقال أبو ســـفيان: فقلت: أنا أقربهم نســـباً ، فقال: أدنوه مني ، وقرّبوا أصـــحابه ، فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه ، قل لهم: إني ســـائلٌ هذا عن هذا الرجل ، فإن كَذَبني فكذّبوه ، فواللهِ لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذَبْتُ عنه.

---

[72] النور الخالد ص (75).

[73] النبوة والأنبياء ، لابن تيمية ص (228 ـ 230).





ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟.

قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحدٌ قط قبله؟.

قلت: لا.

قال: فهل كان من ابائه من ملك؟.

قلت: لا.

قال: فأشرافُ الناسُ يتبعونه أم ضعفاؤهم؟.

فقلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟.

قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتدّ أحدٌ منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخلَ فيه؟.

قلت: لا.قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟.

قلت: لا.

قال: فهل يَغْدُرُ؟.

قلت: لا ، ونحن منه في مدّةٍ ، لا ندري ما هو فاعلٌ فيها ، قال: ولم تمكن كلمة أدخل فيه شيئاً غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟.

قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟.

قلت: الحربُ بيننا وبينه سجال ، ينالُ منّا وننالُ منه.

قال: ماذا يأمركم؟.

قلت: اعبدوا الله وحدَه ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول اباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسلُ نبعث في نسبِ قومها.

وسألتك: هل قال أحدٌ منكم هذا القول ، فذكرتَ لا ، فقلتُ: لو كان أحدٌ قال هذا القولَ قبله لقلتُ رجلٌ يأْتَسِي بقولٍ قيل قبله.

وسألتك: هل كان من ابائه من ملك ، فذكرت أنْ لا. قلتُ: فلو كان من ابائه من ملك ، قلت: رجلٌ يطلبُ مُلك أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقولَ ما قال ، فذكرتَ أنْ لا ، فقد أعرفُ أنّه لم يكنْ ليذرَ الكذبَ على الناسِ ويكذبَ على الله»[74].

---

[74] أخلاق النبي في القران والسنة ، د. أحمد عبد العزيز الحداد (2/999).

والنصُّ طويلٌ ، ونقتصــر على هذا القدر ، وأهمُّ ما يلفتُ النظرَ هنا وجودُ دليلين على صــدق رســول الله (ﷺ): أوّلُهما هو هرقل إمبراطور الروم ، الذي قال ما أوردناه انفاً ، والثاني: هو جوابُ أبي سفيان ، الذي كان يعترِفُ بصدقِ رسول الله (ﷺ) ويقبله ، مع أنه لم يكن قد أسلمَ بعدُ ، ولكنّ هرقل أضاع فرصةً ذهبيةً جاءَت إليه ، إذ إنّ حبّه لملكه أضاعَ عليه الحصولَ على الملك الحقيقي الخالد ، فلم يُسْلِمْ ، ولم يدخل في أمة الإسلام السعيدة[75].

5 . التبليغ:

إنّ مهمة الرسل الأولى التي كلّفهم الله تعالى بها إلى الأمم ، ليخرجوهم من الظلمات إلى النور:هي التبليغُ الذي أوجبه الله تعالى عليهم بمقتضى اصـطفائهم للرسـالة التي حمّلهم إيّاها ، فيجبُ عليهم التبليغُ ، ويسـتحيل عليهم الكتمانُ ، ويجب على المسـلمين اعتقادُ ذلك فيهم ، تصـديقاً لشـهادة الله تعالى لهم بذلك ، قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُـلِ إِلاَّ الْبَلاَ غُ الْمُبِينُ *﴾ [النحل: 35].

وقد قام رسـل الله صـلوات الله وسـلامه عليهم بواجب ذلك البلا غ أكمل قيام ، حيث بلّغوا كل صـغيرةٍ وكبيرةٍ ليلاً ونهاراً ، لا يفترون عن ذلك ، ولا يملّون ، حتى قامت الحجةُ على أقوامهم ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقّت عليه الضلالة ، وقد كانوا ينالون من جرّاء ذلك الشدة الشديدة والإيذاء البليغ ، وذلك لما هم عليه من الرحمة بأممهم ، والشفقة بهم ، لعلمهم بما سيحيق بهم من العذاب إن أعرضوا عن قبولِ ما بلّغوه عن الله تعالى جل جلاله.

فكان كلُّ واحد يبذل جهده ، ويتفانى في إقناع قومه بقبول ما أُمِرَ بتبليغه إليهم ، ويتلطّف لهم بالخطاب ، ليقبلوا ما جاءوا به من عند الله تعالى ، كما حكى الله تعالى عن نوح عليه الســـلام: ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَــــلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُــولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *أُبَلِّغُكُمْ رِسَــالاَتِ رَبِّي وَأَنْصَــحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ *﴾ [الاعراف : 61 . 62]. وكما قال هود عليه الســلام لقومه أهل عاد: ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَــفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُــولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *أُبَلِّغُكُمْ رِسَـالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِـحٌ أَمِينٌ *﴾ [الاعراف: 67 ـــ 68]. إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على التلطّف بالبلا غ ، وكمال الرحمة بالمبلَّغين.

فكانوا غير مقتصـــرين على مجرد البلا غ الواجب عليه قط ، بل إنّهم كانوا يتفانون في النصـــيحةِ لأقوامهم لقبوله ، فيجادلونهم ويحاورونهم بالتي هي أحسـن ، حتى يقبلوا ، أو ييأسـوا من ذلك ، فعندئذٍ لا يَسَـعُهم إلاّ أن يقولوا: ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَ غُ الْمُبِينُ *﴾ [يس: 17] كما قال هود عليه السلام لما يئس من قوم عاد من قبول رسالة الله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ *﴾ [الاحقاف: 23]. وقال أيضاً: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا

[75] البخاري (7/1).

فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ *﴾ [هود: 57] وكما قال صالح عليه السلام: ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ *﴾ [الاعراف: 79][76]. وكما قال شعيب عليه السلام: ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَال ياقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ *﴾ [الاعراف: 93].

وهكذا نجد الرسل جميعاً يعلنون بكل صراحةٍ ووضوحٍ أنهم قد بلّغوا رسالة الله ، ونصحوا للأمة ، حتى خاتم الرسل محمد (ﷺ) يأمره ربُّه بتبليغ الرسالة ، فيقول مخاطباً له: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ *﴾ [المائدة: 67].

فكلُّ رسول مكلَّفٌ بتبليغ الدعوة والرسالة ، ولا يمكِنُ لأحدٍ من الرسل أن يزيدَ حرفاً أو ينقِصَ حرفاً ممّا نزل عليه ، لأنه يكونُ قد خالف أمر الله ، وخانَ الأمانة التي عُهدتْ إليه ، ولهذا نجدُ بعضَ السور أو الآيات الكريمة تبدأ بقوله تعالى وهو أمرٌ موجَّهٌ للنبيِّ (ﷺ) ليبلغه ﴿ قُلْ﴾ ، فيبلغها الرسول كما نزلت عليه ، دون زيادة أو نقصان ، اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ *لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ *﴾ [الكافرون: 1 . 2]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ *﴾ [الفلق: 1]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ *﴾ [الناس: 1].

وقد كان يكفي الرسول أن يبلّغَ الأوامرَ الإلهية دون تلك الكلمة التي خوطب بها ، ولكنّه أمينٌ على الوحي ، يبلِّغ رسالة ربه بالحرف الواحد دون تغيير أو تبديل ، أو زيادةٍ أو نقصان ، فلم يقل ولم يقل أو وإنّما ذكر الأمرَ الذي توجّه إليه من العلي القدير ، بنفس الصيغة ، ونفس الحروف ، وذلك دليلٌ الأمانةِ القصوى في تبليغ الدعوة والرسالة.

والغرض من (التبليغ) أن يقطعَ اللهُ الحجةَ على الناس ، ولئلا يبقى لأحدٍ عذرٌ يومَ القيامة ، فإنّ الله تبارك وتعالى أكرمُ من أن يعذّب إنساناً قبل أن تبلغه الرسالةُ ، وأرحمَ من أن يعذّبه دونَ ذنبٍ ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً *﴾ [الاسراء: 15][77].

كان التبليغُ لدى سيد المرسلين فطرةً وسجيةً ، وكانت نفسه تضيقُ عندما لا يجدُ قلباً طاهراً يقبلُ دعوته ، مثلما نضيق نحن إن حُرمنا من الطعام والشراب ، أو عندما نحرَمُ من تنفس الهواء ، والحقيقة أنّه (ﷺ) ما كان يهتمّ بالطعام والشراب ، فقد كان يصومُ أحياناً صوماً متواصلاً ، وكان يأكل أحياناً ما يكفي لسدِّ رمقه فقط ، وإبقائه حياً ، فإنّ قلبَه المفعمَ بالام دعوته لم يدعْ لديه شهيةً للأكل ، فكما تعيشُ الملائكة بالتسبيح ، كان رسولُنا (ﷺ) يعيشُ بالدعوة ، وعندما يجدُ أمامه صدراً رحباً طاهراً يفرحُ وينشَطُ ، والقرآن الكريم يصفُ وضعَه هذا فيقول: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ

[76] النور الخالد ص (79).

[77] أخلاق النبي (1006/2).



أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ *﴾ [الشـــعراء: 3] وفي اية أخرى يقول: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَـــكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا *﴾ [الكهف : 6][78].

6 . الفطنة والحكمة وقوة الحجة:

وهذه الصـفات واضـحة في القرآن الكريم في سـير الأنبياء والمرسـلين ، فقد قال تعالى عن إبراهيم عليه السـلام: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ *﴾ [الانعام: 83].

وقال تعالى داود عليه السـلام: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة : 251]
وقال أيضاً: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ *﴾ [البقرة: 20].

وعن يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ *﴾ [يوسف: 55].

---

[78] النبوة والأنبياء ، محمد علي الصابوني ص (51).

ويمكن ملاحظة هذه الصفات من خلال هذه الأمثلة القرآنية والنبوية[79].

أ . إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ *﴾ [الانبياء: 51] فسيدنا إبراهيم عليه السلام في غاية الذكاء والنباهة ، والحكمة وقوة الحجة ، وانظر إليه في موقف المحاجة لقومه المشركين نجدْ فيه آيات النبوغ والحكمة والذكاء ، قال تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ *قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ *قَالُوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ *قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ *قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يا إِبْرَاهِيمُ *قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ *فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ *ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنْطِقُونَ *قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ *أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *﴾ [الانبياء : 58 . 67].

وحقاً إنّه لمنتهى الذكاء والنبوغ ، يتجلّى في عمل إبراهيم عليه السلام ، فلقد حطم بيده الأصنام ، ثم علق القدوم في عنق أكبر الأصنام ، ليقيمَ الحجةَ على قومه ، فحين قدّموه للمحاكمة سألوه هذا السؤال: مَن الذي حطّم الهتنا ، وأقدم على تكسير الأصنام؟ هل أنتَ فعلتَ ذلك يا إبراهيم؟.

فأجابهم إبراهيم عليه السلام: إنني لم أحطّمها ، ولكنّ الصنمَ الكبير والإلهَ العظيم هو الذي حطمها ، لأنه لم يرضَ أن تعبد معه ، والدليل على ذلك أنّه وضع القدوم في عنقه ، وإذا لم تصدّقوا كلامي ، فاسألوهم عن ذلك الأمر ، وسلوه ، وهنا كان قد بلغ إبراهيم إلى هدفه ، فأقام عليهم الحُجّة بعد أن سفّه عقولهم ، وجعلهم يضحكون من أنفسهم ، وهكذا يكون منطق الأنبياء.

وانظر إليه في موقف اخر ، وهو يجادلُ الطاغيةَ (النمرود) الذي نازعَ اللهَ في ملكه ، وزعم أنّه إله يُعْبَدُ من دون الله ، وأنّه الربُّ المعبود ، كيف كان نبوغ إبراهيم وذكاءه؟ وكيف دحض خصمه العنيد ، قال تعالى: ﴿ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *﴾ [البقرة : 258][80].

فانظر في الآيات السابقة لما أراد الطاغية أن يَرُوْغَ في قضية الإماتة والإحياء ، كيف ترك إبراهيمُ هذه المسألة ، وفاجأ الطاغيةَ بسؤالٍ لم يتوقعه فأرداه باهتاً ، وتصوّر لو أنّا افترضنا أنّ إبراهيم بقيَ يجادله في المسألة الأولى ماذا تكون

[79] النور الخالد ص (171).

[80] المحكم في العقيدة ص (134).

النتيجة؟ ثم لاحظ أنَّ سؤال إبراهيم الثاني لا يدعُ المجال حتى للمكابر ، فتخيّل لو أنّ إبراهيمَ قال له: مَنْ خلقَ الشمس؟ فإنّ المكابر قد يقول: أنا ، ولكنّ إبراهيم طالبه بفعلٍ جديدٍ في الشمس ، فماذا يقول المكابر[81]؟.

فقد أقام إبراهيم عليه السلام الحجةَ الدامغةَ بفطنته النيرة ، بحيث لم يستطع مواصلةَ اللجاج والعناد ، وبذلك عرّف خبره لأتباعه ، وأنه أحقر من أن يخلقَ بعوضةً أو يدبِّرَ أمراً ، وتبيّن لهم بذلك أنَّ دعواه الألوهية محض افتراء ، ولكنهم مع ذلك لم يهتدوا ، إذ الناسُ غالباً على أديان ملوكهم ، وأتباع كلِّ ناعق[82].

ومن فطنةِ إبراهيم عليه السلام وحكمتِهِ وقوةِ حجته مناظرته لقومه في شأنِ معبوداتهم من الكواكب ، حيث استطاعَ إقامة الحجة الدامغة عليهم في بطلانِ ألوهيتها ، بما لم يدع شكاً للمنصف العاقل ، فقد استدرجهم في تفنيد اعتقادِهم شيئاً فشيئاً ، حتى أتى على معتقدهم الزائفِ من أساسه ، وأقام الحجة الدامغة على اجتثاثه ، كما قصّه الله تعالى علينا ذلك بقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ *فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ *فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّآلِّينَ *فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ *إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [الأنعام: 75 . 79].

بيّن إبراهيمُ عليه السلام أولاً عدمَ صلاحية الكواكب للألوهية ، ثم ترقّى منها إلى القمر ، الذي هو أضوأ منها وأبهى ، ثم ترقّى إلى الشمس التي هي أشدّ الأجرامِ المشاهدةِ ضياءً وسناءً وبهاءً ، فبيّن أنها مسخرةٌ مسيّرةٌ مقدّرةٌ مربوبةٌ ، فلا تصلحُ أن تكون رباً[83].

وأنَّ الربَّ من شأنه أن يكون مدبِّراً مسخِّراً ضارّاً نافعاً ، وأنَّ هذه الكواكب لا تملكُ شيئاً من هذه الأمور ، فهي إذاً لا تستحقُّ أن تعبدَ ، فأعلنَ براءته منها وإخلاصَ عبوديته لله تعالى قائلاً: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [الانعام: 79].

وبذلك زعزع إيمانَهم في معتقداتهم الضالّة بهذه الكواكب السيّارة ، التي لا تملك ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، وذلك بفضل الله تعالى ، ثم بفضل هذا الأسلوب الجدلي الحكيم القائم على استدراج المخاطَبِ بالتسليم بدعاويه ، ثم الكرَّ عليها بالبطلان ، لقوة الحجة والبرهان ، وما كان له بذلك من قوة لولا الفِطنةُ الكبرى التي رزقه الله تعالى إيّاها ، لتساير تكليفه بالرسالة[84].

---

[81] النبوة والأنبياء ، للصابوني ص (53).

[82] المحكم في العقيدة ص (135 ، 136).

[83] أخلاق النبي (1041/2).

[84] المصدر نفسه (1041/2).



ب . نوح عليه السلام:

استطاع نوحٌ عليه السلام بفطنته وحكمته وقوّة حجته أن يُفحمَ مناوئيه من قومه حتى أقروا له بالعجز عن مجادلته ، واستعجلوا ما يتوعدهم به من العذاب ، وقالوا: ﴿ قَالُوا يانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ *﴾ [هود: 32].

ذلك لأنه ما فتأى يناظرهم ويجادلهم ويحاججهم ، كلما أتوه بشبهة فندّها ، وكلما جادلوه أسكتهم ، فلا يملكون جواباً ولا رداً ولا حجة ، ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ *﴾ [هود: 27]. أجابهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ *وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ *﴾ [هود: 28 ـ 31].

فقومه لما جادلوه بما يُنمي عن قصور عقولهم ، حيث احتجّوا عليه بفقده وسائلَ السؤدد عليهم في نظرهم من المال والجاه ، فرأوا أنّه غيرُ أهلٍ لشرفِ الرسالة ، وأنّه من جنسهم البشري ، وظنّوا أنّ شرفَ الرسالة ينبغي أن يكونَ لغير هذا الجنس ، مع أنّه الجنسُ الذي كرّمه الله وشرّفه على كثيرٍ من الأجناس ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الاسراء: 70].

فلمّا قصر نظرهم عن إدراك أسباب الكمال ، حيث نظروا إليه وإلى أتباعه ، فلم يروا في أجسامهم ما يميزهم عن الناس ، بل إنّ أتباعه من ضعفاء قومهم ، ورأوا أنّ ذلك علامةُ كذبه ، وضلالُ أتباعه ، لما كان أمرهم كذلك سلك نوح عليه السلام في مجادلتهم مسلك الإجمالِ لإبطالِ شبههم ، ثم مسلك التفصيل لردّ أقوالهم.

أمّا مسلك الإجمال فسلك فيه مسلك القلب ، بأنّهم إن لم يروا فيه وفي أتباعه ما يحمِلُ على التصديق برسالته ، فكذلك هو لا يستطيعُ أن يحملهم على رؤيةِ المعاني الدالّة على صدقه ، وأنّه لا يستطيع منعَ الذين امنوا به من متابعته والاهتداء بالهدى الذي جاء به ، وأنّه لم يدّعِ فضلاً غيرَ الوحي إليه كما حكى الله عن أنبيائه ورسله عليهم السلام في قوله: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [ابراهيم: 11].

ثم فصّل إجابته السابقة ، فأجابهم عمّا توهموه ، من أنّ من لوازم النبوة أن يكونَ أغنى منهم أو أن يعلمَ الأمورَ الغائبة بقوله: ﴿ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [هود : 31].
والمعنى لا أدّعي ما ليسَ لي ، فتنكروا قولي ، وتستبعدوا ما اتاني الله من فضل النبوة.

وعن دعواهم بأنّه بشر لا يستحقُّ أن يتميّزَ عنهم بالرسالة أجابهم بقوله: ﴿ ولا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ بل أنا بشرٌ مثلكم تعرفوني، ولكن اتاني الله فضلَ الرسالةِ إليكم.

وعن دعواهم باسترذالِ أتباعه لكونهم من ضعفائهم وفقرائهم أبطله بطريقة التغليط ، لأنهم جعلوا ضعفهم وفقرهم سبباً لانتفاء فضلهم ، فأبطله بأنَّ ضعفهم ليس بحائلٍ بينهم وبين الخير من الله تعالى إذ لا ارتباطَ بين الضعفِ في الأمور الدنيوية من فقرٍ وقلةٍ ، وبين الحرمان من نوالِ الكمالاتِ النفسانية والدينية ، فقال: ﴿ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وهكذا فنّد ادعاءاتهم

واحدةً واحدةً بما لم يتركْ لهم مجالاً للمكابرة ، حيث قرّر لهم بذلك الحقائق الثابتة في شأنه ، والتي لا يجهلونها ، وجعلهم في واقع الأمر مسلّمين بأنّه لا يحملهم على مجادلته إلا محضُ الكِبْرِ ومجرّدِ اللجاج والعنادِ ، فما كان لهم بعد ذلك من طاقة في الصبر على مجادلته المفحمة ، فعدلوا إلى استعجال العذاب الذي يتوعّدهم به ، لما سئموا من تزييف معارضتهم وارائهم ، شأنهم بذلك شأنُ المبطِلِ إذا دمغته الحجة فقالوا: [هود: 32]

ج. يوسف عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ *قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ *وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ *يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ *مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ *﴾ [يوسف: 36 . 41].

ومن فطنةِ يوسفَ عليه السلام وحكمتِه وقوّةِ حجته توظيفُه حاجةَ صاحبيه إلى علمِه، فشرعَ في بثِّ عقيدته الصحيحة بين السجناءِ ، وتوضيح التوحيد ، وخطورة الشرك ، ويبدو في طريقةِ تناول يوسف للحديثِ لطفُ مدخله إلى النفوس ، وكياستُه ، وتنقّلُه في الحديث في رفقٍ لطيفٍ[85]، ولما أكملَ مهمته في تبليغ الدعوة شرعَ في تفسير الرؤيا للسجينين.

---

85 أخلاق النبي (1041/2).

د. محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ *مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ *﴾ [القلم: 1 ــ 2]. حيث أقسم المولى جلّ وعلا قَسَــماً مؤكّداً على نفي الجنون عنه الذي كان يرميه به بعضُ المشـــاغبين من أهل الكفر والعِناد، كما قال سـبحانه: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ *﴾ [القلم: 51]. وذلك ردّاً عليهم، وتكذيباً لقولهم، كما قال في اية أخرى: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ *﴾ [التكوير: 22].

وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ *﴾ [الطور: 29]. وفي ذلك النفي إثباتٌ لكمال عقله، وأنّه من إنعامِ اللهِ عليه بحصـافة العقل والشـهامة التي يقتضـيها التأهيلُ للنبوة بمنزلةٍ عظمى لا يُرْقَى إليها. وقد برهن الله تعالى على كمال عقله ــ إضافة إلى قسمه المؤكّد ــ بعظمة أخلاقه، حيث قال بعد ذلك: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ *وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ *﴾ [القلم: 3 ـ 4].

إذ إنّ صـاحبَ الخلق العظيم، لا يكونُ إلا في منتهى الكمال العقلي، والصـفاء الذهني، لأنّ العقلَ أصـلُ فروع الفضـائل الخُلقية، وعنصر ينابيعها، ونقطة دائرتها حيث يتفرّع منه: ثقوبُ الرأي، وجودةُ الفطنة والإصابة، وصدقُ الظنّ، والنظرُ للعواقب، ومصـالحُ النفسِ، ومجاهدةُ الشـهوةِ، وحسـنُ السـياسـةِ والتدبير، واقتناءُ الفضـائل، وتجنُّب الرذائل، وقد كان (ﷺ) من هذه كلها في الغايةِ القصوى التي لم يبلغْها بشرٌ سواه[86].

وقال القاضي عياض بعد أن قرّر أنّه لا مريةَ في أنّه (ﷺ) أعقلُ الناس وأذكاهم، قال: ومن تأمّل تدبيرَه أمرَ بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسةِ العامة والخاصّة، مع عجيب شمائله، وبديعِ سيرته، فضلاً عَمّا أفاضه من العلم، وقرّره من الشــرع، دونَ تعلّم ســابقٍ، ولا ممارســةٍ تقدّمت، ولا مطالعةٍ للكتب فيه، لم يمترِ في رجحانِ عقله، وثقوبِ فهمه لأوّلِ بديهةٍ[87].

ومن الأمثلة على فطنته وذكائه:

* سـرعةُ إقامةِ الحجّة على المعارضـين، وقطع شـغبهم وجدالهم بالباطل، فلا يسـتطيعونَ مجاراته أو مكابرته، بل لا يَسَعُهم إلاّ الإذعانُ والتسليمُ، أو النكوصُ على أعقابهم خاسئين.

ومن ذلك ما أجابَ به أبا سفيان يوم أحد حينما افتخر أبو سفيان ــ وهو على شركه يومئذٍ ــ بأوثانه إثر المعركة التي انجلت عن نصرٍ له ولقومه أهل الشرك والوثنية، فقال متبجّحاً: أعْلُ هُبَل[88].
فقال (ﷺ): «أجيبوه».

---

[86] أخلاق النبي (1040/2).

[87] في ظلال القران (1988/4)، المحكم في العقيدة ص (136).

[88] اسم للصنم الأكبر الذي كانوا يعبدونه.

فقالوا: ما نقول؟.

قال: «قولوا: الله أعلى وأجلّ».

قال أبو سفيان: لنا العُزّى[89]، ولا عُزّى لكم.

فقال (ﷺ): «أجيبوه».

فقالوا: ما نقول؟.

قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم».

فقال أبو سفيان: يومٌ بيومٍ والحربُ سجالٌ ، وتجدون مُثْلَةً لم امرْ بها ، ولم تَسُؤني.

فقال (ﷺ): «أجيبوه».

فقالوا: ما نقول؟.

قال: «قولوا: لا سواء ، قتلانا في الجنّةِ ، وقتلاكم في النار»[90].

ومن مظاهر كمال فطنته (ﷺ) سرعةُ حَلِّه للمشاكل المستعصية ، التي تحارُ في حلِّها العقولُ الكبيرةُ الشهيرة.

فقد حاول المنافقون ذات مرة أن يفككوا عُرى الوحدةِ بين المهاجرين والأنصار ، فكانت حكمةُ النبيّ (ﷺ) وفطنتُه لهم بالمرصاد ، فأحبطتْ تلك المحاولةَ الخبيثةَ ، وأجهضتها في حينها ، وذلك أنّ رجلاً من غِلمان المهاجرينَ كسع[91] رجلاً من غلمان الأنصار، إثر اختلافٍ بينهما على الماء، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله (ﷺ) فقال: «ما بالُ دعوى الجاهلية؟» قالوا: يا رسول الله كسعَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال (ﷺ): «دعوها فإنها مُنتنةٌ».

فسمع بذلك عبد الله بن أُبيّ رأسُ المنافقين فقال: فعلوها؟ أمّا واللهِ لئنْ رجعنا إلى المدينةِ ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل ، فبلغَ النبيَّ (ﷺ) ، فقام عمرُ رضي الله عنه فقال: يا رسول الله ، دعني أضرِبُ عنقَ هذا المنافق ، فقال النبيُّ (ﷺ): «دعه ، لا يتحدَّثُ الناسُ أنَّ محمّداً يقتلُ أصحابه»[92].

ثم سار رسول الله (ﷺ) بالناس يومَهم أجمع ، حتى أمسى ، وليلتَهم حتى أصبح ، وصدرَ يومهم حتى اذتهم الشمسُ ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أنْ وجدوا مسّ الأرض ، فوقعوا نياماً. وإنّما فعل ذلك ليشغلَ الناسَ عن الحديثِ الذي كان بالأمسِ[93]، حيث خاضَ الناسُ في حديثِ عبد الله بن أبيّ ، وفي النزعةِ الجاهليةِ التي كادتْ تقضي على وحدةِ المجتمعِ المسلم لولا حكمةُ رسول الله (ﷺ) وسياسته الماهرة ، وفطنته العظيمة ، في إطفاءِ لهبها بسيره الميمون ،

89 اسم للصنم لهم كان بالطائف ، تفسير غريب الحديث 166.

90 المصدر نفسه (161/1).

91 الكسع: أن تضرب بيدك على شيء أو برجلك.

92 البخاري (191/6).

93 عيون الأثر لابن سيد الناس (94/2) ، البداية والنهاية (158/4).

ذلك الذي أشغلهم به عن الخوض في تلك الفتنة العمياء ، التي أرادَ رأسُ النفاق أن يُشْعِلها ، ليحقِّقَ غرضه في زعزعةِ المجتمع المسلم ، وإطفاء نور الله ، ولكنَّ اللهَ ردَّ كيده في نحره بفضل ما اتى نبيَّه من الحكمة والفطنةِ والحِلْمِ فصلواتِ ربي وسلامه عليه.

وكم كانت فطنته وحكمته تحلُّ من مشاكل عديدَة في أسرعِ وقتٍ وأقصره ، فيتحقّقُ بذلك له ولأمته ما يَصْبون إليه من نَصْرٍ وسعادَةٍ وعزٍّ وسيادةٍ ، ينوءُ عنها الحصر في مثل هذا المقام المقتضي للإيجاز ، والإتيان من كل بحرٍ بقطرة كنموذج لغيره ، والدليلُ على ما سواه.

ومن ذلك براهينه الساطعة القاطعة التي كان يقيمها على مجادليه ومناظريه من مشركين وءِأهل كتاب ، التي كانت تقطعُ دابِرَهم ، وتزهقُ باطِلَهم ، وتجعلهم يوقنون أنّهم في ضلالهم يعمهون ، ويعميهم عن اتباع الحقّ بعد سماع تلك القوارع البينة: الكِبْرُ والعنادُ ، والرسوخُ في الإلحاد[94].

وهكذا جميع الأنبياء والرسل ، أعطاهم الله العقلَ والرُّشدَ ، فكانوا على أكمل وجوه الذكاءِ والنبوغِ ، فقد خصّهم الله تعالى بالذكاءِ الخارقِ ، والفطنة والنباهة ، ليستطيعوا إقامةَ الحجّةِ على أقوامهم ، وقد جرت حكمةُ اللهِ الأزلية ، أن يختارَ للرسالةِ أكملَ الناسِ عقلاً ، وأوفرَهم ذكاءً ، وأقواهم حُجةً وبرهاناً ، ليظهرَ ضياءُ الحقّ وتعلو دعوةُ اللهِ. وصدقَ اللهُ العظيم حيثُ يقولُ: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ *﴾ [الانعام: 124].

وإذا كان البشرُ يعتريهم النقص ، وتضعفُ قواهم العقلية ، وربّما وصل البعضُ منهم إلى حالةِ الخرف عند بلوغ سِنِّ الشيخوخة ، فإنَّ الأنبياءَ الكرام يظلّون في القمة العليا من رجاحةِ العقل ، وقوّةِ التفكير ، مهما امتدت أعمارُهم ، لأنّ الله تعالى قد أحاطهم بعنايته ، وحفظهم برعايته ، ولا يمكن أن تضعُفَ حواسّهم الفكرية ، وتتعطّل مواهبهم العقلية ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم[95].

---

[94] أخلاق النبي (1052/2).

[95] النبوة والأنبياء ، للصابوني ص (54).

7 . الأمانة:

وهي أن يكونَ النبيُّ أميناً على الوحي، يبلّغ أوامرَ الله ونواهيه إلى عباده، دونَ زيادةٍ أو نقصـــانٍ ، ودون تحريفٍ أو تبديلٍ، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا *﴾ [الاحزاب: 39].

فالأنبياء جميعاً مُؤتَمَنونَ على الوحي ، يبلّغون أوامر الله كما نزلت عليهم ، لا يمكن لهم أن يخونوا أو يُخْفُوا ما أمرَهم الله تعالى به ، لأنّ الخيانة تتنافى مع الأمانة ، وهل يليقُ بالنبيِّ أن يخونَ أمانته ، فلا ينصحُ الأمة ، ولا يبلّغ رسالة الله[96]؟!

ولذلك كان وصـــفُ الأمانة واجباً ، ويجب على الأمةِ اعتقاده فيهم ، وقد أثنى الله تعالى به عليهم في آياتٍ كثيرةٍ كما قال هود عليه السلام: ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ *﴾ [الاعراف: 68] ، وكما قال عن يوسف عليه السلام: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ *﴾ [يوسـف : 54] ، وقصَّ عن نوحٍ وهودٍ وصـالحٍ ولوطٍ وشـعيبٍ وموسـى عليهم السـلام مقالةَ كلٍّ منهم لقومه وهو يدعوهم للإيمان: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُـولٌ أَمِينٌ *﴾ [الشـعراء: 107 ، 125 ، 143 ، 162 ، 168 ، والدخان: 18] ، وقصَّ مقالةَ ابنةِ شعيبٍ عليه السلام في وصفها لموسى عليه السلام: ﴿ يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ *﴾ [القصص: 26] إلى غير ذلك من الآيات الواصفة لهم بهذا الخلق ، دونَ سائر أوصافهم الحميدة ، فدل اختيارُ وصفِ الأمانةِ لأنبياءِ الله عليهم السلام في هذه الآيات مع كثرة صفاتهم وأخلاقهم الكريمة على عظمة هذا الخُلق ، وبالغُ منزلته[97].

ولو لم تكن في الأنبياء الأمانةُ لتغيّرت مظاهِرُ الرســالة ، وتبدّلت ، ولما اطمأنّ الإنســـانُ على الوحي المنزَل ، ولهذا تقول السـيدة عائشــة رضــي الله عنها: لو كان محمّدٌ كاتماً شـيئاً ممّا نزل عليه لكتم هذه الآية الكريمة: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾[الاحزاب : 37][98].

وقد نشأ رسـول الله (ﷺ) على الصـدق والأمانة لا يعرف لهما بديلاً منذ نشـأته وترعرعه ، وهو لا يكادُ يُعْرَفُ في أوساط قومه إلا بالأمين ، فيقولون: جاء الأمينُ ، وذهبَ الأمين[99]، حتى حلّ محلّ الرضا في قلوبهم وعقولهم ، كما دلّ على ذلك احتكامُهم إليه في قصّـةِ رفع الحجر الأسـودِ عند بنائهم الكعبةَ المشـرّفة ، بعد تنازعهم في استحقاق شـرف رفعه ، ووضــعه في محله ، حتى كادوا يقتتلون لولا اتفاقهم على تحكيم أولِ داخلٍ يدخلُ المســجدَ الحرام ، فكان ذلك الداخلُ هو محمّدٌ (ﷺ) المرضـيُّ لديهم أجمعين «فلما رأوه قالوا: هذا الأمينُ رضـينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم ، وأخبروه الخبر ، قال (ﷺ): «هلمَّ إليَّ ثوباً» فأُتِيَ به ، فأخذَ الركنَ ، فوضــعه فيه بيده الطاهرة ، ثم قال: «لتأخذْ كلُّ

---

96 المصدر نفسه ص (48).

97 أخلاق النبي (536/2).

98 البخاري (22).

99 سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (207/1).

قبيلةٍ بناحيةٍ من الثوبِ ، ثم ارفعوه جميعاً» ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثمَ بنى عليه» قال ابن هشام: وكانت قريشٌ تسمِّي رسول الله (ﷺ) قبلَ أن ينزلَ عليه الوحيُ الأمين[100].

وهكذا كان خلق الأمانة سبباً لترشيح هذا الشاب اليتيم لحلّ فتنةٍ كادت تشتعلُ بين بطون قريش ، فتُودي بحياة كثير منهم ، لولا أنَّ الحكمة العظيمة مِنْ صاحب الأمانةِ العظيمةِ أطفأتها ، وما كان لهذه الحكمة أن تبرزَ لو لم يكنْ خلقُ الأمانةِ قد مهّد الطريقَ أمامها ، ممّا جعلهم يرضون بحكمه دون أن يتسرّبَ إليهم شكٌّ في محاباةٍ أو مداهنةِ فئة على أخرى ، لعلمهم بعظيم أمانته ، وثقتهم به[101].

بل لقد جعلتهم ثقتهم الكبيرة بأمانته (ﷺ) ينقلون إلى بيته أموالهم ، ونفائسَ مدّخراتهم ، لتكونَ وديعةً عنده ، فلم يكن أحدٌ بمكةَ عنده شيءٌ يخشى عليه إلا وضعه عنده (ﷺ)، لما يعلمُ من صدقه وأمانته ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى بعد معاداته بسبب دعوته لهم إلى الإيمان بالله تعالى ، وترك عبادة الأوثان ، لا يختلجهم شك في أمانته ، وهم له معادون.

كما دل على ذلك تركه (ﷺ) عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه في مكة بعد هجرته ، ليردَّ ودائعَ الناس التي كانت عنده للناس ، حتى إذا فرغَ منها ، لحق برسول الله (ﷺ)[102].

* الشهادة لرسول الله (ﷺ) بالأمانة:

ولقد شهد لرسول الله (ﷺ) بالأمانةِ الأعداءُ والأصدقاءُ على حدٍّ سواء ، وذلك دليلٌ على شيوع هذا الخلق فيه ، وتسليمُ الكلِّ له به.

فأبو سفيان زعيمُ مكة لما كان قبلَ إسلامه أمامَ هرقل ملك الروم ، لم يستطعْ أن يخفي هذا الخلقَ العظيمَ ، وهو الحريصُ على أن يغمطه حقه ، أو يطعنَ فيه بدافع العداء له حينذاك ، ولكن لما سأله عمّ ماذا يأمرُ النبي (ﷺ) أجابه أبو سفيان: بأنه يأمرُ بالصلاة ، والصدقِ ، والعفافِ ، والوفاءِ بالعهد ، وأداءِ الأمانة[103].

وأما الأصدقاء ، فمنه ما قالته خديجةُ رضي الله عنها له (ﷺ) عند ابتداء تنزُّل الوحي: ... فواللهِ إنكَ لتؤدّي الأمانةَ ، وتصلُ الرّحمَ ، وتَصْدُقُ الحديثَ[104].

---

[100] سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (28/1).

[101] أخلاق النبي (ص) (239/2).

[102] سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (237/2).

[103] البخاري (236/3).س

[104] متفق عليه ، الروض الأنف (274/1).



وما قاله جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في قصته مع النجاشيّ ملك الحبشة وذلك حين سأله عن الدين الذي اعتنقوه ، فكان من إجابته له قوله: «حتى بعثَ الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبَه وصِدْقَه وأمانتَه وعفافَه..»[105].

ولا غَرْوَ في أن يكونَ النبيُّ (ﷺ) بتلك المكانة من الأمانة ، لأن الله تعالى قد أراد منه أن يكونَ خاتم أنبيائه ورسله إلى الخلق كافة ، ولا يقومُ بذلك إلا أمينٌ كاملُ الأمانةِ ، ينالُ ثقةَ الناس ، فيستجيبون له ، ويؤمنون به ، ولقد تمثّل خلقُ الأمانة فيه (ﷺ) بكل معانيه بعد بعثته ، كتمثله فيه قبل ذلك ، بل بأوضح من ذلك وأجلّ ، فلقد ائتمنه الله تعالى على تبليغ شرعه ، وسياسة خلقه ، فقام بذلك حقَّ قيام ، حتى رضي الله عنه وعن بلاغه المبين ، وشهد له بأنّه أدى الأمانة ، وبلَّغَ الرسالة كما وصلت إليه حتى تمَّ الدِّين ، وذلك حين قال سبحانه: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[المائدة: 3][106].

8 . السلامة من العيوب المنفرة أو ما يخل بأداء رسالتهم:

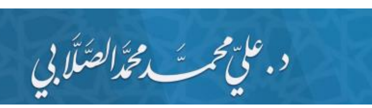
وهذه الصفة من خصائص الأنبياء والرسل الكرام ، فإنه لما كانت مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام تستدعي مخالطةَ الناس ، والاجتماعَ بهم لدعوتهم وإرشادهم وقيادتهم وسياستهم ، فلا يمكنُ أن تكونَ فيهم عيوب خَلْقية أو خُلقية ، تنفّرُ الناسَ من الاجتماع بهم ، أو اتباعهم ، والسماع لدعوتهم ، كما أنّ الأمراضَ المنفِّرة كالبرص والجُذام والتشويه الجسدي لا يكونُ في أحدِ الأنبياء ، فهم وإن كانوا من البشر ، تصيبُهم العوارضُ التي تصيبُ البشر ، إلاّ أنّ الله عزّ وجلّ قد صانهم من العيوب المنفّرة ، وسلّمهم من الأمراض الشائنة ، التي تجعل النفوسَ تنفر منهم.

وما يحكى عن أيوب عليه السلام من أنّه مرضَ ، واشتدّ به المرض ، حتى تعفّنَ جسدُه ، وأصبح الدودُ يخرج من بدنه ، حتى كرهته زوجتُه ، فإنَّ هذا من الأباطيل والأكاذيب التي نُقلت عن الإسرائيليات ، ولا يجوزُ تصديقها أو الاعتقاد بها ، لأنها تتنافى مع صفاتِ الأنبياء ، ولم يذكر لنا القرآن الكريمُ شيئاً من هذا ، وإنّما الذي ذكره أنه قد أصابه الضرُّ في بدنه ، فدعا ربَّه فكشف عنه ما أصابه من كرب وبلاء ، قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ *﴾ [الأنبياء: 83 . 84].

وظاهر من الآية الكريمة أنّ الضر الذي أصابه كان في جسمه وأهله ، وهذا النوع من الضرّ يلحَقُ البشر ، ويلحق الأنبياء ، فإنَّ المرض يعتري الأنبياء ، كما يعتريهم الموت ، وليس في ذلك شيءٌ ينقص من قدرهم ، أو يزري بمقامهم،

[105] السيرة النبوية الصحيحة د. أكرم العمري (174/1) ، سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (87/2).

[106] أخلاق النبي (ص) (541/2).



وكما يستحيل على الأنبياء الإصابة بالأمراض المنفّرة ، كما يستحيل عليهم الجنون والإغماء الطويل ، لأنّ ذلك يخلّ بقيامهم بأعمال الرسالة[107].

9 . العصمة:

* العصمة من الخطأ في التبليغ والتنفيذ:

الرسل معصومون فيما يبلغون عن الله ، فهم لا يخطئون في التبليغ عن الله ، ولا يخطئون في تنفيذ ما أوحى الله به إليهم ، عصمهم الله من الخطأ في هذه وتلك ، وذلك من خصوصياتهم:

أ ـ لأنّ الأمر لا يستقيم إذا أخطأ الرسول في التبليغ عن الله ، إذ ليس لذلك إلا إحدى نتيجتين ـ كلتاهما خارجة عن التصور .:

* إما أن يسكتَ الوحيُ عن تصحيح الخطأ ، ومعنى ذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يبلغ الناس أمراً معيناً ، ثم رضي جل جلاله أن يبلّغَ عنه غير ذلك الأمرَ ، وهذا لا يجوز في حق الله تبارك وتعالى.

* وإمّا أن يتنزلَ الوحي بالتصحيح، فيعودُ الرسولُ فيقول للناس: إنّ الله أمرني أن أبلّغكم كذا وكذا ، ولكني أخطأتُ في التبليغ ، وإليكم الان تصحيح البلاغ ، وينتجُ عن ذلك لا محالة أن يفقدَ الناسُ الثقةَ فيما يبلغهم إياه الرسول عن ربه ، لأنّ احتمالَ الخطأ في التبليغ قائمٌ في أذهانهم.

وكلا هذين الأمرين خارجٌ عن التصور، لأنّه يتنافى مع الحق الذي يتنزل به الوحي مع التوقير والتعظيم اللازمين لكلام الله سبحانه وتعالى ، مع وجوب الطاعة للرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

ب ـــ ولا يستقيمُ الأمرُ كذلك إذا أخطأ الرسولُ في تنفيذ ما أوحى الله به إليه ، لأنّ القدوةَ تنتفي يومئذٍ ، ويضطرِبُ الأمرُ في نفوس الأتباع ، الذين اتبعوا الرسلَ ، فلا يعرفون أيَّ طريق يسلكون ، وفضلاً عن ذلك تذهب جدية الأمر من مشاعرهم ، فالمفروض في الشخص المؤمن أن يجتهد في اتباع ما أنزل الله قدر جهده ، ليكون أقرب إلى الصواب ، فإذا كان القدوة أمامه ـ وهو الرسول ـ يخطأى في التنفيذ ، فسوف يحسُّ هو أنه في حِلّ من أن يخطأى ، وليس عليه أن يتحرّى الصوابَ ، فهو ليس أفضل من الرسول المؤيد بالوحي ، وعندئذٍ ينفرط عقد الأمر ، ولا يعود للدين ما أراده الله من تعظيم في نفوس المؤمنين[108].

---

107 عقيدة التوحيد ص (242).

108 ركائز الإيمان ص (279).



إن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم قد اصطفاهم الله واختارهم ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآل عمران عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾ [آل عمران: 33].

* العصمة من المعاصي:

ونزههم عن السيئات وعصمهم من المعاصي صغيرها وكبيرها ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ [آل عمران: 161].

وحلاّهم بالأخلاق العظيمة من الصدق والتفاني في الحق ، فاجتباهم ، وعلمهم: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *﴾ [يوسف : 6].
فالأنبياء يتّسمون بالطهر والنزاهة والقداسة ، وهم النموذج الحي ، والصورة المثلى للكمال الإنساني ، ومن ثَمّ فهم معصومون عن الاثام ، ومنزّهون عن الوقوع في المعاصي ، فلا يرتكبون محرّماً ، ولا يقصّرون في أداء واجب ، ولا يتّصفون إلاّ بالأخلاق العظيمة ، التي يكونون بموجبها القدوةَ الحسنةَ والمثلَ الأعلى ، وقد زكّاهم الله سبحانه وتعالى ، وأدبهم وهذّبهم وعلّمهم ، قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الانعام : 90]. وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ*﴾ [الانبياء : 90].

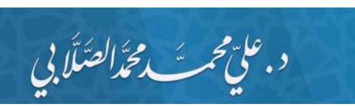
فيتّضحُ من هذه الآيات مدى الكمال الإنساني الذي أفاضه الله على أنبيائه ورسله ، ولو لم يكونوا كذلك ، لسقطت هيبتُهم في القلوب ، ولصغرَ شأنُهم في أعين الناس ، وبذلك تضيعُ الثقة فيهم ، فلا ينقادُ لهم أحدٌ ، ولذهبت الحكمةُ من إرسالهم ليكونوا قادةَ الخلقِ إلى الحقّ[109].

* حقيقة العصمة:

العصمة في اللغة: المنعُ ، وورد في (لسان العرب): العصمةُ المنعُ ، وقال الزجّاج في قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ﴾ [هود : 43]. أي يمنعني من الماء ، والمعنى: من تغريق الماء. واعتصم فلانٌ بالله إذا امتنع به ، واعتصمتُ بالله إذا امتنعت بلطفه من المعصية ، ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى حكاية عن امرأة العزيز: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف : 32].

أمّا في الاصطلاح: فهي لطفٌ من الله تعالى يحمِلُ النبيَّ على فعل الخير ، ويزجره عن الشر ، مع بقاءِ الاختيار ، تحقيقاً للابتلاء.

109 العقيدة الإسلامية ، ص (233).



وقيل: هي حفظُ اللهِ أنبياءَه ورســلَه من النقائص ، وتحقيقهم بالكمالات النفســية ، والنصــرة والثبات في الأمور ، وإنزال السكينة.

وقيل: هي ملكةٌ إلهية تمنعُ الإنسانَ من فعل المعصيةِ والميلِ إليها مع القدرةِ عليها.

وقد ذهبَ بعضُـهم إلى أنها خاصيةٌ في نفس الشـخص أو في بدنه ، يمتنعُ بسببها صـدورُ الذنب عنه ، وممّا يضعّف هذا الرأي ويَدْحَضُــه ، كما يقول الإيجي: إنه لو كان ذلك كذلك ، لما اسـتحقَّ المدحَ بذلك ، وأيضـاً فالإجماعُ على أنّهم مكلفون بترك الذنوب ، مثابون به ، ولو كان الذنبُ ممتنعاً عنهم ، لما كان كذلك ، وأيضاً قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [فصلت : 6]. يدل على مماثلتهم لسائر الناس فيما يرجِعُ إلى البشريةِ والامتيازِ بالوحي لا غير[110].

* العصمة ثابتة قبل البعثة وبعدها:

وقد اختلف العلماءُ في عصــمة الأنبياء ، هل هي قبل البعثة أم بعدها؟ وهل تكونُ العصــمةُ عن الكبائر فقط ، أم عن الكبائر والصغائر من الذنوب؟ فذهب بعضُـهم إلى أنّ العصـمة ثابتةٌ لهم قبل النبوة وبعدها من الصغائر والكبائر ، وذلك لأنّ السلوك الشخصيَّ ـ ولو قبل النبوة ـ يؤثّر على مستقبل الدعوة للنبي ، فلابدَّ إذاً أن يكونَ من ذوي السيرة العطرة ، والصفاء النفسي ، حتى لا يكونَ ثمة مطعنٌ في رسالته ودعوته ، واستدلّوا على ذلك بأنّ الله تبارك وتعالى قد اختار أنبياءه من صـفوة البشـر ، ورعاهم منذ الصـغر كما قال تعالى لموسى عليه السـلام: ﴿ وَلِتُصْـنَعَ عَلَى عَيْنِي *﴾ [طه : 39]. وجعلهم من المصــطفين ، كما قال ســبحانه: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْــطَفَيْنَ الأَخْيَارِ *﴾ [ص : 47]. فلابدّ إذاً أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها ، لكن وقع الخلاف في وجوب العصمة لهم من الصغائر[111].

والبحث في هذه المســـألة داخلٌ في الأمور الاجتهادية التي لم تنهضْ لها أدلةٌ قاطعة تقطعُ دابرَ الخلاف فيها ، وإن كان جمهورُ أهل السنة والجماعة يميلون إلى القول بامتناع الصغائر في حقّ الأنبياء خصوصاً بعد البعثة.

وأما الفريق الاخر فقد ذهب إلى أنَّ عصمة الأنبياء والرسل إنما تكون بعد النبوة ، وتكون في الصغائر والكبائر معاً ، لأنَّ المعاصي تكونُ بعد ورود الشرع والتكليف به ، ولأنَّ البشرَ ليسوا مأمورين باتباعهم قبل البعثة ، فالاتباع والاقتداء إنّما يكون بعد نزول الوحي عليهم ، وبعد تشـريفهم بحمل الرسـالة والأمانة ، وأمّا قبلها فإنّما هم كسـائر البشـر ، ومع ذلك فإنَّ سيرتهم تأبى عليهم الوقوعَ في المعاصي والاثام ، أو الانحراف في طريق الفاحشة والرذيلة ، فإنّهم ولو كانوا قبل البعثة غيرَ معصومين ، لكنّهم محفوظون بالعناية والفطرة.

---

110 العقيدة الإسلامية ، ص (234) المواقف ، للإيجي ص (366).

111 عقيدة التوحيد ص (244).

والصحيحُ الذي عليه المعوَّلُ من أقوال العلماء: هو أنّ الأنبياءَ صلوات الله وسلامه عليهم معصومون عن المعاصي (الصغائر والكبائر) بعد النبوة باتفاق ، وأما قبل النبوة فيحتمل أن تقع منهم بعضُ المخالفات اليسيرة التي لا تخلُّ بالمروءة ، ولا تقدحُ بالكرامة والشرف[112].

استعظام بعض الباحثين نسبة صغائر الذنوب إلى الأنبياء: مدّعين بأنّ وقوع مثل هذه الذنوب فيه طعنٌ بالرسل والرسالات ، واحتجّوا لذلك بأمرين:

الأمر الأول: أنّ الله أمرَ باتباع الرسل ، والتأسي بهم ، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا *﴾ [الاحزاب : 21]. وهذا يستلزِمُ أنّ اعتقادات الرسول وأفعاله وأقواله جميعاً طاعاتٌ لا محالة ، لأنّه لو جاز أن يقعَ من الرسول معصيةٌ لحصل تناقض ، ولاجتمعَ في هذه المعصية التي وقعت منه الأمر باتباعها وفعلها من حيثُ الأمر بالتأسي به ، والنهي عن اقترافها من حيث كونها معصية منهي عنها، وهذا تناقض ، فلا يمكن أن يأمرَ الله عبداً بشيءٍ في حالٍ ينهاه عنه.

وقد تصدقُ هذه الدعوى لو بقيت معصيةُ الرسول خافيةً غير ظاهرةٍ ، بحيث تختلط علينا الطاعةُ بالمعصيةِ ، ولكن ممّا يقرره أهل السنة القائلون بوقوع الصغائر منهم: أنّ الرسل لا يُقَرُّوْنَ على معصيةٍ أيّاً كانت ، ومن ثَمَّ فإنَّ الوحي ينبّههم إلى ما وقعَ منهم من صغائر الذنوب ، ويدفعهم إلى التوبة منها.

الأمر الثاني: من قال بعصمة الأنبياء من مثل هذه الذنوب ، توهم أنَّ الذنوبَ تنافي الكمال ، وأنَّها تكون نقصاً ، وإن تاب المذنبُ منها ، وهو غير صحيح ، فإنَّ التوبة تجبُّ ما قبلها ، والتائبُ من الذنبِ كَمَنْ لا ذنبَ له ، ومِنْ ثَمَّ فإن صغائر الذنوب لا تنافي الكمال ، ولا يتوجه إلى صاحبها اللوم ، بل إنّ العبد في كثيرٍ من الأحيان يكون بعد توبته من معصيةٍ خيراً منه قبل وقوع المعصية ، وذلك لما يشعرُ به من الندم والخوف والخشية ، ولما يقبل عليه من الاستغفار والدعاء ، والعمل الصالح رجاء أن تمحو الحسناتُ السيئاتِ ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ *﴾ [البقرة : 222]. وقال تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *﴾ [الفرقان : 70].

وأخيراً: فإنّ مثل هذه الصغائر لا تَنْتَقِصُ من مكانة الرسل ، ولا تَقْدَحُ في عصمة الأنبياء ، بل هي أقربُ لتوكيد بشريتهم ، فهم بشرٌ عرضةٌ للخطأ في التصرّفات ، والاجتهاداتِ الشخصية ، ولكنّهم معصومون فيما يتعلّق بالوحي تلقيناً وتبليغاً ، وهذا يجعلهم أهلاً للقدوة والأسوة ، فلو أصبحوا نوعاً اخر من البشر لا تجري عليهم الهنات والهفوات البشرية ، لصعبتِ القدوةُ بهم ، وقال الناس: هؤلاءِ الرسلُ ليسوا مثلنا في أي شيءٍ فكيف نقتدي بهم[113]؟.

[112] عقيدة التوحيد ص (244).

[113] العقيدة الإسلامية ص (238).



ومعلوم أنّه لم يقعْ ذنبٌ من نبي ، إلا وسارع إلى التوبة والاستغفار ، يدلُّنا على هذا أنّ القرآن لم يذكر ذنوبَ الأنبياء إلا مقرونةً بالتوبة والاستغفار.

فادمُ وزوجُه عصــيا فبادرا بالتوبة قائلين: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَــنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِــرِينَ *﴾ [الاعراف : 23].

وما كادت ضـربةُ موسـى عليه السـلام تُسْـقِطُ القبطيَّ قتيلاً حتى سـارع طالباً الغفران والرحمة: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص : 16].

وداود ما كاد يشـــعرُ بخطيئته حتى خرَّ راكعاً وأناب: ﴿ فَاسْـــتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ *﴾ [ص : 24][114]، وذلك حين حكمَ لأحدِ الخصمين قبل أن يستمعَ لقول الخصمِ الاخر ، قال تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ *إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْـمَانِ بَغَى بَعْضُـنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْـطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَـوَاءِ الصِّـرَاطِ *إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْـعٌ وَتِسْـعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ *قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُـؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُـهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ *﴾ [ص : 21 ـ 24][115].

تاسعاً – شبهات حول عصمة الأنبياء:

ما ورد في القرآن الكريم من نصوص تثبتُ لبعضهم بعضَ المخالفات ، وتنسِبُ إلى بعضهم الاخر الذنب والمعصية ، كادم ، ونوح ، وموسـى عليهم السـلام ، وغيرهم من الأنبياء والمرسـلين ، كما في قوله تعالى في حق ادم عليه السـلام: ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى *﴾ [طه : 121] وقوله سبحانه في حق نوح عليه السلام: ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ *﴾ [هود : 46] وقوله جل وعلا في حق سـيد المرسـلين (ﷺ): ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح : 2]. فالجواب على ذلك أنّ هذه النصوص محمولةٌ على بعض الوجوه الاتية:

* أنها ليست معصية ، وإنما فِعْلُ خلاف الأولى.

---

114 الرسل والرسالات ص (111).

115 ركائز الإيمان ص (279).



* أنّها ليست معصية ، وإنّما هي خطأٌ في الاجتهاد ، والخطأُ في الاجتهادِ لا يتنافى مع العصمة ، لأنَّ المعصية هي ارتكابُ المحرَّمِ عمداً ، والخطأ هو إبداءُ الرأي في أمر يخالِفُ الحقيقة الموجودة في علم الله تعالى ، أو هو تصرّفٌ على وجهٍ يكونُ له وجهٌ اخرُ أصحّ.

وعلى فرض أنّها مخالفة ومعصية فإنّها قد وقعت قبل النبوة[116]، وإليك شيء من الإيضاح:

أ ـ ادم عليه السلام:

معصية ادم عليه السلام التي صرّح القرآن بها في قوله تعالى: ﴿ فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى *ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى *﴾ [طه : 121 ـــ 122] إنّما كانت هذه المخالفةُ والمعصيةُ قبل النبوة ، بدليل قوله تعالى: والاجتباءُ هو اصطفاءُ الله ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ ، فتكونُ المعصيةُ قد وقعت من ادم عليه السلام قبل النبوة.

وهناك قول اخر أنّ ادم عليه السلام ، إنّما أكلَ من الشجرة ناسياً ، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا *﴾ [طه : 115]. وقيل: إنَّ ادم عليه السلام لما نهي عن الأكل من الشجرة بقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة : 35]. ظنَّ أنَّ المرادَ عينُ هذه الشجرة لا جِنْسُها ، فأكل من شجرةٍ أخرى من جنسها فخالَفَ الأمر ، وكلُّ ذلك باجتهادٍ منه ، لا عن سابق تعمّدٍ وإصرارٍ على المخالفة ،[117] كما قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة : 286] ولم يكن من ادم تعمّدٌ أو عزمٌ منه على المعصية ، بدليل الآية التي ذكرناها وذلك ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا *﴾ اختاره بعضُ المفسرين كالقرطبي وابن العربي.

أو نقول: إنّ المعصيةَ وقعتْ منه قبلَ النبوة ، وذلك ما اختاره صاحبُ تفسير المنار حيث قال: ... ولنا أن نقول: إنّ تلك مخالفة صدرت منه قبلَ أن يدرِكَهُ عزمُ النبوة ، كما قال جل شأنه ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا *﴾ والاتفاق إنّما هو على العصمة عن مخالفة الأوامر بعد النبوة ، وقد يكون الذي وقع من ادم نسياناً ، فسُمِّي تفخيماً لأمره عصياناً.. والنسيانُ والسهو ممّا لا ينافي العصمة[118].

وأبو بكر ابن العربي المالكي قد رجّح الأول ، وذهبَ إلى أنَّ المخالفة وقعت من ادم عليه السلام بسبب النسيان ، فقد جاء في كتاب (أحكام القرآن) ما نصّه: كم قال في تنزيه الأنبياء عن الذي لا يليق بمنزلتهم مما يَنْسِبُ الجهلةُ إليهم ـ من وقوعهم في الذنوب عمداً منهم إليها ، واقتحاماً لها مع العلم بها ، وحاشا لله ـ فإنّ الأوساط من المسلمين يتورّعون عن ذلك ، فكيف بالنبيين ، ولكنّ الباري سبحانه بحكمه النافذ ، وقضائه السابق ، أسلم ادم إلى المخالفة ،

---

[116] عقيدة التوحيد ص (244 . 245).

[117] النبوة والأنبياء ص (71).

[118] تفسير المنار (380/1).



فوقع فيها متعمداً ناسياً فقيل في تعمده: ﴿ وعصى آدم ربه﴾ وقيل في بيانِ عذره ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا *﴾ [طه : 115]. ونظيرُها: أن يحلفَ الرجلُ لا يدخل داراً أبداً ، فيدخلها متعمّداً ناسياً ليمينه ، أو مخطئاً في تأويله ، فهو عامدٌ ناسٍ ، ومتعلَّق العمدِ غير متعلَّقِ النسيان.. وجاز للمولى أن يقول في عبده (عصى) تعذيباً ، ويعود عليه بفضله فيقول: (نسَي) تنزيهاً.

ثم قال: ولا يجوز لأحدٍ منا اليوم أن يخبرَ بذلك (أي بعصيان ادم) إلا إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى عنه ، أو قول نبيه (ﷺ) ، فأمّا أن يبتدأى ذلك من قبل نفسه ، فليس بجائزٍ لنا في ابائنا الأدنَيْنَ المماثلين لنا ، فكيف في أبينا الأقدم الأعظم الأكرم ، النبي المقدم ، الذي عذره الله ، وتاب عليه وغفر له[119].

ومن خلال أقوال العلماء والمفسّرين أنّ ادم عليه السلام لم يتعمّد مخالفة أمر الله عز وجل ، وإنّما أكل من الشجرة متأوّلاً ، بطريق الاجتهاد ، أو ناسياً لأمر الله تبارك وتعالى ، فعاتبه ربُّه بإخراجه من الجنة ، وإنزاله إلى الأرض ، وذلك لحكمةٍ إلهيةٍ سابقةٍ ، فلا يجوزُ لنا أن نرميَه بالعصيان ، مع أنَّ ما وقع منه لم يكن إلا بسبب النسيان ، ولا أن نسيءَ الأدبَ ، ولا سيّما بعد أن نزل القرآن بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى *﴾ [طه : 122][120].

إنّ ادم عليه السلام أكلَ من الشجرةِ ناسياً ، ولم يكن عازماً ولا عامداً ولا قاصداً ، فمعنى لم نجدْ له قصداً ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا *﴾ تعمُّداً للأكل من الشجرة ، ولم يعزم على الأكل ، ولم يتعمّد المخالفة ، ولم يصرّ على ارتكاب المحظور، لم نجد له عزماً على المخالفة ، لأنّه أكل من الشجرة ناسياً ، والنسيانُ ينفي عنه القصدَ والتعمّد ، وفي الآية . على هذا الفهم والتفسير ــ توجيةٌ لمعصية ادم في أكله من الشجرة ، بأنّه كان في حالةِ نسيانٍ منه تعهده لله ، وعدم تذكره ، ولو كان ذاكراً لعهد الله لما أكل من الشجرة ، وهذا النسيان نفيٌ للعزم والتعمد والتصميم والإصرار ، وكأن جملة توجيةٌ لأكل ادم من ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا *﴾ ، وتحليلٌ لذلك الفعل ، سيق ليكونَ مثل اعتذارٍ له ، وشهادة له ، بأنّه لم يتعمّد ولم يقصد ولم يعزمْ على المخالفة.

ولما تذكّرَ ادمُ عهدَ الله بعدَ الأكل ــ كان ذلك بعد بُدُو السوءات ــ عرف أنه خالفَ عهد الله ، وارتكب المحظور ، وأنّه بذلك عصى ، فسارعَ بالتوبة والإنابة والاستغفار ، وطلبَ من الله أن يغفرَ له ، فتاب الله عليه ، وغفر له ، وقد انطبق على أبي البشر عليه السلام قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ *﴾ [الاعراف : 201].

---

[119] النبوة والأنبياء ص (72) أحكام القران ، لابن العربي (1249/3).

[120] النبوة والأنبياء ص (73).





فمجرّد أنْ تذكّرَ ادم تاب إلى الله ، فتاب الله عليه ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *﴾ [البقرة : 37][121].

ب . نوح عليه السلام:

وأمّا نوحٌ عليه السلام ، فما وقع منه فهو أنّه سأل الله عن هلاك ابنه مع مَنْ هلكوا في الطوفان ، مَعْ وعدِ الله بنجاته ونجاةِ أهله ، فقد بيّن القرآن الكريم أنّ الله تعالى أوصـاه أن يحمِلَ أهله والمؤمنين في السـفينة. قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَـبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: 40] ولهذا قال نوح عليه السـلام: ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَال يانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ *قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِـرِينَ *﴾[هود: 45 . 47].

فلم يكن لنوحٍ عليه السـلام علمٌ بأنّ نسـب ابنه إليه قد انتفى بكفره، وإعراضـه عن دعوة الله ، فأعلمه الله تعالى أنّ الصلة الدينية والنسب الروحي أقوى من صلة الدم ، فإذا انقطعت هذه الصلةُ ذهبت بصلةِ النسب والدمِ ، فقال له معلماً إياه: معلّلاً ذلك بأنّ عمله عملٌ غيرُ ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ، وبذلك ينتفي نسـبُه من أبيه ، فلا يكونُ من أهله الذين وُعِدُوا بالنجاة[122]. وعلّلَ نفيَ كونه من أهله الحقيقيين لكفره بقوله بعد ذلك والعجيبُ في الجملة أنّه حوّل الشخص نفسه إلى رُكامٍ من العمل غير ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ، لم يقل إنه عملَ عملاً غير صالح ، ولكنّه قال: إنه عمل غير صـالح ، وفرقٌ بعيدٌ بين الجملتين ، وما أثبته نوح عليه السـلام عن ابنه أنه من أهله ، أراد به الصـلة النسـلية النسبية بينهما ، وما نفاه الله عن ابنه ، أراد به الصلة الإيمانية الاعتقادية فيما أنه ليس من دينه ، فقد انقطعت الصلةُ بينهما ، رغم أنّه ابنه من صـلبه ونسـبه ، وقد مات كافراً ، وعرف نوحٌ حقيقةَ نهاية ابنه ، وقد عاتب الله نوحاً عليه السـلام عتاباً شـديداً على سؤاله ولذلك قال تعالى له: وسـارع نوح عليه السـلام إلى الاعتذار والاسـتغفار واللجوء إلى ﴿ فَلاَ تَسْـأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ *﴾ ، قال تعالى: ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ *﴾ [هود : 47].

ولم يكن نوحٌ عليه السـلام معترضاً على حكم الله في ابنه ، ولما عرف الحقيقة التزم بها ، واستغفر ربه ، وأناب ، وعاتبه الله ، لأنه فعل خلافَ الأَوْلى ، فرغم أنّه لم يخطىءْ في سؤاله ، إلا أنه كان الأَوْلى والأجدرُ به أنْ لا يسأل ، وأنْ يعرفَ

121 مواقف الأنبياء في القران ، تحليل وتوجيه، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي ص (549).

122 عقيدة التوحيد ص (245).



الأمر بدون سؤال ، والله يريدُ من رسوله عليه السلام أن يكون فعلُه دائماً وفقَ الأولى والأفضل والأكمل والأحسن ، والله بعتابه له يرشده إلى ما هو أولى وأفضل رغم أن فعله صواب[123].

ج ـ إبراهيم عليه السلام:

وأمّا ما ذكر عن إبراهيم عليه السـلام ، من أنّه كان شـاكّاً في الله أوّل أمره ، متأثراً ببيئة قومه في عبادة الكواكب ، فليسَ بصحيحٍ ، بل إنّه نشأ مؤمناً بالله منذُ صغره ، وما كان منه من قوله للكوكب وللقمر وللشمس (هذا ربي) ، فإنّما هو من قبيل التسليم الجدلي في مقام الاستدلال على وجود الله لإقامة الحجّة على قومه ، بحيث يتنزّل معهم إلى مستوى إدراكهم وفهمهم ، ويتدرّجُ معهم حسب اعتقادهم ، ليبطِلَ عقيدتهم في عبادة هذه الالهة المزعومة بالمنطق السليم ، وبالحجة والبرهان ، ولهذا امتدحَ الله عزّ وجلّ إبراهيمَ عليه السلام على الأسلوبِ الذي اتبعه في الاستدلال ، وإليك هذه الآيات: قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ *فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّآلِّينَ *فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ *﴾ [الانعام : 76 ـ 79].

فهذه الأقوال من إبراهيم الخليل لم تكن شكّاً في الله ، ولم تكن جهلاً بالخالق جلّ وعلا.. وإنّما كانت من أجل إقامة الحجة على ضلال قومه ، عن طريق البرهان والاستدلال ، وإفحامهم بأعظم الحُجج الدامغة[124].

فمن ظنَّ بإبراهيمَ الشك ، أو اعتقد أنّه عبدَ الشمس أو الكوكب ، فقد جانب الحق ، وأخطأ الفهم ، وجهل صفات الأنبياء والمرسلين ، وكيف يكون والله جلّ جلاله قد أعطاه العقلَ وكمالَ الرُّشد قبل ذلك ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ *﴾ [الانبياء : 51].

وقد أطلعَ اللهُ عزّ وجل إبراهيمَ عليه السلام على ملكوت السماوات والأرض ، وأخبرنا بأنّه كان من المؤمنين الموحّدين الكاملين في الإيمان واليقين ، وأنّ الله تعالى قد وهبه وأعطاه الحجة الدامغة ، التي تقصِمُ ظهر كلّ معاندٍ ومكابرٍ ، وأنه في مقام الاستدلال وإقامة البرهان على وجود الله الواحد الأحد ما كان يغلبه أحد ، استمع إلى الآيات الكريمة ، كيف أنّ الله عزّ وجلّ يسوقُ البراهين على كمالِ يقينه ، قال جل ثناؤه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ *﴾ [الانعام : 74 ـ 75].

---

[123] مواقف الأنبياء في القران ، ص (76).

[124] النبوة والأنبياء ص (77).



فالله عزّ وجل أعطى إبراهيم الحُججَ المقنعة ، والبراهينَ الســـاطعةَ ، التي بها قام الدليلُ على وجودِ الصـــانع الحكيم ، فهو يجادِلُ أباه بقوله ثم يصفُ قومَه بالضلالة في عبادة مَنْ ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغني عن الحقِّ شيئاً ، . فيقول:﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *﴾ ثم يأتي البرهانُ على كمالِ يقين إبراهيم بشهادة الله عز وجل: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ *﴾

والآيات التي جاءت بعدها إنّما هي في مقام الاســتدلال على وجود الله ، وفي تقرير الحجة على قومه ، بحيث يتنزّل معهم إلى مستوى إدراكهم وفهمهم ، ويتدرّجُ معهم على حسب اعتقادهم ، فيقول عن النجم (هذا ربي) ثم عن القمر ثم الشمس ، ليبطلَ عقيدتهم في عبادةِ هذه الالهةِ المزعومة بالمنطق السليم ، وبالحجّة والبرهان ، ولهذا ختم الله عزّ وجلّ هذه القصـــة بقوله جل وعلا: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَـــاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ*﴾ [الانعام : 83][125].

وأمّا النص الثاني فهو قوله تعالى: [126]﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *﴾ [البقرة : 260].

فإبراهيمُ الخليل عليه السلام لم يكن شاكّاً في ربه ، أو في قدرته تعالى ، وإنّما سأل عن الكيفية ، ولم يسأل عن الماهية ، فلم يقل: هل تقدِرُ يا ربِّ أن تحيي الموتى والســؤال عن الكيفية إنما هو بدافع الشــوقِ والتطلّع لرؤية أســرار الصــنعة الإلهية[127].

إنّه التشوّق إلى ملابسة سرِّ الصنعة الإلهية ، وحين يجيءُ هذا التشوّق من إبراهيم الأوّاه ، الحليم ، المؤمن ، الراضي ، الخاشع ، العابد ، القريب ، الخليل ، حين يجيءُ هذا التشوّقُ من إبرهيم ، فإنّه يكشِفُ عمّا يختلجُ أحياناً من الشوقِ والتطلّع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوبِ أقربِ المقربين.

إنّه تشوّقٌ لا يتعلّقُ بوجودِ الإيمانِ وثباتِهِ وكمالِهِ واستقراره ، وليس طلباً للبرهانِ أو تقويةٍ للإيمان ، إنّما هو أمرٌ اخر له مذاقٌ اخر ، إنّه أمرُ الشوق الروحي إلى ملابسةِ السرِّ الإلهي ، في أثناء وقوعه العملي ، ومذاقُ هذه التجربة في الكيان البشــري مذاقٌ اخر غيرُ مذاق الإيمان بالغيب ، ولو كان هو إبراهيم الخليل الذي يقول لربه ويقول له ربه ، وليس وراءَ

---

[125] النبوة والأنبياء ص (74 . 75).

[126] فصرهن إليك: ضمهن إليك.

[127] عقيدة التوحيد ص (246).



هذا إيمانٌ ولا برهانٌ للإيمان ، ولكنّه أراد أن يرى يدَ القدرةِ وهي تعملُ ، ليحصلَ على مذاق هذه الملابسةِ فيستَرْوِحَ بها ، ويتنفّس في جوّها ، ويعيش معها ، وهي أمرٌ اخرٌ غير الإيمان الذي ليس بعده إيمانٌ[128].

كان إبراهيم عليه السلام إنساناً لا يعرِفُ حدّاً للشبع من المعرفة الإلهية ، كان دائمَ الطلب: هل من مزيد؟ أعطني يا ربِّ من معرفتك المزيد ، لذا ففي حديثٍ يرويه البخاريُّ ومسلم يقول: يقول الرسول (ﷺ): «نحن أحقُّ بالشكّ من إبراهيم»[129]، أي بما أننا لا نشكُّ في إحياء الموتى ، فمِنَ الأَوْلى عدمُ وجودِ الشكِّ عندَ إبراهيم[130].

التعريضات الثلاثةُ لإبراهيم عليه السلام:

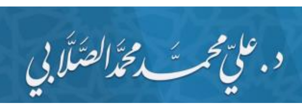
ورد في السنة النبوية ما يشيرُ ظاهرُه إلى عدم (العصمة) بحقِّ إبراهيم عليه السلام ، وذلك في قوله (ﷺ): «لمْ يَكْذِبْ إبراهيمُ إلاّ ثلاثَ كذباتٍ: اثنتين منهنَّ في ذاتِ اللهِ ، قوله: وقوله: وقال: بينما هو ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ * بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ يومٍ وسارةُ ، إذ أتى على جبارٍ من الجبابرة ، فقيل له: إنّ هاهنا رجلاً معه امرأةٌ من أحسن النّاس ، فأرسل إليه، فسأله عنها: مَنْ هذهِ؟ قال: هي أختي. فأتى ، فقال لها: إنَّ الجبارَ إنْ يعلمْ أنّكِ امرأتي يَغْلِبُني عليك ، فإنْ سألكِ فأخبريه أنّك أختي ، فإنّكِ أختي في الإسلام ، ليس على وَجْه الأرضِ مؤمنٌ غيري وغيرُك ، فأرسلَ إليها ، فأتى بها ، وقام إبراهيمُ يصلّي ، فلمّا دخلت عليه ذهبَ يتناولها بيده ، فأُخِذَ ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرُّك ، فدعتَ الله فأُطلقَ ، ثم تناولها الثانية ، فأُخذ مثلها أو أشدّ ، فقال: ادعي الله ولا أضرّك ، فدعت اللهَ ، فدعا بعضَ حجبته فقال: إنّكَ لم تأتني بإنسانٍ ، إنّما أتيتني بشيطانٍ ، فأخدمَها هاجرَ ، فأتته وهو قائمٌ يصلّي ، فأومأ بيده مُهيم؟ قالت: ردّ اللهُ كيدَ الكافرِ في نحرِه ، وأخذَ هاجر» قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء[131].

هذا الحديث الشريف ليس فيه ما يدلُّ على عدم العصمة ، لأنّ النبي (ﷺ) لم يقصدْ بهذه الكلماتِ الثلاثة حقيقةً معنى الكذب ، إنّما قصد أنَّ إبراهيم الخليل أخبرَ بإخباراتٍ توهِمُ الكذب في الصورة ، وهي ليست بكذبٍ في الحقيقة والواقع[132]، وهذه هي التعريضات الثلاثة لإبراهيم عليه السلام ، وسنتناولها جميعاً لنرى الوجْهَ الحقيقيّ لعصمته بعد معرفة ماهية الحوادث.

إني سقيم:

يبين القرآن الكريم التعريض الأول فيقول: ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيْعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ *إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ *إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ *أَإِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ *فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ *فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ *فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ *فَتَوَلَّوْا

[128] في ظلال القران سيد قطب (1/301 . 302).
[129] البخاري (3372).
[130] العصمة النبوية ، محمد فتح الله كولن ص (49).
[131] البخاري (3358).
[132] النبوة والأنبياء ص (80).



عَنْهُ مُدْبِرِينَ *﴾ [الصافات : 83 ـــ 90] كان إبراهيم عليه السلام يقصِدُ من الإشارةَ إلى السبب الرئيس لعدم شعوره ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ *﴾ ، كانتِ الأصنامُ مصدرَ حزنه وسقمه ، وشعرَ بأنّه ما لم يهدم هذه الأصنام ويكسرها ، فلن يجدَ طعماً للراحة ، وعندما قال لمن حوله: ظنوه مريضــاً من الناحية ﴿ إِنِّي سَـقِيمٌ *﴾ ، فتولّوا عنه ، إذ كانوا يصــرّون على اصطحابه معهم لمشاركتهم في احتفالهم الديني ، وما إن خرجوا من عنده حتى أسرعَ ليحطم الأصنام ، مبيناً بذلك السبب الحقيقي لسقمه ، غير أنّه استعمل في كلامه معهم تعريضاً يفهمون منه شيئاً غير مقصودِهِ الحقيقي ، ولكنّه لم ينحرف في كلامه هذا إلى الكذب أبداً ، كل ما هناك أَنَّ قومه لم يفهموا قصده الحقيقي ، وليس هذا بغريبٍ عن قومه الذين صمّوا اذانهم عن الاستماع إلى الحق[133].

بل فعله:

والتعويض الثاني هو: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْــــدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ *إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ *قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ *قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَــــلَالٍ مُبِينٍ *قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ *قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّــاهِدِينَ *وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْــــنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ *فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ *قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ *قَالُوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ *قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْــهَدُونَ *قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ *قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ *﴾ [الانبياء : 51 ـ 63].

فقوله: لم يكن في الحقيقة ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ ، وإنّما هو نوع من الحُجّة الدامغة ، والبرهانِ الســــاطع أراد أن يقيمَه إبراهيمُ على قومه ، فحين سـألوه مَنْ حطّم هذه الأصنام؟ أشـار إلى الصنمِ الأكبرِ ، سـخريةً وتهكماً بهم وبهذه الأصـــنام ، ثم لما راهم متعجّبين من كلامه أجابهم بالجواب المســكت ﴿ فَاسْــأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ *﴾ [الانبياء : 63][134].

إنك أختي:

لا توجد في التعريض الثالث ذرّةٌ من الكذب ، بل لا يمكِنُ حتى إطلاق كلمة (التعريض) على كلامه ، فهو كلامٌ صـحيحٌ صـادِقٌ تمامَ الصـدق ، إذ أوصـى زوجته سـارة أن تقول للنمرود ولرجاله إن سـألوها (إنني أخته) ولو سـألوا إبراهيم عليه السلام عنها لقال: إنها أختي ، ذلك لأنَّ إبراهيم عليه السلام لو قال: إنّها زوجته لامتدت أيديهم بالأذى والسـوء إليها ، ولوقع هو وزوجته في ضـيق شـديد ، وربّما اضـطر إلى ترك تلك البلاد ، والرحيل عنها ، غير أنّ ما قاله

133 العصمة النبوية ص (52).

134 النبوة والأنبياء ص (80).





إبراهيم عليه الســـلام مطابِقٌ للحقيقة ، ذلك لأنَّ جميع المؤمنين إخوة كما يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات : 10].

والإيمانُ هو الرباط الأول الذي يربط الإنسـان بالاخرين ، واختلاف الزمان والمكان لا يكونُ حائلاً بين أخوة الإيمان ، والمؤمنون والمؤمنات إخوة فيما بينهم دونَ أيّ تفرقة بين ذكر وأنثى ، أمّا نقاط التقارب الأخرى فتأتي بعد هذه الأخوة، فإن قام مؤمنٌ بتطليق زوجته، انقطعت رابطة الزوجية فيما بينهما، ولكنَّ رابطة الإيمان تبقى موجودةً ، فإبراهيم عليه السلام أشار إلى هذه العلاقة ، وإلى هذه الرابطة ، وقال عن زوجته: إنّها أخته ، وهذه الكلمة تفيد عينَ الحقيقة[135].

استغفاره لأبيه:

لما أصـــرّ والد إبراهيم عليه الســـلام على كفره ، وردّ عليه دعوته بغلظةٍ وفظاظةٍ ، ردّ عليه إبراهيم عليه الســـلام بحلمٍ وهدوءٍ ، ووعده أن يســـتغفرَ الله له ، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا *قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا *﴾ [مريم : 46 ـ 47].

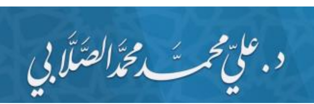
واستغفار إبراهيم لأبيه مبنيٌّ على إيمانه بالله ، أي: إنْ امنَ أبوه طلبَ من الله أن يغفر له ، أمّا إن لم يؤمن ، وأصـرّ على كفره ، فلن يغفِرَ الله له ، لأنَّ إبراهيم عليه الســـلام يعلمُ أنّ الله لا يغفِرُ لإنســـانٍ كافرٍ بالله ، ماتَ على كفره وشركه، فهذه مسألة

اعتقادية جاء بها جميعُ الرسـل ، ويعلمُها جميعُ الرسـل ، إذن لا يُلامُ إبراهيم على اسـتغفاره لأبيه ، لأنَّ اسـتغفاره له مشروط بالإيمان ، كأنّه باستغفاره يقول: اللهم إنْ امنَ أبي فاغفر له ، وقد أخبرنا الله عن استغفاره لأبيه في قوله تعالى: ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ *﴾ [الشعراء : 86].

ولكنّ أباه لم يؤمن ، وأصرّ على كفره ، عند ذلك لم يستمرّ إبراهيم عليه السلام في استغفاره له ، وإنّما تبرأ منه ، وقطع صـلته به ، وايات القرآن في هذه صـريحةٌ ، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ *وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ *﴾ [التوبة : 113 ـ 114].

وحتى لا يستشـهدَ أحدُهم بفعل إبراهيم عليه السـلام ، وحتّى لا يسـتغفرَ لقريبه الكافر مقتدياً بإبراهيم في اسـتغفاره لأبيه ، فقد وضّحت الآية ملابساتِ ذلك: والمعنى: استغفرَ إبراهيمُ عليه السلام لأبيه بسبب الوعد الذي وعد ﴿ وَمَا

135 العصمة النبوية ص (55).



كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ ، حيث وعد أباه أن يستغفرَ له ، وذلك في قوله: ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا *﴾ [مريم : 47] وعندما تبيّن له حقيقة موقف أبيه تبرّأ منه: لقد تبرّأ إبراهيمُ من أبيه في ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ *﴾ ، وأظهرَ عداوته له ولقومه[136].

د ـ يوسف عليه السلام:

وفي قصّةِ يوسف الصديق عليه السلام ، التي قصها علينا القرآن الكريم ، صورةٌ مشرقة عن نزاهة هذا النبيّ الكريم ، وبراءته وعصمته ، مع ما أعطاه الله عزّ وجلّ من الجمال ، وما كساه من البهاء والجلال ، حتى افتُتِنَتْ به امرأةُ العزيز ـ عزيز مصر ـ فصنعت ما صنعت بقصد إغوائه وإغرائه ، ولكنّه عليه السلام كان أصلبَ من الحديدِ ، وأقوى من الجبالِ ، فلم تؤثّر فيه تلك العواصفُ الهوج ، والمكايد التي اصطنعتها النسوةُ مع امرأةُ العزيز ، والتي قصَّ علينا القرآن الكريم طرفاً منها ، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ *﴾ [يوسف : 30 ـ 31].

ومما تجدرُ الإشارةُ إليه أنّ بعض الناس ممن ليس لهم قدمٌ راسخٌ في العلم ، قد اغترّوا ببعض رواياتٍ إسرائيليةٍ باطلةٍ مكذوبة ، لا يصحُّ أن تروى بَلْهَ أن تذكر في كتب التفسير ، وقد نبه عليها العلماء الأثبات ، والحفّاظ الثقات ، لأنها تصادِمُ النصوص القرآنية الكريمة ، وتتنافى مع عصمة الأنبياء الأطهار[137].

وهذا النصُّ الذي فُسّرَ تفسيراً خاطئاً لا يتفق مع عصمة الأنبياء ، ولا ينسجِمُ مع النصوص القرآنية الأخرى هو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف : 24]. لقد فسروا الهمَّ من يوسف على أنّه مطاوعةٌ منه لامرأة العزيز ، وعزمٌ على قربانها ، وفسّروا البرهانَ على أنّه الصورة التي ظهرَ بها والده يعقوب عليه السلام وهو يعضُّ على أنامله ، حتى تركَ يوسفُ ذلك العمل القبيح ، وهذا التأويلُ باطلٌ ، ولا يجوزُ بحالٍ من الأحوالِ.

وقد نبّه كثيرٌ من المفسرين إلى أمثال هذه الإسرائيليات ، وبيّنوا بطلانها ، لئلا ينخدعَ بعضُ المسلمين بها ، فيظنوا أنّها أخبارٌ حقيقة موثوقة.

إنَّ الآية الكريمة لها مفهومٌ دقيق ، ينبغي ألاّ يغفل عنه واسعُ العلم ، دقيقُ البصر ، ذلك أنَّ الهم الذي وقع من امرأة العزيز كان هَمَّ سوءٍ ، كانت تدعوه إلى نفسها من أجل عمل الفاحشة ، ومن أجل ذلك راودته عن نفسها ، بعد أن

---

136 مواقف الأنبياء في القران ص (106).

137 النبوة والأنبياء ص (81).



أحكمت إغلاقَ الأبوابِ ، وحاصـــرته في الدار ، كما قال تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِـــهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ *﴾ [يوسف : 23].

أما الهمُّ الذي كان من يوسف الصديق عليه السلام فلم يكن هَمّ سوء ، ولم يكن عزماً على خيانة أو فاحشة ، وما خطر بباله عليه السلام شيءٌ مما يتوهمه بعض الجهلاء من إرادةِ السوء أو عمل الفاحشة ، وإنّما كان همه أن يدفع عنه هذه المكيدة الخبيثة التي دبرتها له سـيدته امرأة العزيز ولهذا نجد المقاومة في موقفه ، والمقاومة العنيفة في حديثه: ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾.

فالهم منها غير الهم منه ، همت به طلباً ، وهم بها دفعاً ، كما يقول بعض المفسرين.

أو كما قال البعض الاخر: إن الهمّ منها وقع فعلاً ، وأما هم يوســف فكان بالطبع ، أي إنه عليه الســـلام مال إليها بطبيعته الفطرية مع الامتناع عن مقارفةِ السوء ، والإنسانُ غير مواخذٍ بما تشتهيه نفسُه ، أو يميل إليه طبعه ، ما لم يعزم على فعل الشيء ، وهذا ما فسره النسفي حيث قال: هم عزم هم الطباع مع ﴿ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾

ويرى بعض المفسرين أنّ في الآية تقديماً وتأخيراً ، ويصبح المعنى ﴿ لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [:يوسـف: 24] المعنى لولا برهان الله أي عصمته ليوسف لهم بها ، ولكنّ عصمة الله تعالى له حالت دون ذلك الهم[138]. وهذا أرجح الأقوال.

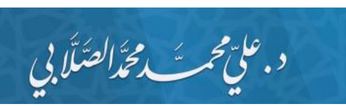
الأدلة على عصمة يوسف عليه السلام:

هناك وجوه عشرة على عصـمة يوسف وبراءته عليه السلام من تلك التهمة الشنيعة ، التي نسبها إليه مَنْ لا يعرفُ قدر النبوة ، ولا عظمة الرسالة ، ولا صفات الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهي:

الوجه الأول: امتناعه عليه السـلام عن مطاوعةِ امرأة العزيز ، ووقوفه في وجهها بكلِّ صـلابة وعزم ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ *﴾.

الوجه الثاني: فِرَارُه عليه السـلام من امرأةِ العزيز بعد أن حاصـرته ، وضـيّقت عليه الخناق ، وراودته عن نفسه بالغصب والإكراه ، ولو كان يوســف همّ بالفاحشــة لما فرّ منها ، لأن الذي يريدُ عمل الفاحشــة يُقْدِمُ ولا يفر قال تعالى: ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ [يوسف : 25].

[138] النبوة والأنبياء ص (84).



الوجه الثالث: شهادةُ بعض أقرباء زوجة العزيز ببراءة يوسف ، حيث أشار بفحص ثوبه ، لأنه إذا كان هو الطالِبُ لها وهي الممتنعة ، فإنّ ثوبه سيُشَـقُّ من أمام ، وإن كانت هي الطالبةُ ، وهو الممتنعُ الهاربُ منها ، فإنَّ ثوبه سيشـقُّ من خلفٍ ، قال تعالى: ﴿ وَشَـهِدَ شَـاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُـهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَـدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ *فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ*﴾ [يوسف : 26 ـ 28].

الوجه الرابع: تفضيله السجن على الفاحشة: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ *﴾ [يوسف : 33].

وهذا من أعظم البراهين على براءته عليه السلام ، إذ كيف يُعْقَلُ أن يفضِّلَ شخصٌ السجنَ على شيء يرغبه ويتمنّاه ، ولو أنّه استجاب لدعوتها ، وطاوعها على نفسها ، لما لبث في السجن بضعَ سنين بسبب تلك التهمة التي ألحقتها به ، فدعوى هَمّ يوســف بامرأة العزيز باطلٌ ظاهِرُ البطلان ، يدرك ذلك كلُّ منصــفٍ درسَ تاريخ هذا النبيّ الكريم ، وفهم معاني القرآن[139].

الوجه الخامس: ثناء الله عز وجل عليه في مواطن عديدة من السورة كما قال تعالى: ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ *﴾ [يوسف : 24] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ *﴾ [يوسف : 22 ـ 23].

فقد أخبر الله تعالى بأنّه من المحســنين ، وأنّه من عباده المخلصــين ، الذين اختارهم الله لنبوته ، وأخلصــهم لطاعته وعبادته ، ولا يكونُ ثناءُ الله تبارك وتعالى إلاّ على مَنْ صـفت نفسُـه ، وطهرت سـريرتُه مِنْ كلِّ نية سـيئة ، وكل عملٍ قبيح ، فكان من الأطهار المقربين؟.

وقد شـهد رسـول الله (ﷺ) له أيضـاً بالصـلاح والتقى وبالطهارة والاسـتقامة ، قال (ﷺ): «الكريمُ ابنُ الكريم ابنُ الكريم ابنُ الكريم ، يوسفُ بنُ يعقوب بن إسحاقَ بن إبراهيم»[140]، وكفى بذلك شرفاً وفضلاً.

الوجه السادس: اعترافُ امرأة العزيز نفسِها بعصمته وعفّته أمام جمع من نسوةِ المدينة ، كما قال تعالى:
﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَـلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِـكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَـرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ * ﴾ [يوسف: 31 ـ 32].

---

139 النبوة والأنبياء ص (85).

140 البخاري (3382).





فهذه شهادةٌ صريحةٌ واضحةٌ على عِفّة يوسف وبراءته ، صدرت من امرأة العزيز نفسها ، التي اتهمته أمام زوجها بإرادة عمل الفاحشــة ، ولفظ يدل على الامتناع ﴿ فَاسْـتَعْصَـمَ﴾ ، والتحقّظ الشـديد ، كأنّه في عصـمةٍ من الأمر ، وهو يجتهد في الاستزادة منها ، وهذا بيانٌ على أنَّ يوسف عليه السلام بريءٌ ممّا فسر به بعضُ الناس الهمَّ والبرهان.

الوجه الســابع: ظهورُ أماراتِ البراءة على يوســف عليه الســلام بالدلائل الواضــحة ، والبراهين الســاطعة ، أمام جميع الشـهود ، ومع ذلك فقد أقدم عزيزُ مصرَ على سجنه ، إيهاماً للناس ، وسـتراً على زوجته ، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيات لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ *﴾ [يوسف : 35].

الوجه الثامن: اسـتجابةُ الله عزّ وجلّ لدعوة يوسـف حين طلب من ربّه أن يصـرفَ عنه كيدهن ومكرهن الخبيث به ، ولو كانت له رغبةٌ في مطاوعة زوجة العزيز لما طلبَ من الله أن يصــــرِفَ عنه كيدهنّ ، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *﴾ [يوسف : 34].

الوجه التاســع: عدم قبول يوســف الخروجَ من الســجن حتى تظهرَ براءته أمامَ الناس جميعاً ، وذلك يدلُّ على منتهى شـهامته وعفته ونزاهته ، ولولا ذلك لما فضـل البقاء في السـجن بعد أن مكث فيه سبعَ أو تسعَ سنوات ، ولاقى فيه الشــدائدَ ، فلم يقبل الخروجَ من الســجن حتى يقرَّ الجميعُ ببراءته ، وتتنزّه ســاحتُه من تلك التهم الشــنيعة: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُـولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْـأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْـوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ *﴾ [يوسف : 50].

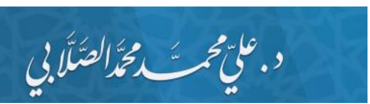
الوجه العاشـر: وأخيراً الاعترافُ الواضـح الصـريحُ من النسـوة ومن امرأة العزيز التي اتهمته بنفسـها ، وذلك لا يدعُ ذرةً من شـك في براءة يوسـف ونزاهته وعصـمته ممّا نُسِـبَ إليه ، وذلك حين جمعَ الملك النسـوة ، وسـألهن عن يوسـف الصديق ، فأجبنه بجوابٍ صريحٍ قاطع ، قال تعالى: ﴿ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ *﴾ [يوسف : 51 ـ 52][141].

هـ يونس عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِـبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُـبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ *فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [الانبياء : 87 ـ 88] وقد سُمّيَ يونُسُ (ذا النون) كما سُمِّي (صاحبَ الحوت) في قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم : 48] ، لأنه عاش في بطن الحوت فترةً ، وبقى فيها حياً بإذن الله.

---

[141] النبوة والأنبياء ص (88).





واللطيفُ أنَّ القرآن اعتبرها صــحبةً بين يونسَ والحوت! وكأنَّ الحوتَ عندما ابتلعَ يونس عليه الســلام كان صــاحِباً مســاعِداً له ، ابتلعه لحِرْصــهِ وإشــفاقه عليه ، لأنّه خافَ أن تأكله باقي الحيتان والأسماك ، فأنقذه منهم بابتلاعه ، بهدف حمايته ، لا بهدفِ أكله ، ولهذا صارت بينهما صحبة[142].

وقد أخبرنا الله أنّ ذا النون عليه السلام ذهبَ مغاضباً ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ ، و: اسمُ ﴿ مُغَاضِبًا﴾ ، فعله الماضي رُباعي (غاضَبَ) والألف في الفعل ألفُ مفاعلة ، تدل على المشاركة.

والمشاركة تدل على أنّ الغضبَ كان بين الطرفين: الطرف الأول هو يونس عليه السلام ، لكنْ مَنْ هو الطرفُ الثاني؟ ذهب ناقلو الإسـرائيليات إلى أنَّ الطرف الثاني هو الله سـبحانه ، أي يونس عليه الســلام غادرَ قومه ، وذهبَ عنهم مغاضباً لربّه ، قالت الإسرائيليات: غضب يونس من ربه ، لأنه لم يوقع العذابَ على قومه خلال ثلاثة أيام ، ممّا جعله يبدو أمامهم كاذباً ، وغضبَ الله منه ، لأنّه غادرهم بدون إذن منه ، وهذا فعلٌ لا يجوز أن يصدرَ عن مسلمٍ صالح ، فكيف يصدرُ عن نبي كريم؟

لقد كانت المغاضبةُ بين يونس عليه السلام وبين قومه الكافرين: غضـب هو منهم ، لأنّهم رفضوا دعوته ، وأصرّوا على الكفر ، وغضبوا هم منه ، لأنه أنذرهم العذاب ، وأخبرهم أنّه سيقع بهم بعد ثلاثة أيام[143].

فالمغاضبةُ كانت لقومه ، والمعاتبة كانت لعدم الصبر ، ولخروجه من بين قومه بغير إذنٍ من الله ، ولهذا أمرَ اللهُ رسولَه الكريم (ﷺ) أن يصـبرَ على تكذيبِ المشـركين ، وألا يكونَ ضـيّقَ الصـدر ، قليلَ الصـبرِ ، كما كان شـأنُ يونس عليه السلام مع قومه ، حيث ضربه الله تعالى مثلاً فقال عز ومن قائل: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ *لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ *فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ *﴾ [القلم : 48 ـ 50].

وقوله تعالى: جواب ومعلوم أن في اللغة العربية هي حرف امتناع ﴿ ﴾ ، أي إنّها تفيدُ امتناعَ الجوابِ لوجود الشرط.

ومعنى الآية الكريمة: لولا أنّ الله أنعم عليه بإجابة دعائه ، وقبول عذره ، لنبذ من بطن الحوت أي: الفضـــاء وهو مذموم أي: معاتَبٌ ﴿ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ *﴾ ، لكنّه رُحِمَ فنبذَ غيرَ مذموم[144].

[142] مواقف الأنبياء في القران ص (349).

[143] المصدر نفسه ص (350).

[144] النبوة والأنبياء ص (91).



وأما معنى قوله تعالى: ظنّ يونس أن الله لن يضـــيّق عليه بإبقائه عند هؤلاء ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ ، المنتظرين للعذاب ، وسيوجّهه إلى قوم اخرين يدعوهم إلى الله.

فالتقدير هنا: التضييقُ ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ : 11] أي: ضيق في الدرع لتكونَ الفتحةُ على قدر المسمار.

عن ابن عباس رضـي الله عنهما قال: أرسـل لي معاويةُ بن أبي سـفيان رضـي الله عنه ، فقال لي: لقد ضـربتني أمواجُ القرآن. قلت: بماذا؟ قال: في قوله تعالى: ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ﴾ ، أيظنُّ عبدٌ من عبيدِ الله أنَّ اللهَ لا يقدِرُ عليه ، فضلاً عن نبيٍّ من الأنبياء؟ قلت له: ليس ذلك من القُدْرَةِ ، إنّما ذلك من التقدير بمعنى التضييق ، قال تعالى: ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي ضـيق عليه رزقه. والذي فعله يونس عليه السـلام خلافُ الأولى ، وعَمِلَ ما يسـتحق عليه اللوم من الله ، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ *﴾ [الصافات : 142].

وفرقٌ بين اللوم والعقاب: العقاب يكونُ عن وقوع في ذنب ، بترك واجب ، أو فعل حرام ، أمّا اللومُ فإنه يكون عن فعل خلافِ الأولى ، مع جواز ذلك الفعل ، لامَ الله يونُسَ ، لأنه فعل خلافَ الأولى ، وقدّر له أن يَمُرَّ بتلك المحنة الشديدة.

وكانت المحنةُ الأولى ابتلاءً من الله له ، والابتلاءُ لا يكونُ بســـبب الذنوب دائماً ، فقد يكونُ بهدف رفع درجات المبتلى عند الله ، ومن هذا الباب ابتلاءُ الأنبياء ، كما كانت محنةُ يونس عليه السلام درساً وعبرةً للمؤمنين من بعده ، وأخبرنا الله عنها في القرآن ، لنقف عندها متدبّرين ، ونأخذَ منها العبرة والعظة ، ونأخذ منها دروســـاً في العقيدة والإيمان والإقبال على الله ، واللجوء إليه ، والاعتماد عليه عند المحن والمصائب والابتلاءات[145].

وصف يونس عليه السلام نفسه بالظلم:

عندما وجد يونُسُ نفسَه في الظلمات ، أقبل على الله ، ذاكراً مسبّحاً ، داعياً متضرّعاً ، وكان تسبيحُه ودعاؤه سبباً لنجاته ، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَـــبِّحِينَ *لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *﴾ [الصـــافات : 143 . 144].

أي: سبب نجاته أن سبّح الله في بطن الحوت ، ولو لم يسبّحِ اللهَ لهضمه الحوتُ ، وحوله إلى غذاءٍ له ، قال تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُـبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ *﴾ [الانبياء : 87] ، وفي وَصْـفِ يونسَ عليه السـلام لنفسِـه بالظلم . هذا معناه أنّ يونس عليه السـلام

[145] مواقف الأنبياء في القران ص (351 ، 352).

أدركَ وهو في بطن الحوت أنّه تسـرّع بالخروج من ﴿ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ *﴾ ، قبل توجيه الله له ، وأنّ الله عاتبٌ عليه ، ولامه من أجل ذلك ، وقدّر أن يوقع به هذا البلاء ، ويمتحنه بهذه المحنة ، وعند ذلك انطلق لسـانُه بأنه كان ظالماً في فعله وتصـرفه وخروجه ، وطلب من الله أن يتجاوزَ عن ظلمه ، وهذا من بابِ شعوره بالتقصير في حق الله ، وحيائه من الله ، وطلبه تفريج الهم والكرب والضيق ، فهذا الاعترافُ منه من بابِ ذكره لله وتوسله إليه[146].

و . عصمة النبي (ﷺ):

أدلة عصمته (ﷺ):

دلّتْ نصوصُ القرآن والسنة على عصمة نبينا محمد (ﷺ) في تبليغ شرع الله إلى الخلق.

وقد عُرِّفت عصـمة النبيّ بأنها: لطفٌ من الله تعالى يحمِلُ النَبيَّ على فعلِ الخير، ويزجُرُه عن الشـرِّ ، مع بقاءِ الاختيار تحقيقاً للابتلاء[147].

1 . فمن القرآن الكريم:

أ ـ قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى *﴾ [النجم : 3 ـ 4] فالآية نصٌّ في عصمة لسانه (ﷺ) من كل هوى وغرض ، فهو لا ينطق إلا بما يوحى إليه من ربه ولا يقول إلا ما أُمر به ، فيبلّغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان ، وهذه الآية شهادةٌ وتزكيةٌ من الله لنبيه ورسوله محمد (ﷺ) في كل ما بلغه للناس من شرع الله.

ب ــ وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ *لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ *ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ *فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ *﴾ [الحاقة : 44 . 47].

فالآيات نصّت على أنّ الله سبحانه وتعالى لا يؤيّدُ من يكذِبُ عليه ، بل لابد أن يظهر كذبه ، وأن ينتقم منه ، ولو كان محمد (ﷺ) من هذا الجنس ، كما ما يزعمُ الكافرون فيما حكاه الله عنهم: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الشـورى : 24] لأنزل الله به من العقوبة ما ذكره في هذه الآيات ، وحيث إنّ الرسـول (ﷺ) لم يقع له شـيء من ذلك ، فلم يهلكه الله ، ولم يعذبه ، فهو على هذا لم يتقوّل على الله ما لم يقله ، ولم يفتر شـيئاً من عند نفسـه ، وبهذا ثبتتْ عصمتُه في كلِّ ما بلّغه عن ربه عز وجل[148].

[146] المصدر نفسه ص (355).

[147] مواقف الأنبياء ص (356 . 357).

[148] نسيم الرياض في شرح الشفا . للقاضي عياض ، للخفاجي (4/39).



قال ابن كثير بعد أن فسّر هذه الآيات: والمعنى في هذا أنّــــه صادقٌ راشدٌ ، لأنّ الله عزّ وجلّ مقرٌّ له ما يبلّغه عنه ، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات[149].

ج ـــــ وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً *ولَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً *إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا *﴾ [الاسراء : 73 ـ 75].

فقد أخبر تعالى عن تأييده لرسوله (ﷺ) ، وتثبيته وعصمته ، وسلامته من شر الأشرار ، وكيد الفجار ، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصــره ، وأنّه لا يكله إلى أحدٍ من خلقه ، بل هو وليه وحافظه ، وناصــره ومؤيده ، ومظهره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها[150].

2 ـ من السنة النبوية:

أ ـــ حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، وجاء فيه قوله (ﷺ): «ولكن إذا حدثتُكم عنِ اللهِ شيئاً فخُذُوا به ، فإنّي لنْ أكذبَ على الله»[151].

ب ـ حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله (ﷺ) أريدُ حفظَه ، فنهتني قريشٌ ، فقالوا: إنك تكتبُ كلَّ شيءٍ تسمعه من رسول الله (ﷺ) ، ورسولُ الله (ﷺ) بشرٌ يتكلّم في الغضبِ والرضا ، فأمسكتُ عن الكتابِ ، فذكرتُ ذلك لرسول الله (ﷺ) فقال: «أكتب فوالذي نفسي بيده ما خرجَ منّي إلا حقٌّ»[152].

ج ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «إنّي لا أقولُ إلا حقّاً» قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله. قال: «إني لا أقول إلا حقاً»[153].

149 حقوق النبي على أمته (130/1).

150 المصدر نفسه (131/1).

151 تفسير ابن كثير (417/4).

152 المصدر نفسه (53/3).

153 مسلم (95/7).



- عصمته (ﷺ) قبل مبعثه:

دلت النصوص الثابتةُ على أنّ النبيَّ (ﷺ) معصومٌ من الكفر والشرك منذ نشأته ، فلم يُعْهَدْ عنه (ﷺ) أنه سجد لصنم ، أو استلمه ، أو غير ذلك من أمور الشرك التي كان يفعلُها قومُه ، فقد فطره الله على معرفته ، والاتجاه إليه وحده ، وهذا هو المعلومُ من سيرته ، فمن النصوص التي يُسْتَدَلّ بها على هذا الأمر ما يلي:

حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله (ﷺ) أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه ، فاستخرج القلبَ ، فاستخرجَ منه علقةً ، فقال: «هذا حظُّ الشيطانِ منك» ثم غسله في طِسْتٍ من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يَسْعَوْنَ إلى أمه ـ يعني ظِئْرَه ـ[154] ، فقالوا: إنَّ محمداً قد قُتِلَ ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون ، قال أنس: وقد كنتُ أرى أثرَ ذلك المخيطِ في صدره[155].

فالحديث نصَّ على إخراجِ جبريل لحظِّ الشيطان منه (ﷺ) وتطهيره لقلبه ، فلا يقدرُ الشيطانُ على إغوائه ، إذ لا سبيل له عليه ، وهذا دليلٌ على تنزيهه من الشرك منذ صغره (ﷺ)[156].

والنصوص في مثل هذا كثيرةٌ ، وقد عُني بجمعها مَنْ ألّف في (دلائل النبوة) مثل الحافظ أبي نُعيم الأصفهاني ، فقد عقد فصلاً في كتابه (دلائل النبوة) بعنوان: ذكر ما خصّه الله عزّ وجل به من العصمةِ ، وحماه من التديّن بدينِ الجاهلية.. وقد أورد تحت هذا العنوان العديدَ من الأحاديث والشواهد في هذا الشأن[157].

وكذلك فعل البيهقي في (دلائل النبوة) أيضاً فعقد عنواناً لهذا الموضوع فقال: باب ما جاء في حفظ الله تعالى رسولَه (ﷺ) في شبيبته عن أقذار الجاهلية ومعايبها لما يريده به من كرامته برسالته حتى يبعث رسولاً[158].

ومثلهما السيوطي في (الخصائص الكبرى) حيث قال: باب اختصاصه (ﷺ) بحفظ الله إياه في شبابه عمّا كان عليه أهل الجاهلية[159].

---

[154] ظئره: أي مرضعته حليمة السعدية.

[155] مسلم (1/101 ، 102).

[156] حقوق النبي على أمته (1/134).

[157] دلائل النبوة ، للأصفهاني ص (143 ـ 147).

[158] دلائل النبوة ، للبيهقي (2/30 ـ 42).

[159] الخصائص الكبرى ، للسيوطي (1/148 ، 152).



- إزالة ما يوهم عدم إيمان نبينا وضلاله قبل بعثته:

وردت بعضُ النصـوص التي قد يتوهّمُ منها البعضُ أنَّ رسـول الله (ﷺ) كان على كفرٍ وضـلالٍ قبل بعثته ، فمن تلك النصوص:

أ . قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾ [الشورى : 52].

فقد يتوهّمُ البعضُ أنّ هذه الآية تعني انتفاء معرفة النبي (ﷺ) للإيمان بالكلية قبل بعثته ، بمعنى أنّه لم يكن مؤمناً.

والجواب على ذلك أنّ هذا الفهمَ خاطئٌ ، لأنّ الإيمان في قوله: ﴿ وَلاَ﴾ مصدرٌ بمعنى ﴿ الإِيمَانُ﴾ ، فيكون المراد: أي ما يجبُ الإيمانُ به من الفرائض والأحكام الشـرعية التي كُلّف بها علماً وعملاً ، فالمنفي هو الإيمان التفصـيلي لا الإجمالي ، فقد كان النبيُّ (ﷺ) قبل نزول الوحي إليه مبغِضـاً للشـرك وعبادةِ الأصـنام ، ومتّجهاً إلى الله وحده ، فلما نزلت عليه الفرائض والأحكام الشـرعية التي لم يكن يدري بها قبل الوحي امن بها وطبقها ، فهذا هو المعنى الصـحيح للاية ، كما ذكر ذلك علماءُ التفسير عند تفسيرها[160]، قال ابن كثير:
على التفصيل الذي شرع لك في القرآن قال الشوكاني: ومعنى أنه كان (ﷺ) ﴿ وَلاَ الإِيمَانُ﴾ يعرِفُ تفاصيل الشرائع ، ولا يهتدي إلى معالمها ، وخَصَّ الإيمان لأنه رأسها وأساسها[161].

ب . ومن النصوص كذلك قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَى *﴾ [الضحى : 7].
فقد يتوهّم البعضُ أنّ الآية تعني أنّ نبينا (ﷺ) كان على ضــلال قبل مبعثه ، وهذا فهمٌ خاطأى ، وباطلٌ تردّه النصـوص التي سبق إيرادها ، والتي نصّت على أنّ النبيَّ (ﷺ) كان من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصـوماً من عبادة الأوثان ، وقاذوراتِ أهل الفسق والعصيان[162].

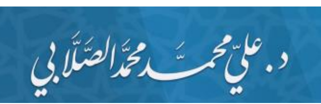
وقد أشار القرطبيُّ عند تفسيره لهذه الآية إلى بطلان هذا الفهم حيث قال: فأمَّا الشرك فلا يُظنُّ به[163].

160 حقوق النبي على أمته (140/1).

161 تفسير ابن كثير (122/4).

162 فتح القدير (530/4).

163 تفسير القرطبي (99/20).



وأمّا المعنى الصحيح لهذه الآية فقد أشار العلماء إلى عِدّةِ معانٍ صحيحة لهذه الآية تشترك جميعاً في تنزيه النبيّ (ﷺ) عن أن يُنْسَبَ إليه شيءٌ من الشرك ، أو الكفرِ قبل بعثته ، ومن تلك المعاني ما يلي:

أن يفسَّر الضلالُ هنا بمعنى الغَفْلةِ ،كما في قوله تعالى: ﴿ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى *﴾ [طه : 52] وكما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ *﴾ [يوسف : 3]. والمعنى أنّه وجدك غافلاً عما يُرادُ بك من أمر النبوة[164].

وقال بعضُهم: معنى (ضالاً) لم تكن تدري ما القرآن والشرائع؟ فهداك الله إلى القرآن وشرائعِ الإسلام ، وهو بمعنى قوله تعالى: وعلى هذا التفسير يكون المعنى: أي وجدك ضالاً عن شريعتك التي أوحاها ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾ ، لا تعرفها قبل الوحي إليك فهداك إليها[165]وقال بعضهم: معنى الآية أي وجدك في قوم ضُلاّل فهداهم الله بك[166].

ولقد أورد العلماء عدداً من المعاني لهذه الآية منها ما هو معنوي ، ومنها ما هو حسي، وهي معانٍ كلها حسان[167].

ومن النصوص كذلك قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القرآن وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ *﴾ [يوسف : 3].

فليس المقصودُ بالغفلة هنا الشرك والغواية ، إنّما المقصودُ منها الغفلة عن قصة يوسف مع أبيه وإخوته ، كما يوضّحُ ذلك سياقُ الآية ، فهذه القصة وأمثالها لا تُعْلَمُ إلا من الوحي ، فلهذا لا يلحقه نقصٌ بسببها ، وهذا هو ما ذكره علماء التفسير عند هذه الآية[168]، قال الشوكاني: والمعنى أنك قبل إيحائنا إليك من الغافلين عن هذه القصة[169].

- عصمته من الكذب في غير الوحي والتبليغ:

من المعروف عن سيرته (ﷺ) قبل البعثة وبعدها أنه متّصفٌ بكل خُلُقٍ فاضلٍ من صدقٍ ، وأمانةٍ ، وبرٍّ ، وصلة رحم ، وإحسان ، وجودٍ ، إلى غير ذلك من محاسن الأخلاق ، التي جبله الله عليها منذ نشأته ، وحرى به (ﷺ) أن يكون كذلك ، فقد اختاره الله لحمل الأمانة العظمى التي هي أداءُ الرسالة ، وتبليغُها إلى الناس كافةً ، فكان لابدّ من إعداده لهذه المهمة ، ولذا فقد فطره الله على كلِّ خُلقٍ فاضل كريم ، وقد جمع الله خصال الخير كلها ، فلم يكن يُدْعَى إلا بالأمين.

---

164 تفسير القرطبي (96/20) ، فتح القدير (458/5).

165 تفسير القرطبي (96/20 ، 97)

166 فتح القدير (458/5) ، تفسير القرطبي (97/20).

167 المصدر نفسه (97/20) بتصرف حقوق النبي على أمته (142/1).

168 حقوق النبي على أمته (142/1).

169 فتح القدير (4/3).

ومن الأدلة التي يستدل بها على اتصافه بالصدق قبل بعثته ما يلي:

أ ـــ قول خديجة بنت خويلد: رضي الله عنها حينما أتاها النبيُّ (ﷺ) خائفاً بعد أن لقيه جبريل في غار حراء ، وقال لها: «إني قد خشيتُ على نفسي» فقالت له: كلا ، أبشرْ ، فواللهِ لا يخزيك اللهُ أبداً ، فواللهِ إنك لتصلُ الرحمَ ، وتصدقُ الحديثَ ، وتحمِلُ الكَلَّ ، وتُكْسِبُ المعدومَ ، وتقريَ الضيفَ ، وتعينُ على نوائب الحق[170].

ب ـ إجماع قريش على الإقرار بصدقه: حينما جمعها ليصدعَ بالدعوة جهراً ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ *﴾ [الشعراء : 214] صعد النبي (ﷺ) على الصفا ، فجعل ينادي: يا بني فِهْرٍ ، يا بني عدي ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا ، فجعل الرجلُ إذا لم يستطعَ أن يخرجَ أرسلَ رسولاً لينظرَ ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتُكم أنّ خيلاً بالوادي تريدُ أن تغيرَ عليكم أكنتم مصدّقِيَّ؟» قالوا: ما جربنا عليك إلا صِدْقاً ، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[171].

فالشاهد من الحديث قولهم: (ما جربنا عليك إلا صدقاً) فالنبيُّ (ﷺ) انتزع منهم هذه الشهادة الجماعية بصدقه ، وانتفاء الكذب عنه ، لعلمه بما قد سيقع من تكذيبهم له عند إخبارهم بأمر الرسالة[172].

على الرغم من تكذيب قريش للنبيّ (ﷺ) في دعوة النبوة ، إلا أنّ أحداً منهم لم يجرؤ على وصفه بالكذب في سواها، فقد قال أبو جهل للنبي (ﷺ): إنّا لا نكذّبك ، ولكن نكذِّبُ الذي جئتَ به ، فأنزل الله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ *﴾ [الانعام : 33].

وكذلك عندما سأل الأخنسُ بن شُريقٍ أبا جهلٍ بعدما خلا به يومَ بدرٍ ، فقال: يا أبا الحكم ، أخبرني عن محمّدٍ أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا أحدٌ من قريش غيري وغيرك يسمع كلامنا ، فقال أبو جهل: ويحك ، والله إنَّ محمداً لصادقٌ ، وما كذبَ محمّدٌ قط ، ولكن إذا ذهبَ بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة ، فماذا يكون لسائر قريش[173]. هذه بعضُ النماذج التي تدلُّ على صدقه (ﷺ) ، وعصمته من الكذب قبل بعثته ، وكذا الحال بعد بعثته (ﷺ) ، فهذه أخبار نبينا محمد (ﷺ) وسيرته وشمائله معتنًى بها ، مستوفاة تفاصيلها ، لم يرد في شيء منها تداركه (ﷺ) لخبرٍ صدر منه رجوعاً عن كذبة كذبها ، ولو وقع شيء من ذلك لنقل إلينا[174].

---

[170] البخاري رقم (4953) ، فتح الباري (715/8).

[171] البخاري (4770).

[172] حقوق النبي على أمته (148/1).

[173] تفسير ابن كثير (130/2).

[174] حقوق النبي على أمته (150/2).



مسألة وقوع الخطأ منه:

أمّا ما يقعُ من الخطأ منه في جانب الأمور الدنيوية ، فمن الأدلة على ذلك حديثُ رافع بن خَدِيج رضـــي الله عنه قال: قدم نبيُّ الله (ﷺ) المدينةَ ، وهم يؤبّرون النخل (يلقحون النخل) فقال: «ما تصنعون؟» قالوا: كنا نصنعه. قال: «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً» فتركوه فنقصـت. قال: فذكروا ذلك له ، فقال: «إنّما أنا بشـرٌ إذا أمرتكم بشـيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيٍ ، فإنّما أنا بشر»[175].

وفي رواية أنس: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[176]، وفي رواية طلحة: «إن كان ينفعهم ذلك فليصـنعوه ، فإني إنما ظننت ظناً فلا تواخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فإني لا أكذب على الله عز وجل»[177].

وكذلك الأمر بالنسـبة للأحكام البشـرية الجارية على يديه وقضـاياهم ، ومعرفة المحق من المبطل ، وعلم المصـلح من المفسـد ، فهذه أمورٌ اجتهادية ، يجتهد فيها برأيه ، فقد قال رسـول الله (ﷺ): «إنّكم تختصـمون إليّ ، ولعلَّ بعضـكم أنْ يكونَ ألحنَ بحجته من بعض ، فأقضي له على نحو ما أسمع منه ، فمن قطعتُ له من حقّه أخيه شيئاً فلا يأخذْه ، فإنّما أقطعُ له به قطعة من النار»[178].

فاقتضـــت حكمته تعالى أن لا يكونَ معصـــوماً في هذا الجانب ، وذلك حتى تقتدي به الأمة من بعده في النظر في القضايا والأحكام على ما كان يقضي به بين الناس[179].

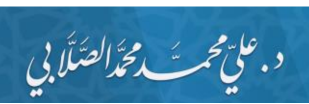
قال القاضــي عياض: وتجري أحكامه (ﷺ) على الظاهر وموجب غلبات الظن بشــهادة الشـاهد ، ويمين الحلف ، ومراعاة الأشبه ، ومعرفة العِفاص والوكاء ، مع مقتضى حكمة الله في ذلك[180].

خلاف الأولى والأحسن والأفضل:

الرسول (ﷺ) محفوظ بعناية الله ، محاط برعايته ، فلا يمكن أن تقعَ له مخالفة لأمر الله ، أو يرتكب ذنباً يستحقّ عليه العقوبة ، ولكنّه (ﷺ) قد يجتهدُ فيفعل خلافَ الأولى والأفضـل والأحسـن ، فيعاتبه ربه ، وليس هذا من قبيل الذنب والمعصية ، وإنما هو من قبيل التنبيه إلى فعل الأكمل والأفضل.

---

[175] مسلم (7/95).
[176] مسلم (7/95).
[177] مسلم (7/95).
[178] البخاري رقم (2680).
[179] حقوق النبي على أمته (2/159).
[180] الشفا (2/875).



وإليك بعضُ النصوص الكريمة التي ورد فيها العتابُ لرسول الله (ﷺ):

أ . عتاب رسول الله (ﷺ) بشأن أسرى بدر:

قال ابن عباس: ولما أسروا الأسرى ، قال رسول الله (ﷺ) لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟».

فقال أبو بكر: يا نبي الله ، هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذَ منهم فديةً ، فتكون لنا قوةً على الكفار ، فعسى اللهُ أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله (ﷺ): «ما ترى يا ابن الخطاب»؟ قلت: لا ، والله يا رسول الله ، ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكنّي أرى أن تمكنّا فنضربَ أعناقهم ، فتمكِّنَ علياً من عقيلٍ فيضربَ عنقه ، وتمكنُّني من فلانٍ (نسيباً لعمر) فأضربَ عنقه ، فإنّ هؤلاء أئمةُ الكفرِ وصناديدُه.

فهوى رسول الله ما قال أبو بكر ، ولم يهوَ ما قلتُ (يعني ما قاله عمر).
فلمّا كان من الغدِ جئتُ ، فإذا رسول الله (ﷺ) وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلت:
يا رسولَ الله ، أخبرني من أيِّ شيء تبكي أنتَ وصاحبُكَ ، فإنْ وجدتُ بكاءً بكيتُ ، وإن لم أجدْ تباكيتُ لبكائكما.

فقال رسول الله (ﷺ): «أبكي للذي عَرضَ عليّ أصحابُكَ من أخذهم الفداءَ ، لقد عُرِضَ عليّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة من نبي الله (ﷺ)) وأنزل الله عز وجل قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ ﴾ إلى قوله: فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ فأحلّ الله الغنيمةَ لهم ُ].

وفي رواية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يومُ بدرٍ ، وجيء بالأسرى ، قال رسول الله (ﷺ): «ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟».
فقال أبو بكر: يا رسول الله ، قومُكَ وأهلُكَ ، استبقهم ، واستأنِ بهم ، لعلّ الله أنْ يتوبَ عليهم.

وقال عمر: يا رسول الله ، كذّبوك وأخرجوك ، قرّبهم فاضربْ أعناقهم.
وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله ، انظر وادياً كثيرَ الحطب ، فأدخلهم فيه ، ثم أضرمْ عليهم ناراً.

قال: فقال العباس: قطعتَ رحِمَك. قال: فدخل رسول الله (ﷺ) ، ولم يردَّ عليهم شيئاً.

فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناسٌ: يأخذ بقول عمر ، وقال ناس: يأخذُ بقول عبد الله بن رواحة.

قال: فخرجَ عليهم رسول الله (ﷺ) فقال: «إنَّ الله ليُليّنُ قلوبَ رجالٍ فيه حتى تكونَ ألينَ من اللبن ، وإنّ الله ليُشَدِّدُ قلوب رجالٍ فيه حتى تكونَ أشــدَّ من الحجارة ، وإنَّ مثلكَ يا أبا بكر مثل إبراهيمَ عليه الســلام حيث قال: ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [ابراهيم : 36]. وإنّ مثلكَ يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال: ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [المائدة : 118] وإن مثلك يا عمرُ كمثل موسى ، قال: ﴿ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ *﴾ [يونس : 88].

ثم قال رسول الله (ﷺ): «أنتمُ اليومَ عالةً فلا ينفلتنَّ أحدٌ منهم إلا بفداءٍ أو ضربِ عُنُقٍ»[181].

وأما الآيات التي نزلت بشــأن الأســرى ، فقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْــرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَــبَقَ لَمَسَّــكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْــرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *﴾ [الانفال : 67 ـ 71].

لقد كان هذا العتاب توجيهاً من الله لرسوله (ﷺ) إلى الأفضل والأولى والأصحّ والأصوب لهم في تلك الحادثة[182].

والحقيقة أنّ التحذيرَ الواردَ هنا ، والدرسَ المرادَ تلقينه هو للمســلمين جميعاً ، أمّا بالنســبة لرســول الله (ﷺ) فهو لم يكن له من قبلُ ، ولن يكون له من بعدُ أيَّ ميلٍ للدنيا ، فهذا التحذيرُ موجَّهٌ للمسلمين في شخص الرسول (ﷺ) ، لكي يعتبروا ، ويستفيدوا من التوجيه الإلهي[183].

وما أجمل ما قاله ابن القيم حول هذه المسألة: وقد تكلّم الناسُ في أيّ الرأيين كان أصوب: فرجحتْ طائفةٌ قول أبي بكر ، لاســتقرار الأمر عليه ، وموافقته الكتاب الذي ســيق من الله بإحلال ذلك لهم ، ولموافقته الرحمة التي ســبقت الغضــبَ ، ولتشــبيه النبي (ﷺ) له في ذلك بإبراهيم وعيســى عليهما الســلام ، وتشــبيهه لعمر بنوح وموســى عليهما الســلام ، ولحصــول الخير العظيم الذي حصــل بإســلام أكثر أولئك الأســرى ، ولخروج من خرجَ من أصــلابهم من المسلمين ، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء ، ولموافقة رسول الله (ﷺ) لأبي بكر أولاً ، ولموافقة الله له اخراً ، حيث استقرّ الأمر على رأيه ، ولكمال نظر الصديق ، فإنه رأى ما يستقرّ عليه حكم الله اخراً ، وغلب جانب الرحمة على جانب العقوبة.

---

[181] مسلم رقم (1763).

[182] رواه أحمد رقم (3452).

[183] كتاب الرسول في القران ، ص (53).





قالوا: وأمّا بكاءُ النبيّ (ﷺ) ، فإنّما كان رحمةً لنزول العذاب بمن أراد بذلك عرض الدنيا ، ولم يُرد ذلك رسـول الله (ﷺ) ولا أبو بكر ، وإن أراده بعضُ الصحابة ، فالفتنةُ كانت تعُمّ ولا تصيبُ من أراد ذلك خاصة[184].

ب. إذنُ الرسول (ﷺ) المتخلّفين عن غزوة تبوك:

قال تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ *﴾ [التوبة : 43].

لما عزم رسول الله (ﷺ) إلى تبوك استأذنه بعضُ المنافقين في التخلّف ، لأعذار أبدوها ، فأذنَ لهم فيه لسببين:

أحدهما: أنّ الله لم يقدّم إليه في ذلك أمراً ولا نهياً.
ثانيهما: أنّه لم يرد أن يجبرهم على الخروج معه ، فقد يكون في خروجهم على غير إرادتهم ضررٌ.

فأنزل الله تعالى يبيّن له أنَّ تركَ الإذنِ لهم كان أولى ، لما يترتّب عليه من انكشافِ الصادقِ من الكاذبِ ، فيما أبدوه من الأعذار ، واستفتح ربُّ العزّةِ ما أنزله بجملةٍ دعائية هي قوله: على عادةِ العرب في استفتاح كلامهم بهذهِ ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ ، أو بقولهم: (غفر الله لك) ، أو (جعلت فداك) ، أو نحوها يقصدون تكريمَ المخاطب ، إذ كان عظيمَ القدر ، ولا يقصدون المعنى الوصفيَّ للجملة[185]، ولو بدأ ربُّ العزة حبيبه ومصطفاه بقوله: لخيفَ عليه أن ينشقَّ قلبُه من هيبة هذا ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ ، لكنّ الله تعالى برحمته أخبره بالعفو حتى سكن قلبه ، ثم قال له: بالتخلف حتى يتبيّنَ لك الصادقُ في عذره من الكاذب؟ وفي هذا بيانٌ لعظيم منزلته عند ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ ، مما لا يخفى على ذي لب.

ومن إكرامه إياه ، وبرّه به ، ما ينقطع دون معرفة غايته نياط القلب ، فليتأمّل كلُّ مسلمٍ هذه الملاطفةَ العجيبة في السؤال من ربِّ العالمين ، المنعم على الكلِّ ، المستغني عن الجميع ، ويستثير ما فيها من الفوائد ، وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب ، وهل سمعتم بمعاتبةٍ أحسنَ من هذا إن كان ثَمَّ عتبٌ ، وأنس العفو قبل ذكر الذنب إن كان ثَمَّ ذنب ، وهكذا في أثناء عتبه براءته ، وفي طيِّ تخويفه تأمينه وكرامته[186]، إن قوله تعالى: غايةٌ ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ يمكِنُ أن يدعى فيها أن تكون دالةً على أنه (ﷺ) ترك الأَوْلى والأفضل ، وقد بينتُ أنَّ ترك الأولى ليس بذنب[187].

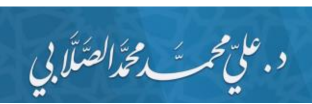
---

[184] العصمة النبوية ، ص (84).

[185] زاد المعاد ، لابن القيم (111/3).

[186] رد شبهات حول عصمة النبي ، د. عماد الشربيني ص (181).

[187] رد شبهات حول عصمة النبي ص (182).



ج ـ عتاب رسول الله (ﷺ) بشأن عبد الله بن أم مكتوم:

أجمع المفسرون والأخباريون على أنّ مطلع سورة (عبس) نزل عتاباً من الله لرسوله (ﷺ) لموقفه من الصحابي عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه ، ومطلعُ السورة النازلُ في تلك الحادثة هي قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى *أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى *وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى *أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى *أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى *فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى *وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى *وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى *وَهُوَ يَخْشَى *فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى *كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ *فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ *فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ *مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ *بِأَيْدِي سَفَرَةٍ *كِرَامٍ بَرَرَةٍ *﴾ [عبس : 1 ـ 16].

أتى عبدُ الله بن أم مكتوم النبيَّ (ﷺ) وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشـــام ، والعبّاس بن عبد المطلب ، وأبي بن خلف ، وأمية بن خلف ، ويدعوهم إلى الله تعالى ، ويرجو إسلامهم ، فقال له ابن أم مكتوم: يا رسول الله ، علّمني ممّا علمك الله ، وجعل يناديه ، ويكرّرُ النداء ، ولا يدري أنّه مشتغِلٌ مقبِلٌ على غيره ، حتى ظهرت الكراهيةُ في وجه رسول الله (ﷺ) لقطعه كلامه ، فعبسَ رسول الله (ﷺ) وأعرضَ عنه ، وأقبل على القوم الذين يكلّمهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات ، وكان رسول الله (ﷺ) بعدَ ذلك يكرِمُه ، وإذا راه يقول: «مرحباً بِمَنْ عاتبني فيه ربي»[188].

فأنتَ ترى من سـبب النزول أنَّ النبي (ﷺ) كان مشـغولاً مع رؤسـاء قريش ، وكان يحرصُ على دعوتهم ، لأنهم إذا أسلموا أسلم بإسلامهم الناسُ ، وقد جاءه هذا الأعمى في وقت كان (ﷺ) مشغولاً فيه ، فترك إجابته لما هو ـــ في نظره ـ أهمّ وأعظم ، فعاتبه الله على هذا ، وبيّن له ما هو الأفضل والأحسن[189].

د ـ ثبات الرسول (ﷺ) أمام مساومات الكفار:

إنّ الله هو الذي ثبّتَ الرســول (ﷺ) على الحقِ ، وجعله يواجه مســاوماتٍ وإغراءاتٍ وعروض الكافرين بمزيدٍ من الثبات ، وقد امتنَّ الله على رسوله (ﷺ) في تثبيته على الحق ، وأخبره أنه لولا فضله عليه بذلك التثبيت لاستجاب للمشــركين ، فقال له: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً *إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا *وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً *سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً *﴾[الإسراء: 73 ـ 77][190].

وقد أحسن محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره للايات فقال: ولولا أنْ عصمناك من الخطأ في الاجتهاد ، وأريناك أنّ مصلحة الشدّة في الدين ، والتنويه باتباعه ــ ولو كانوا من ضعفاء أهل الدنيا ــ لا تعارضُها مصلحةُ تأليفِ قلوب

[188] أسباب النزول ، للواحدي ص (254).

[189] النبوة والأنبياء (99).

[190] عتاب الرسول في القران ص (90).



المشركين ، فإنّ إظهارَ الهوادةِ في أمر الدّين تطمعُ المشركين في الترقي إلى سؤال ما هو أبعدُ مدًى مما سألوه ، فمصلحةُ ملازمةِ موقفِ الحزمِ معهم أرجحُ من مصـــلحةِ ملاينتهم وموافقتهم ، ولولا ذلك كله كدتَ تركنُ إليهم قليلاً ، أن تميلَ إليهم ، أي: تعدهم بالإجابة إلى بعض ما سـألوك ، استناداً لدليل مصـلحةٍ مرجوحةٍ واضـحةٍ ، وغفلة عن مصـلحة راجحةٍ خفيةٍ ، واغتراراً بخفة بعض ما سألوه في جانب عظيم ما وعدوا به من إيمانهم.

وركون الرسول (ﷺ) إليهم غيرُ واقع ، ولا مقاربُ الوقوع ، وقد نفته الآية بأربع أمور هي: (لولا) الامتناعية ، وفعل المقاربة (كاد) المقتضي أنه ما كان يقعُ الركون ، ولكن يقع الاقترابُ منه ، والتحقير المستفاد من كلمة (شيئاً) والتقليل المستفاد من كلمة (قليلاً) ، أي: لولا إفهامنا إياك وجه الحق لخيف أن تقتربَ من ركونٍ ضعيفٍ قليل ، ولكنَّ ذلك لم يقع ، ودخلت (قد) في حيّزِ الامتناع فأصـــبح تحقيقها ﴿ ولَوْلاَ﴾ ، أي: لولا أن ثبتناك لتحقق قربُ ميلك القليل ، ولكنّ ذلك لم يقع ، لأنّا ثبتناك[191].

لقد أخبر الله تعالى عن تأييده لرسوله (ﷺ) وتثبيته ، وعصمته وسلامته من شرّ الأشرار وكيدِ الفجار ، وأنّه تعالى هو المتولي أمره ونصــره ، وأنّه لا يكله إلى أحدٍ من خلقه ، بل هو وليُّه ، وحافظه ، وناصــره ، ومؤيده ، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها[192].

هــــ - قال تعالى: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ *﴾ [يونس : 94].

فهذه الآية الكريمةُ ليس فيها ما يدلُّ على شـــك الرســـول (ﷺ) في الوحي الذي نزل عليه ، وإنّما هو من باب (الفرض والتقدير) كما هو عادةُ العربِ في تقدير الشـــك ليبنَى عليه ما ينفي احتمال وقوعه ، كما تقول لابنك: (إن كنت ابني فلا تكن بخيلاً) ومعنى الآية على هذا التقدير: إنْ وقع منك يا محمد شكُّ ــــ فرضاً وتقديراً ــــ فيما قصصنا عليك من أخبار الأنبياء السابقين كنوحٍ وإبراهيمَ ، فسأل علماءُ أهل الكتاب الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ، فإنّهم على علم من ذلك ، فالغرضُ وصفُ الأحبار بالعلم ، لا وصفُ النبيّ بالشك والريب ، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه: لا واللهِ ما شكَّ رسول الله (ﷺ) طرفةَ عينٍ ، ولا سأل أحداً منهم[193].

و ــــ قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا *وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا *﴾ [الاحزاب : 1 ـ 2].

---

[191] تفسير ابن عاشور (15/175 ـ 176).

[192] النبوة والأنبياء ص (100).

[193] صحيح تفسير ابن كثير ، مصطفى العدوي (2/659).



فإنّ هذا النصّ الكريم ليس فيه ما يدلَّ على وقوع الذنب من الرســـول (ﷺ) ، وإنّما هو خطابٌ للأمة توجّه إلى القائد والزعيم في صـورة الخطاب له (ﷺ) ، والمراد به أمته ، كما يقول الملك لقائد جيشـه: (لا تتسـامحْ مع العدو ، وقاتلهم حتى يخضـــعوا لحكمك ، وينقادوا لأمرك ، ولا تقتل طفلاً ولا امرأة ولا شـــيخاً كبيراً ، ولا تُظْهِرْ أمام عدوك الخوفَ والفزعَ إلى اخر ما يأمر به) فهو يخاطب القائد ، والمراد به الجند ، وينبّه الزعيمَ ، والمرادُ به الأمة ، والدليل أنَّ المقصـود بالخطاب هو الأمة لا شـخص الرسـول (ﷺ) أنَّ الله تعالى ختم الآيات الكريمة بصـيغة الجمع: ولم يقل: بما ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا *﴾ ، فهو مثل قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَـــاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق : 1]. هي خطابٌ للأمة في شخص الرسول (ﷺ) ، وإذا حملنا الخطابَ على الرسول (ﷺ) فليس فيه ما يدلّ على أنّ الرسولَ (ﷺ) همّ بطاعة الكافرين والمنافقين ، أو فعل معصية حتى أمره الله تعالى بالتقوى ، وإنّما غايةُ ما في الأمر أنَّ الله تعالى حذّره من مكر الكافرين ، وخداع المنافقين ، وأطلعه على خبيئةِ نفوسهم ، ليكونَ الرسول (ﷺ) منهم على حذرٍ ، ولئلا ينخدع بمعسول كلامهم[194].

ز ـ أمر الرسول (ﷺ) بالبقاء مع المؤمنين المستضعفين:

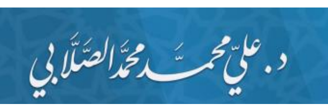
قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِـيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَـابِهِمْ مِنْ شَـيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ *﴾ [الانعام : 52].

ففي هذه الآية تحذيرٌ له (ﷺ) على إجابة كفّار قريش في طرد المؤمنين المســتضــعفين، وليس فيها ما يدلّ على أنّه طردهم فعلاً ، وإنّما هو عرضٌ عرضه المشركون على رسول الله (ﷺ) فجاء التنبيه من الله والتحذير من فعله.

روى مسـلم عن سـعد بن أبي وقاص رضـي الله عنه قال: كنا مع رسـول الله (ﷺ) سـتة نفر ، فقال المشـركون للنبي (ﷺ): اطرد هؤلاء ، لا يجترئون علينا ، قال: وكنتُ أنا وابن مســعود ، ورجل من هُذيل ، وبلال ، ورجلان لســتُ أسميهما ، فوقع في نفس رسول الله (ﷺ) ما شاء الله أن يقع ، فحدَّث نفسه ، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الانعام : 52][195].

وعن عبد الله بن مسـعود رضـي الله عنه قال: مرَّ الملأ من قريش برســول الله (ﷺ)، وعنده خبَّاب وصُـهيب وبلال وعمّار ، وغيرهم من ضُـعفاء المسـلمين ، فقالوا: يا محمد ، أرضـيتَ بهؤلاء من قومك؟ اطردهم فلعلّك إنْ طردتهم أن نتبعك ، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الانعام : 52][196].

[194] النبوة والأنبياء ص (101).
[195] مسلم (2413).
[196] تفسير ابن كثير (2/138. 139).



وبعدما نهى الله رسوله (ﷺ) عن الاستجابة لطلب المشركين بطرد المؤمنين أمره أن يكرمَ المؤمنين إكراماً اخر ، وذلك بأن يبادرهم بالسؤال عندما يجيئون إليه ، ويبشّرهم برضا الله عنهم ، ومغفرته لهم ، ورحمته بهم ، ليزدادوا عبادةً لله ، ونشاطاً في طاعته ، ويكثروا من التوبة والاستغفار ، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [الانعام : 54].

فالرسول (ﷺ) لم يرتكبْ خطأً ، لأنه لم يوافق الكفّار المشركين على طلبهم ، ولم يطرد المستضعفين من مجلسه ، وكل ما في الأمر أنّ نفسه حدَّثته بشيء ، ووقع في قلبه ما شاء الله أن يقع ، كما قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، ولعلّه مال إلى الموافقة على طلبهم لحرصه على إيمانهم ، ولكنّ الله تداركه ، فأنزل الله عليه الآيات

المذكورة من سورة الأنعام ، لتنهاه عن ذلك ، وأكّدها بايات من سورة الكهف ، قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا *﴾ [الكهف: 28] لقد شاء الله لرسول الله (ﷺ) الأفضل والأكمل وأرشده إليه ، فالتزامه (ﷺ) مقرّراً الميزان الرباني الصحيح في التكريم والتفضيل ، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات : 13].

وقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله (ﷺ) قال: «إن الله لا ينظرُ إلى صوركم وأموالِكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[197].

ح. زواج الرسول (ﷺ) بزينب بنت جحش رضي الله عنها:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الاحزاب : 37].
يحلو لبعض الناس أن يثيروا بعضَ الشبهات حولَ زواج النبي (ﷺ) بزينبَ رضي الله عنها ، التي كانت عند مولاه ومتبناه زيد بن حارثة ، وأن يقيموا زوبعةً من الزوابع الهوج حول عصمته (ﷺ) ، فقد زعموا أنّ محمداً رأى زينبَ فأحبها ، ثم كتم هذا الحبَّ ، ثم بعد ذلك أظهره ، ورَغِبَ في زينب ، فطلّقها زوجُها زيدٌ ، وتزوّجها رسول الله (ﷺ) ، وزعموا أنّ العتاب في الآية لكتمان هذا الحب.

وكذبوا بعضَ الأكاذيب الأثيمة ، فزعموا أنَّ النبي (ﷺ) مرَّ ببيت زيدٍ وهو غائبٌ ، فرأى زينبَ ، فوقع منها في قلبه شيءٌ ، فقال: سبحان مقلّب القلوب فسمعت زينبُ التسبيحةَ ، فنقلتها إلى زيدٍ ، فوقع في قلبه أن يطلّقها ،

[197] مسلم رقم (2564).

حتى يتزوّجَ بها الرسول (ﷺ) إلى غير ما هنالك من المزاعم الباطلة ، التي تلقّفها المستشرقون ومَنْ على شاكلتهم ، وأباحوا لأنفسهم الخوضَ في الأعراض ، والتكلّم في حق النبي الكريم (ﷺ) ، وتصويره بصورة يترفّع عنها كثيرٌ من الناس ، وكان سندهم في ذلك بعضَ الروايات الإسرائيلية ، التي دُسَّتْ في كتب التفسير، وهي رواياتٌ باطلةٌ لم يصحَّ منها شيء ، كما قال: (أبو بكر بن العربي)[198]:

فلا حجّة لمن ذهبَ هذا المذهبَ ، وفسَّرَ الآيات بما لا يليقُ بمنصب النبوة ولا بالعصمة من المتقدّمين من المفسرين، الذين اعتمدوا على روايات ضعيفة وأسانيد واهية ، اتخذت فيما بعد لضجيجٍ أهوج ، وصيحاتٍ هسترية ، تطعنُ في السنة النبوية وأهلِها من أعدائها ، وترمي بالنقيصةِ وعدم العصمةِ أكمل الناس خُلقاً وأحمدهم سيرة[199].

ولا حجَّةَ لهم في التعلّق بظاهر الآية ، ولا بالاراء التي قيلت في تأويلها ، ولا سند لها ، بل هي باطلةٌ لوجوه:

الوجه الأول: أنه ليس في الآية ما يدلُّ على أن رسول الله (ﷺ) صدر منه في هذه الواقعة مذمةٌ ، ولا عاتبه الله على شيءٍ منه ، ولا ذكر أنه عصى أو أخطأ ، ولا ذكرَ استغفار النبيّ (ﷺ) منه ، ولا أنه اعترفَ على نفسه مخطئاً ، وأنّه لو صدرت عنه زلةٌ لوجِدَ من ذلك شيء.

الوجه الثاني: أنه ذكر في القصة بصريح القرآن الكريم ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ [الاحزاب : 38]. ونُفي الحرج عن النبي (ﷺ) تصريحٌ بأنه لم يصدر منه ذنب البتة ، كما أنّ نفيَ الحرج ردٌّ على مَنْ توهّم من المنافقين نقصاً في تزوجه (ﷺ) امرأة زيدٍ مولاه ودعيّه الذي كان قد تبناه[200].

الوجه الثالث: أنه تعالى ذكر الحكمةَ والعلّةَ مِنْ زواجه (ﷺ) من زينبَ رضي الله عنها بقوله: ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَي لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الاحزاب : 37].

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا﴾ ، ولو حصل في ذلك سوءٌ لكان قدحاً في الله تعالى ، وهو ما يؤكد أنه لم يصدرْ منه (ﷺ) ذنبٌ البتة في هذه القصة.

الوجه الخامس: أنّه لو كان ما زعموه صحيحاً، لكان قوله (ﷺ) لزيدٍ كما حكى القرآن الكريم: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الاحزاب : 37] ، نفاقاً ، لأنّه أظهرَ بلسانه خلافَ ما يضمِرُه في نفسه ، لكنّ الله عزّ وجلّ عصم نبيّه (ﷺ) من ذلك.

[198] النبوة والأنبياء ص (106).
[199] رد شبهات حول عصمة النبي ص (195).
[200] رد شبهات حول عصمة النبي ص (197).



الوجه السادس: أنّ رسول الله (ﷺ) ، لم يكن يرى زينبَ للمرة الأولى ، فهي بنتُ عمته ، ولقد شاهدها منذُ ولدت ، وحتى أصبحت شابةً ، أي شاهدها مرّاتٍ عديدة ، فلم تكن رؤيته لها مفاجأةً ، كما تصوّرُ القصة الكاذبة ، ولو كان رسول الله (ﷺ) يحمِلُ أيَّ ميلٍ نحو زينب رضي الله عنها لتقدّم لزواجها ، وقد كان هذا أملُها وأملُ أخيها حين جاء (ﷺ) يخطبها منه ، فلمّا صـــرح لهما أنه يخطبها لزيد ، أبيا ، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الاحزاب : 36] ، فقالا: رضينا بأمر الله ورسوله ، وكانت هذه الآية توطئةً وتمهيداً لما ستقرّره الآيات التاليةُ لها من حكم شرعي يجبُ على المؤمنين الانضياعُ له ، وامتثالُه ، والعملُ به ، وتقبله بنفس راضية ، وقلب مطمئن وتسليم كامل.

الوجه السابع: أنّ ما أخفاه النبيُّ (ﷺ) وأبداه الله تعالى هو: أمرُهُ بزواج زينب ، ليبطلَ حكمَ التبنّي ، هذا ما صرّحت به الآية لا شيءَ اخر غيره ، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَي لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الاحزاب : 37].

فكيف يعدلون عن تصـريح القرآن الكريم إلى رواياتٍ لا زمامَ لها ولا خِطامَ ، وليس في هذا الإخفاءِ ما يعابُ عليه (ﷺ) أصلاً ، وإلاّ لكان ذنباً تجبُ منه التوبة؟ وليس في الآية الكريمة ما يشعِرُ بشيءٍ من ذلك ، وعليه فالإخفاء هو غايةُ العقل وعينُ الكمال ، لأنّ ذلك إنّما كان سِرّاً بينه وبين خالقه عزّ وجلّ ، لم يأمره بإذاعته قبل أوانه ، فكتمانه في الحقيقة ، قبل مجيء وقته هو الكمال الذي لا ينبغي غيره.

ويوضّحُ هذا ويبينه ما وقع منه في قصّة عائشة رضي الله عنها ، حين أتاه جبريل عليه السلام ، قبل أن يتزوّجها بأمدٍ بعيدٍ ، بصورتها على ثوب من حرير ، وقال له: هذه (امرأتك) ، وقد عرفها رسول الله (ﷺ) يقيناً ، ولم يشك في أنّها ستكونُ من أزواجه الطاهرات ، ومع ذلك فقد ترك هذا الأمرَ سرّاً مكتوماً بينه وبين ربه ، وقال: «إنْ يكُ هذا مِنْ عندِ اللهِ يُمْضِهِ»[201]. أي إنه من الله ولابدّ ، فلأتركه إلى أن يجيءَ وقته الموعود ، فلما جاء هذا الوقت أظهره الله تعالى، وتمَّ ما أراد عز وجل.

وهنا نصلُ إلى أصحِّ المحامل في قصّة زينب رضي الله عنها ، وهو أنّ الله تعالى قد أعلمَ نبيّه (ﷺ) أنها ستكونُ من أزواجه ، فلمّا شكاها له زيدٌ ، وشاوره في طلاقها ، ومفارقتها ، قال له على سبيل النصيحة والموعظة الخالصة: «أمسكْ عليكَ زوجَكَ ، واتّق الله» أي واتّق اللهَ في شكواك منها ، واتهامك لها بسوءِ الخُلق ، والترفع عليك ، لأنه شكا منها ذلك[202].

---

[201] فتح الباري ، لابن حجر (8/9).

[202] السنن الكبرى ، للبيهقي (138/7).



وأخفى رسول الله (ﷺ) في نفسه ما كان أعلمه الله به من أنّه سيتزوجها ، ممّا اللهُ مبديه ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها[203].

ويصحّحُ هذا قولُ المفسرين في قوله تعالى بعد هذا: أي: لابدّ أن ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً *﴾ ، ويوضّحُ هذا أيضاً أنّ الله تعالى لم يبدِ من أمره (ﷺ) معها غيرَ زواجه لها، فدلَّ على أنّه هو الذي أخفاه (ﷺ) ممّا كان أعلمه به ربه عز وجل.

وبهذا القول الذي تعطيه التلاوةُ من أنّ الذي أخفاه النبي (ﷺ):هو إعلامُ الله له أنّها ستكونُ لها زوجةٌ له بعد طلاقها من زيدٍ ، قال به جمهورُ السلف ، والمحققون من أهل التفسير والعلماء الراسخون كابن العربي والقرطبي[204]، والقاضي عياض[205]، والقسطلاني في (المواهب) والزُّرقاني في (شرحها)[206] ، وغيرهم ممن يعنون بفهم الآيات القرآنية وفقهها ، وتنزيه الرسل عمّا لا يليقُ بهم من الروايات البعيدة عن منطق الحق والواقع[207].

إنَّ النبيَّ (ﷺ) لم يقدّمْ خشيةَ الناس على خشية الله ، لأنَّ الله لم يكلّفه بعمل شيءٍ فتركه ولم ينفذه لأنَّه يخشى الناسَ ، ولما أمره الله بالزواج بزينب نفّذ أمرَ الله ، ولو لم يفعل ذلك خوفاً من كلام الناس ـــ وحاشاه أن يفعل ـــ لقيل: كان يخشى الناسَ أكثر من خشيته لله ، فلامه وعاتبه ، وقال له: عليك أن تخشى الله أكثر من خشيةِ الناس ، لأنّه أحق أن تخشاه[208].

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: لو كان محمّدٌ (ﷺ) كاتماً شيئاً مما أُنزل عليه لكتم هذه الآية:
﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وانعمت عليه أمسك عليك زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الاحزاب : 37][209].

وكان الحقّ هو أنّ هذا الزواجَ كان امتحاناً في أوله لزينب وأخيها ، حيث أُكرهتْ على قبولِ زيدٍ ، وفي النهاية كان امتحاناً قاسياً للنبي (ﷺ) حيث يؤمر به ، ويعلم نهايته ، وزينب تحت مولاه زيد ، والحكمة كما نطق القرآن هو تحطيمُ

---

[203] رد شبهات حول عصمة النبي (ص) ص (198).
[204] الجامع لأحكام القران (14/190 . 191).
[205] الشفا (2/191).
[206] شرح الزرقاني على المواهب ، نقلاً عن رد شبهات ص (199).
[207] رد شبهات حول عصمة النبي ص (199).
[208] عتاب الرسول في القران ص (118).
[209] مسلم (177).

مبدأً كان معمولاً به ، ومشهوراً عند العرب ، هو (تحريم زواج امرأة الابن من التبني) كتحريمها إذا كان الابنُ من النسب ﴿ لِكَي لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الاحزاب : 38][210].

وكان رســول الله (ﷺ) يعلمُ أنَّ زيداً وزينبَ لن يتفقا ، لأنَّ الله أخبره بذلك ، كما أخبره أنّه ســيتزوّجها هو بعد تطليق زيدٍ لها ، وكان يُخفي هذا الخبرَ في نفسه ، مع يقينه أنّ الله سيبديه ويظهره في حينه ، وسببُ إخفائه له أنه كان يخشـى ويتحرّج من كلام الناس ، وشـبهات المنافقين ، حيث سـيقولون: تزوَّج محمّدٌ امرأة ابنه ، وعليه (ﷺ) أنْ لا يخشى الناسَ ، لأن الله هو الأحقُّ أن تخشاه.

ولم يُخطأى رسول الله (ﷺ) في موقفــه ، ولم يفعلْ ما يعاتَبُ فيه أو يلامُ عليه ، ولذلك لم يفعل ما يعاتبه الله في قوله له: لأنه ليس فيه ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ يُلامُ عليه ، لأنّ الله لم يأمره أن يخبرَ الناسَ ، ويظهرَ لهم ما أخبره الله به ، من أنّه ســيتزوّج زينب بعد تطليقها رضــي الله عنها ، فتزوجها (ﷺ) ، لأنّ الله هو الذي أمره بذلك فما في الآية هو إخبارٌ من الله عن موقف النبيّ (ﷺ) من الحادثةِ ، وكان موقفه ســليماً صحيحاً والله أعلم[211].

ط . ما الذي حرمه الرسول (ﷺ) على نفسه لمرضاة أزواجه؟

قال تعالى: ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ *عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا *﴾ [التحريم : 1 ـ 5].

لهذه الآيات سببان للنزول ، ورداً في رواياتٍ صحيحةٍ:

السبب الأول: روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله (ﷺ) يمكثُ عند زينب بنت جحش ، ويشربُ عندها عسلاً ، وتواصيتُ أنا وحفصة أنّ أيَّتُنا دخلَ عليها النبي (ﷺ) فلتقل: إني أجدُ منك ريحَ مغافير ، أكلتَ مغافير[212]؟ فدخل على إحداهُما ، فقالت ذلك له ، فقال: «لا ، بل شربتُ عسلاً عند زينب بنت جحش ، ولن أعودَ له» فأنزل الله قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ﴾ إلى قوله: لعائشــة ﴿ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ ، ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ﴾ لقوله: ﴿ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ شربتُ عسلاً»[213].

---

[210] النبوة والأنبياء ص (108).

[211] عتاب الرسول في القران ص (122).

[212] المغافير: جمع مغفار من شجر صحراوي له شوك ، يسمى العرفط ، وهذا الصمغ حلوُ الطعم ، كريه اللون.

[213] البخاري رقم (5267) ، مسلم رقم (1474).



وفي لفظ اخر للبخاري ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت: كان رسول الله (ﷺ) يشربُ عسلاً عند زينب بنت جحش ، ويمكثُ عندها ، فواطأت أنا وحفصـــةُ أنّ أيّتُنا دخلَ عليها فلتقل له: أكلتَ مغافير؟ إنِّي أجدُ منك ريحَ مغافير. قال: «لا ، ولكنّي كنتُ أشربُ عسلاً عند زينب بنت جحش ، فلن أعود له ، وقد حلفتُ ، لا تخبري بذلك أحداً»[214].

ويبدو أنّ التي جرى بينها وبينه هذا الكلام هي حفصـــةُ ، ولكنّها لم تلتزم بقوله: «لا تخبري أحداً» حيث أخبرت شريكتَها في الحادثةِ عائشة بذلك ، ولعلَّ هدفها من إخبارها هو تبشيرها بنجاح خطتهما ، لإبعاد رسول الله (ﷺ) عن عَسَلِ زينب ، وليس لإفشاءِ سرِّ رسـول الله (ﷺ) ، فهاهو قد حلف يميناً عن ذلك ، فأنزل الله الآيات عتاباً للرسـول (ﷺ) على يمينه ، ودعاه إلى التكفير عنه ، وأخبره عن إفشـاء حفصـة كلامه لها ، والتفتتِ الآيات إلى لوم حفصة وعائشة رضي الله عنهما ، وتهديدهما

بالعقاب ، ودعوتهما إلى التوبة والاستغفار ، وإخبارِها أنّ الله وجبريل والمؤمنين معه[215].

السبب الثاني: مارية رضي الله عنها:

عن أنس بن مالك رضـي الله عنه قال: إنّ رسـول الله (ﷺ) كانت له أمةٌ يطؤها ، فلم تزل به عائشـة وحفصـة حتّى حرّمها ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَـــاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [التحريم : 1][216].

وروى الطبري عن زيدٍ بن أسلم: أنَّ رسول الله (ﷺ) أصابَ أمَّ إبراهيم في بيتِ بعضِ نسائه ، فقالت حفصة: أيْ رسـول الله في بيتي وعلى فراشـي؟ فجعلها عليه حراماً ، فقالت: يا رسـولَ الله ، كيف تحرّم عليك الحلالَ؟ فحلف لها باللهِ لا يصـــيبُها ، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَـــاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحريم: 1] .

أمُّ إبراهيم هي جاريتُه مارية القبطية ، التي أهداها له حاكم مصرَ المقوقس في السنة السـابعة من الهجرة ، وهي أمته وملك يمينه ، وقد أنجبت له ابنه إبراهيم عليه السلام ، الذي توفي وهو في السنة الثانية من عمره[217].

[214] البخاري رقم (4912).

[215] عتاب الرسول في القران ص (138).

[216] فتح الباري (288/9).

[217] تفسير الطبري (174/28).

وقد رجّح كثيرٌ من المفسرين قصّة حلفه على جاريته مارية ، مع أنّ قصة حلفه على العسل أصحُّ إسناداً.

ويمكن أن يجمع بينهما بالقول: إنَّ ما حدث أولاً هو تامر حفصة وعائشة رضي الله عنهما لما شربَ العسل في بيت زينب ، فقالت له حفصة: أكلتَ مغافير؟ فحلف لها ألا يعود إليه ، وأمرها ألا تخبر أحداً ، فخالفت وأخبرت حليفتها عائشة ، وبعد ذلك وطيء مارية في بيت حفصة أثناء غيابها ، ولما عادت وغضبت حلف ألا يطأ مارية لترضى حفصة، وطلب منها ألا تخبر أحداً ، فأخبرت عائشة ، وأنزل الله الآيات يعاتب الرسول (ﷺ) على يمينه ، وطلب منه أن يدفع الكفارة ، ويهدد أزواجه المخالفات بالعقاب[218].

* توجيه تحريم الرسول (ﷺ) الحلال:

نتوقّفُ الان لتوجيه موقف الرسول (ﷺ) واليمين الذي حلفه ، ونوع التحريم الذي حرّمه على نفسه ، والذي عاتبه عليه بقوله: ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ﴾.

وإذا كنا نعتقدُ أنّ التحليل والتحريم لله وحده ، وأنّه لا يجوزُ لأيِّ إنسان أن يحرّم ما أحلّ الله ، فكيف حرّم الرسولُ (ﷺ) ما أحلّ الله له؟ هناك معنيان للتحريم:

الأول: تحرم لغوي عام ، وهو بمعنى الامتناع ، فإذا امتنعَ إنسانٌ عن فعل شيءٍ ، قيل حرّم هذا الشيءَ عن نفسه.

والثاني: تحريمٌ شرعي خاص ، وهو أن يمتنعَ المسلمُ عن فعلِ شيءٍ ، لأنّ الله نهاه عنه ، وهدَّده بالعذاب إن هو فعله.

والامتناع عن فعل شيءٍ يُسمَّى تحريماً لغةً ، وهو ألا يكون امتناعاً شرعياً إلا إذا حرّمه الشرع ، وأمر بالامتناع عنه أو زعم الممتنِعُ عنه أنّ الشرع حرّمه.

وتحريم رسول الله (ﷺ) شربَ العسل على نفسه ، وتحريمه وطءَ جاريته من النوع الأول ، فهو تحريمٌ لغوي قائمٌ على معنى امتناعه من فعل الحلال المباح ، وليس من التحريم الشرعي ، لأنَّ الرسول (ﷺ) يقول: إن التحريم الشرعي حق الله ، وأنّه لا يجوزُ له تحريم شيء تحريماً شرعياً أباحه الله.

ومن التحريم بمعناه اللغوي القائم على الامتناع ، قوله تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام وهو طفيل رضيع ، التقطه ال فرعون: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ [القصص : 12]. والمعنى: أمر الله شفتي الطفل الرضيع موسى أن تمتنعَ في

218 عتاب الرسول في القران ص (138).

قبولِ ثدي أي امرأةٍ مرضـع ، فإذا وضـعت ثديها في فمه رفضَـه ، بحثاً عن ثدي أمه ، وانتظاراً لعودته إليها ، واعتبرت الآية هذا الامتناعَ تحريماً[219].

ومن هذا التحريم ما حرّمه نبيُّ الله إسـرائيل (يعقوب) عليه والسـلام على نفسـه ، والذي أخبرنا عنه قوله تعالى: ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *﴾ [آل عمران: 93].

إنّ يعقوب عليه السلام نبيٌّ ، يعلمُ أنَّ التحليل والتحريم لله وحده ، وهو لم يحرّمْ على نفسه شيئاً تحريماً شرعياً ، وإنّما حرّمه تحريماً لغوياً ، أي امتنع عن تناوله امتناعاً شخصياً.

والرسـول (ﷺ) امتنع عن شـرب العسـل ، وعن معاشـرة جاريته مارية ، امتناعاً شـخصـياً ، ليُرضـيَ بذلك حفصـة ، وليس امتناعه عن ذلك امتناعاً شـرعياً ، ولم يحرّم بذلك على نفسـه ما أباحه الله له بالمفهوم الشـرعي ، فهو يعتقدُ أنّه مازال مباحاً له ، ولكنّه امتنع عن فعل ذلك المباح ، واعتبرت الآية امتناعَ الرســول (ﷺ) عمّا امتنعَ عنه تحريماً ، لأنّه تحريمٌ بالمعنى اللغوي ، وهو الامتناعُ الشخصي عن بعض ما أباح الله له[220].

إنّ عتاب الله لرسوله (ﷺ) لا يعني أنّه وقع في ذنب أو زلة أو خطأ ، إنّما يعني أنّ الله يرشِدُه إلى ما هو أولى وأفضل ، فما فعله جائز ، لكنْ كان الأولى والأفضـل له أن لا يغفله ، وكان الأفضـلُ أن لا يحلف على ما حلف عليه ، والله يريدُ لرســوله (ﷺ) دائماً ما هو أولى وأكمل ، ولذلك عاتبه هذا العتابَ الرقيق ، الذي وعاه رســول الله (ﷺ) حقَّ الوعي[221] وقد كفّرَ رسول الله (ﷺ) عن يمينيه اللذين حلفهما ، وعاد إلى شرب العسل عند زينب ، وعاد إلى معاشرة جاريته[222].

ي. صلاة الرسول (ﷺ) على زعيم المنافقين:

كان عبد الله بن أُبي بن ســلول زعيماً للمنافقين ، وكان شــديدَ العداوة للرســول (ﷺ) ، لأنه يراه حرمه مُلكاً في المدينة، فقد كان زعيماً لقومه الخزرج قبل الهجرة ، وقد اتفق الأوسُ والخزرجُ على أن يتوّجوه ملكاً عليهم للقضـاء على خلافاتهم ونزاعاتهم ، وبينما كانوا يُعدّون لحفل تتويجه ملكاً عليهم شرحَ الله صدور فريقٍ منهم للإسلام ، فبايعوا الرسول (ﷺ) بيعةَ العقبةِ الأولى وبيعةَ العقبةِ الثانية ، ونتجَ عن ذلك هجرة الرســول (ﷺ) إلى المدينة ، وبذلك فاتت فرصـةُ

[219] المصدر نفسه ص (146).

[220] عتاب الرسول في القران ص (141 ، 142).

[221] عتاب الرسول في القران ص (147).

[222] المصدر نفسه ص (150).

الزعامةِ على عبد الله بن أبي ، فأكلَ الحقدُ قلبه على رسول الله (ﷺ) ، وصار يكيدُ له ، ويتامر عليه ، واستمرّ عبد الله بن أُبي مع المنافقين الذين معه في العداوة للمسلمين ، ورسم المكايد والمؤامرات ضدّهم ، من السنة الثانية حتى السنة التاسعة للهجرة[223].

وبعد عودة الرسول (ﷺ) من تبوك في السنة التاسعة من الهجرة مرض عبد الله بن أُبي مرضَ الموت ، وجاءه الرسول (ﷺ) يعودُه ، ولما توفي جاء ابنُه الصالح عبدُ الله إلى النبيّ (ﷺ) ، وأخبره بموت أبيه ، وطلب منه أن يعطيَه قميصَه ، ليكفّنه فيه ، فاستجابَ له رسول الله (ﷺ) ، وأعطاه قميصَه ، وكُفِّنَ عبدُ الله بن أُبي المنافقُ الكافرُ في قميص رسول الله (ص[224].

روى البخاريُّ ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: لما توفي عبدُ الله بن أبي ، جاء ابنُه إلى رسول الله (ﷺ) ، فقال: يا رسولَ اللهِ أعطني قميصَك اكفّنه فيه ، وصلِّ عليه ، واستغفرْ له ، فأعطاه النبيُّ (ﷺ) قميصه[225].

والسبب الذي حمل رسول الله (ﷺ) على أن يكفِّن المنافق الكافر بثوبه ، هو الردُّ على يدٍ كانت لابن أُبيٍّ عنده ، فقد روي البخاري عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما كان يومُ بدرٍ أتي بأسارى ، وأتي بالعباس ، ولم يكن عليه ثوبٌ ، فنظرَ النبيُّ (ﷺ) له قميصاً فوجدوا قميص عبدُ الله بن أُبي يقدر عليه ، فكساه النبي إيّاه ، فلذلك نزع النبي (ﷺ) قميصه الذي ألبسه قال ابن عُيينة: كانت له عند النبي (ﷺ) يدٌ ، فأحبَّ أن يكافئه[226].

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما ماتَ عبدُ الله بن أُبي ابن سلول ، دُعي رسول الله (ﷺ) ليصلّي عليه ، فلمّا قام رسول الله (ﷺ) وثبتُ إليه ، فقلتُ: يا رسول الله أتصلِّي على ابنِ أبي ، وقد قال يوم كذا وكذا وكذا؟ أعدّدُ عليه قوله فتبسم رسول الله (ﷺ) ، وقال: «أخِّر عنّي يا عمر»! فلمَّا أكثرتُ عليه: قال: «إنّي خُيِّرت ، فاخترتُ ، لو أعلمُ أنِّي إن زدتُ على السبعين يُغْفَرُ له لزدتُ عليها» فصلّى عليه رسول الله (ﷺ) ثم انصرفَ ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى أنزل الله عليه قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة : 84] ، فعجبتُ بعد ذلك من جُرأتي على رسول الله (ﷺ)[227].

فالنبيُّ (ﷺ) لم يُخطِىءْ في استغفاره لعبد الله بن أُبي زعيم المنافقين ، لأنّه فعل ذلك من باب فرط رحمته ورأفته وشفقته ، ولأنّ الله لم ينهه عن الاستغفار للمنافقين نهياً مباشراً صريحاً ، لأنّه فهم من الآية التخيير وليس النهي ، فاختار ما يتّفقُ مع رحمته ورأفته ، مع علمه أنّ الاستغفار لن ينفعهم ، لأنهم كافرون منافقون.

---

223 المصدر نفسه ص (68 ، 69).

224 عتاب الرسول في القران ص (75).

225 البخاري رقم (1269) ، مسلم (2774).

226 البخاري (4671).

227 البخاري (4671).



وأمّا صـــلاته على المنافقين ، والآية التي تنهى عن ذلك أنزلها الله عليه بعد صـــلاته وليس قبلها ، والآية التي كانت أنزلت قبل صلاته على ابن أُبي تحدّثت عن الاستغفار وليس الصلاة: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾

لقد فهم منها تخييرُ الله له بالاستغفار لهم أو تركه ، والصلاةُ من صور الاستغفار ، فصلاته على ابنِ أُبي وفقَ فهمه التخيير من تلك الآية ، وهو يختارُ المتفق مع رحمته ، وهو في صلاته مطبّقٌ لما فهمه من الآية ، ولا يُلامُ على اجتهاده، ولا على فعلٍ قام به ليس عنده فيه توجيه من الله ، ولما أنزل الله عليه ايةٌ ينهاه فيها عن الصلاة على المنافقين ، والقيام على قبورهم ، التزم بذلك التوجيه الرباني ، ولم يخالفه ، فإذا مات أحد المنافقين بعد ذلك لم يصـــلِّ عليه رســـول الله (ﷺ) ، ولم يمشِ في جنازته ، ولم يَقُمْ على قبره ، ملتزماً في ذلك بتوجيه الله له ، وقبل أن يُقْبَضَ (ﷺ) أخبر أمينَ سرّه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بأسماء المنافقين ، لئلا يصلَّى على أحدٍ منهم بعده[228].

بذلك يتبين لنا أنَّ كلّ الأنبياء معصـومون ، لأنهم مصـطَفَوْن من قبل العزيز الغفار ، لأداء مهمة الرسـالة ، والتي تحتاجُ لصفة العصمة في الأنبياء والمرسلين.

عاشراً. من اختلف في نبوتهم:

هناك أشـــخاص صـــالحون ، ورد ذكرهم في القرآن دون التصـــريح بكونهم أنبياء أو غير أنبياء ، فاختَلفَ في شـــأنهم العلماء ، وهم:

1 . لقمان:

لا يوجدُ دليلٌ على نبوة لقمان ، والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنّه اتاه الحكمة ، وذكر بعض ما يدلُّ على حكمته في وعظه لابنه[229] قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان : 12].

وذهب جمهور أهل العلم إلى أنّه كان حكيماً ، ولم يكن نبياً[230]، وحكى بعضـــهم اتفاقَ أهل العلم على ذلك ، فلم يعتد بخلافِ مَنْ خالف[231].

[228] عتاب الرسول في القران ص (76).

[229] منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة ، محمد كندو (1236/3).

[230] اراء بن حجر الهيتمي الاعتقادية ، محمد الشايع ص (428).

[231] شرح صحيح مسلم (144/2) ، تفسير البغوي (286/6).

2 . ذو القرنين وتبع:

جاء ذكر ذي القرنين في سورة الكهف: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88) قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (89) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (90) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا (93) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98)﴾ [الكهف : 83 . 98].

ومن ضمن هذه الآية قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا ياذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً *﴾ [الكهف : 86] فهل كان هذا الخطابُ بواسطة نبي كان معه ، أو كان هو نبياً؟.

جزم الفخر الرازي في تفسيره بأنّه كان نبياً ، كما نقله الحافظ في (الفتح)[232] وقال بعد ذلك: قد اختُلِفَ في ذي القرنين ، فقيل: كان نبياً كما تقدم ، وهذا مروي أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعليه ظاهرُ القرآن.

وذكر الحافظ في شأنه اثاراً كثيرة تدلُّ على كثرة الاختلاف فيه[233].

وعلى كل حال فإنَّ القولَ بعدم نبوته هو ما عليه جمهورٌ أهل العلم[234].

الأفضلُ أن يتوقَّفُ في إثبات النبوة لذي القرنين وتُبّع ، لأنه صحَّ عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «ما أدري أتّبع نبيّاً أم لا ، وما أدري ذي القرنين نبياً أم لا»؟[235] فإذا كان الرسول (ﷺ) لا يدري فنحن أحرى بألاّ ندري[236].

---

[232] فتح الباري (382/6).

[233] منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة (1237/3).

[234] تفسير البغوي (198/6) ، تفسير ابن عطية (538/3).

[235] رواه الحاكم والبيهقي ، انظر صحيح الجامع الصغير (121/5).

[236] الرسل والرسالات ص (22).



وورد ذكر تُبّعٍ في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ*﴾ [ق : 37] وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ *وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ *وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ *﴾ [ق : 12 . 14].

3 . الخضر:

لم يذكر اسم الخَضرِ في القرآن ، وإنما ذكرتْ فيه قصته مع نبي الله موسى عليهما الصلاة والسلام ، وصرّحت السنّةُ باسمه ، كما في حديث ابن عباس ، عن أُبي بن كعب عن النبيّ (ﷺ) في ذكر القصة[237].

وقد اختُلِفَ في نبوة الخضر ، والذي عليه أكثرُ أهل العلم أنّه نبيٌّ ، ثم اختلفوا: هل هو رسول أم لا؟ وقال القرطبي: هو نبيٌّ عند الجمهور ، والآية تشهَدُ بذلك[238]، قال طائفة: هو ولي[239].

والصحيحُ قولُ الجمهور بأنّه نبي لا ولي ، وقولُ مَنْ قال منهم بنبوته دون رسالته[240]، ويقول العلامة الألوسي: ... والمشهورُ ما عليه الجمهور ـــ يعني القولُ بنبوته ـــ وشواهِدُه من الآيات والأخبار كثيرة ، وبمجموعها يكادُ يحصل اليقين[241].

وسياق القصة يدلّ على نبوته من وجوه:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ﴾ ﴿ لَدُنَّا عِلْمًا *﴾ [الكهف: 65]. والأظهر أنّ هذه الرحمة هي رحمةُ النبوة ، وهذا العلمُ هو ما يوحَى إليه من قبل الوحي.

الثاني: قول موسى له: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا *وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا *قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا *قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا *﴾ [الكهف : 66 ــ 70]. فلو كان غيرَ نبيٍّ لم يكن معصوماً ، ولم يكن لموسى وهو نبيٌّ عظيم ، ورسولٌ كريم ، واجبُ العصمة ــ كبيرُ رغبة ولا عظيمُ طلبه في علم وليٍّ غير واجب العصمة ، ولما عزم على الذهابَ إليه ، والتفتيش عليه ، ثم لما اجتمعَ به تواضعَ له ، وعظّمه ، واتبعه في صورةٍ مستفيد منه ، دلّ على أنّه نبيٌّ

---

[237] البخاري رقم (74).

[238] فتح الباري (434/6).

[239] المصدر نفسه (434/6).

[240] اراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية ص (419).

[241] روح المعاني (320/15).



مثله ، يوحى إليه كما يوحى إليه ، وقد خُصَّ من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم عليه السلام.

الثالث: أنّ الخضر أقدمَ على قتل الغلام ، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلاّم ، وهذا دليلٌ مستقل على نبوته ، وبرهانٌ ظاهِرٌ على عصمته[242]، لأنَّ الولي لا يجوزُ له الإقدامُ على قتل النفوس بمجرّد ما يُلقى في خَلَدِه ، لأن خاطره ليس بواجبِ العصمة ، إذ يجوزُ الخطأ عليه بالاتفاقِ ، ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم ، علماً منه بأنه إذا بلغ يكفر ، ويحمل أبويه على الكفر ، لشدة محبتهما له ، فيتابعانه عليه ، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته ، صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر ، وعقوقه ، دلّ ذلك على نبوته ، وأنّه مؤيّدٌ من الله بعصمته[243].

الرابع: ومن أوضح ما يُستدلُّ به على نبوة الخضر قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف : 82]. وينبغي اعتقاد كونه نبياً لئلا يتذرّعَ بذلك أهل الباطل في دعواهم أنَّ الوليَّ أفضلُ من النبيِّ حاشا وكلا[244]: أي يعني: ما فعلته من تلقاء نفسي ، بل أمرت به ، وأوحى إلي فيه[245].

وأمّا ما يتعلق بحياته وتعميره ، فالقولُ الصحيح القولُ بوفاته ، وهو ما عليه المحقّقون من أهل العلم[246].

والأدلة من الكتابِ والسنّةِ تدلُّ على قول من قال بوفاته، وتؤيده:

فمن الكتاب الكريم:

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الانبياء : 34]. فالخَضِرُ إن كان بشراً ، فقد دخل في هذا العموم لا محالة ، ولا يجوزُ تخصيصه منه إلا بدليل صحيح ، والأصل عدمُه حتى يثبتَ ، ولم يذكر ما فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: 81]. قال ابن عباس: ما بعثَ الله نبياً إلا أخذَ عليه الميثاقَ لئن بُعِثَ محمّدٌ وهو حيٌّ

---

242 الرسل والرسالات ص (23).

243 المصدر نفسه ص (23).

244 منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني (1240/3).

245 الرسل والرسالات ص (24).

246 المنار المنيف ، لابن القيم ص (72) ، فتح الباري (434/6) ، اراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية ص (419).



ليؤمنَنَّ به وينصـــرَنَّه[247] ، فالخَضِـــرُ إن كان نبياً أو ولياً فقد دخل في هذا الميثاق ، فلو كان حياً في زمن النبي (ﷺ) لكان أشـرفُ أحواله أن يكونَ بين يديه ، يؤمن بما أنزل الله عليه ، وينصـره بأنْ لا يصـلَ أحدٌ من الأعداء إليه ، ولم يثبت أنَّ الخضر اجتمعَ مع النبيّ (ﷺ) ، فدلَّ ذلك على موته[248].

ومن السنة المطهرة:

قوله (ﷺ): «أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإنَّ على رأسِ مئةِ سنةٍ لا يبقى على ظهرِ الأرضِ أحد»[249].

وقوله (ﷺ): «تسـألوني عن السـاعة ، وإنّما علمُها عندَ اللهِ ، وأقسمُ باللهِ ما على الأرضِ نفسٌ منفوسـةٌ تأتي عليها مئةٌ سنة»[250].

قال ابن الجوزي: فهذه الأحاديثُ الصِّحاحُ تقطع دابرَ دعوى حياة الخضر[251].

4 . إخوة يوسف: هل هم الأسباط؟

اتّفق أهلُ العلم على أنّ المرادَ بالأسباط في قوله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾[البقرة : 136] وقوله سبحانه: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ [البقرة : 136] بأنّهم أبناءُ يعقوب عليه السلام ، واختلفوا هل هم أبناؤه لصلبه أم لا[252]؟.

فمَنْ قال: إنهم أبناؤه من ذريته ، حكم بعدم نبوة إخوة يوســـف ، ومن قال: إنّهم أبناؤه لصـــلبه حكم بنبوة إخوة يوسف.

واختلَفَ هؤلاء في الجوابِ عمّا وقع منهم.

فقال بعضهم: إنّ زلّتهم قد غُفرتْ بندمهم ، واستغفارِ أبيهم لهم ، ولا يستحيلُ في العقلِ زلّةُ النبي[253].

---

247 تفسير الطبري (330/3).

248 البداية والنهاية (312/1).

249 البخاري رقم (116) ، مسلم رقم (2537).

250 مسلم رقم (2538).

251 نقله عنه ابن كثير في البداية والنهاية (313/1).

252 تفسير ابن كثير (200/1) ، تفسير القرطبي (141/2) ، تفسير الطبري (618/1).

253 تفسير القرطبي (133/9).

ويُرَدُّ بأنّ الأنبياء معصومون من الكبائر.

وقال اخرون: إنّهم لم يكونوا أنبياء حين فِعْلِهم بأخيهم يوسف ذلك ، وإنّما نبأهم الله بعد توبتهم[254].

ويُرَدُّ بأنَّ القولَ الصحيح أنّ الأنبياء معصومون قبل النبوة وبعدها[255].

والراجح ــ والله أعلم ــ القولُ بعدم نبوة إخوة يوسف عليه السلام ، يقول ابن كثير: اعلم أنّه لم يقمْ دليلٌ على نبوة إخوة يوسف ، وظاهر هذا السياق (يعني سياق قصتهم) يدلُّ على خلاف ذلك.

ومن الناس من يزعمُ أنّهم أوحي إليهم بعد ذلك ، وفي هذا نظرٌ ، ويحتاج مدّعي ذلك إلى دليل ، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: 136] وهذا فيه احتمالٌ ، لأنّ بطون بني إسرائيل يقالُ لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللعجم شعوب ، يذكر تعالى أنّه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل ، فذكرهم إجمالاً ، لأنهم كثيرون ، ولكنْ كلُّ سبطٍ من نسل رجل من إخوة يوسف ، ولم يقم دليلٌ على أعيانِ هؤلاءِ أنهم أوحي إليهم ، والله أعلم[256].

* * *

[254] تفسير ابن عطية (220/3) ، تفسير السعدي ص (363).

[255] اراء بن حجر الهيتمي الاعتقادية ص (424).

[256] تفسير ابن كثير (514/2).



الفصل الثالث

سمات وخصائص دعوة الأنبياء

أولاً . سمات دعوة الأنبياء.

1 . الربانية.

2 . الإخلاص التام والتجرد في الدعوة عن الأغراض الشخصية.

3 . الزهد في الدنيا ، وإيثار الاخرة.

4 . التركيز على عقيدة التوحيد ، والتشديد في أمر الإيمان بالغيب.

5 . إخلاص الدين لله ، وإفراد العبادة له جل وعلا.

6 . البساطة في الدعوة ، ومجانبة التكلف والتعقيد.

7 . وضوح الهدف والغاية من الدعوة.

8 . الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء.

9 . اختصاصها بالعلم النافع المنجي.

10 . الإيمان بالاخرة والاهتمام بها.

11 . دعوة حضارية لها أسلوبها الخاص في الحياة.

ثانياً . خصائص الأنبياء

1. اصطفاؤهم بالوحي والرسالة.

2 . تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم.

3. تخييرهم عند الموت.

4. يقبر النبي حيث يموت.

5. لا تأكل الأرض أجسادهم.

6 . أحياء في قبورهم.

7 . لا يورثون بعد موتهم.

8 . إعداد الله لهم وتهيئتهم لرسالة





الفصل الثالث

سمات وخصائص دعوة الأنبياء

أولاً . سمات دعوة الأنبياء:

إنَّ الدعوات السماوية واحدةٌ من سماتها ، لأنّها جميعاً من مصدر واحد ، ولها غايةٌ واحدةٌ ، وأبرز هذه السمات:

1 . الربانية:

إنّ أوّل وأهم ما تمتاز به دعوة الأنبياء أنها وحيٌ وتكليفٌ من الله عز وجل ، فليســـت هي نابعة من نفوســـهم ، وليست نتيجة العوامل الاجتماعية التي تتكوّن في زمانهم ، من ظلم وبغي وجَوْر ، كما أنها ليست من تفكيرهم العميق ، وتألّمهم على الحالة المؤسـفة التي يعيشـها الناس ، أو من شـعورهم الرقيق الحسـاس ، وقلبهم الرقيق الفيّاض ، أو تجاربهم الواسـعة الحكيمة ، لا شـيءَ من ذلك أبداً ، إنّما هي وحيٌ من الله ، وتكليفٌ منه جل وعلا ، قال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ شَـاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *﴾ [يونس : 16] وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾ [الشورى : 52].
ويقول القرآن الكريم عن طبيعة الرسالة التي يختار لها الرسل، وعن مبدئها ومصدرها: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ *﴾[النحل: 2].

لذلك لا يخضعُ الرسول لعوامل نفسية داخلية، أو حوادث وقتية خارجية ، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال الأوضاع وشاء المجتمع ، وقد قال الله عن رسوله الكريم: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى *﴾ [النجم : 3 ـ 4].

ولا يستطيعُ الرسول أن يحدِثَ تغييراً أو تبديلاً ، أو تحويراً ، أو تعديلاً في رسالته وأحكام الله ، وقد قال الله لرسوله (ﷺ): ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *﴾ [يونس: 15].

وهذه هي السـمة الفاصـلة الأسـاسـية بين الأنبياء صـلوات الله عليهم وبين القادة والزعماء، الذين تكون رسـالتُهم وكفاحُهم من وحي بيئتهم وثقافتهم ومشـــاعرهم ، والذين يلاحظون دائماً البيئة والمجتمع ، والظروف والأحوال ،



ويراعون المصلحة والسياسة ، ويخضعون لها في كثير من الأحوال ، فيتنازلون عن أشياء كثيرة ، وقد يتساومون مع الأحزاب ، ويتبادلون معها المنافع ، ومبدأ كثير منهم الذين يأخذون به (دُر مع الدَّهْر كيف دار)[257].

2 . الإخلاص التام والتجرد في الدعوة عن الأغراض الشخصية:

كان أنبياء الله ورسله أوفياء للحقّ ، قائمين على نشره ، وكانوا مخلصين للدعوة ، متجرّدين عن الأغراض الشخصية، لا يدعون أحداً لقصد الكسب المادي ، أو الربح الدنيوي ، إنما يعلنون أنهم لا يطلبون أجرهم إلا من الله سبحانه ، كما قال تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿ يَاقَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود : 51] وكذلك قال تعالى على لسان خاتم الأنبياء (ﷺ) وهو يقرر هذه الحقيقة: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ *﴾ [ص : 86] وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً *﴾ [الفرقان : 57].

فهم في دعوتهم يخلصون العمل ، وفي نصحهم إرشادهم لا يرجون الثناء أو المديح ، إنّما يقصدون ثواب الاخرة ووجه الله ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *﴾ [الكهف : 110][258].

3 . الزهد في الدنيا وإيثار الاخرة:

لم تكن دعوةُ الرسل إلى الاخرة وإيثارها على الدنيا ، والاستهانة بقيمة الدنيا ومتاعها دعوةً باللسان فقط ، ودعوةً لأمتهم فقط ، بل كان ذلك مبدءاً ومنهاجاً لحياتهم ، وكانوا أول المؤمنين بها ، السائرين عليها في حياتهم وخواصهم وعشيرتهم ، وقد قال شعيب عليه السلام معبراً عن جماعته كلها: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[هود: 88].

فكانوا زاهدين في الدنيا ، مقبلين على الاخرة ، قد زهدوا في المناصب الكبيرة ، والمراكز الخطيرة ، وضحّوا بها في سبيل دعوتهم ، وفوّتوا الفرص ، وكان أكثرهم من الذين لهم مستقبل زاهر في الحياة والغد المضمون ، وكانوا من اللامعين في المجتمع بذكائهم ونبوغهم وشرف أسرهم وصلاتهم بالبلاط أو الأسر الحاكمة ، وعن ذلك عبر قوم صالح: ﴿ ياصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود : 62] ، وبذلك أخذوا أهل بيتهم وأسرتهم ، وقد قيل لسيد الرسل (ﷺ): ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً *وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا *﴾ [الاحزاب : 28.29].

---

[257] النبوة والأنبياء في ضوء القران ، لأبي الحسن الندوي ص (3).

[258] عقيدة التوحيد ص (236) ، النبوة والأنبياء ، للصابوني ص (37).

وكان من تأثير صحبته (ﷺ) على أزواجه رضي الله عنهنّ أنهنّ كلّهنّ اثرن الله ورسوله (ﷺ) ، واثرن الفقر والضيق مع الرسول (ﷺ) على الرخاء وخَفْضِ العيش مع غيره[259].

لقد اثر الرســـلُ الباقيةَ على الفانية ، لأنهم أيقنوا أن ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *﴾ [القصـــص : 60] ، لذلك كانوا زاهدين في الدنيا ، مقبلين على الاخرة ، وقد خاطب الله رســـولنا الكريم (ﷺ) ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: 131]

4 . التركيز على عقيدة التوحيد ، والتشديد في أمر الإيمان بالغيب:

إنّ القرآن الكريم تحدّث عن الأنبياء بأنهم بدأوا بالدعوة إلى توحيد الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَـــلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * الا تعبدوا الا الله إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ*﴾ [هود : 25 . 26].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَال ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود : 50].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَال ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود : 61].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَال ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود : 84].

فالأنبياء جميعاً ركّزوا جهودهم على إثبات وحدانية الله تعالى ، ووجود الصـــانع المدبر الحكيم ، وتحقيق العبودية لله تعالى ، ومحاربة الشرك بأنواعه وأشكاله.

كما أنّهم ركّزوا على الإيمان بالغيب ، وجعلوه شرطاً أساسياً للهداية والانتفاع بالدين ، وشعاراً للمهتدين ، وعلامة للمتقين.

قال تعالى: ﴿ الم *ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّـــلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ *أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ [البقرة : 1 . 5].

259 النبوة والأنبياء في ضوء القران ص (46).

وقد زخرت الكتب السـماوية ، وزخر القرآن الكريم بعجائب صـنع الله بالمعجزات والخوارق التي لا يصـدّقها ولا يسيغها ولا يحتملها إلا الإيمان بالغيب ، الإيمان بقدرة الله المطلقة ، ومشيئة الله القاهرة ، والاعتماد الكامل على صحّة هذه الكتب ، وصدق الرسل الذين أنزلت عليهم ، وأخبروا بها.

أما الإيمان الذي لم يقم إلاّ على الحس والتجربة والمألوف من الحوادث ، ومطابقة العقل الظاهر ، والعلم المدوّن في الكتب ، فإنّه إما أن يرفض أن يقبله ويصـدق به ، أو أن يتعثر ويتلجلج في قبوله ، والتصـديق به ، أو يأوله بما يتفق مع ما ألفه ، ولذلك قال تعالى: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ *﴾ [النمل : 66].

وقد ذكر القرآن الكريم الفرق بين الفريقين: فريق أكرمه الله بالإيمان الكامل ، وشرحَ صدره للإسلام ، وفريق ضاق عقله وصدرُه عن كثير ممّا جاء من الله ، وصوّر هذا الفرق تصويراً دقيقاً فقال تعالى: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ *﴾ [الانعام : 125].

وقد ذكر القرآن الكريم من صفات الله تعالى وأفعاله ومن الوقائع والحوادث ، والاء الله وأيامه ، وأخبار الرسل ، وما أجري على أيديهم من المعجزات ، وما أظهر الله لهم من الآيات ، كانفلاق البحر لموسـى عليه السـلام وقومه ، وانفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر بضرب موسى ، وارتفاع الجبل كالظُّلةِ على طائفةٍ من بني إسرائيل ، وحياتها بعد موتها ، ومسخ فرقٍ منهم قردةً خاسئين ، وحياة المقتول الذي جُهِلَ قاتله بضربه بجزءٍ من البقرة المذبوحة ، وتحوّل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، ومنطق الطير الذي عُلِّمَهُ سليمانُ ، وفهمُه لحديث النمل ، ومطاوعة الرياح له ، وسيرها به، غدوُّها شـهر ، ورُواحها شـهر ، وانتقال عرش ملكة سـبأ في طرفةٍ عين ، وقصـة ذي النون ، وخروجه من بطن الحوت ، وولادة عيسى الخارقة للعادة ، وهلاك أصحاب الفيل بحجارة من سجيل ، وإسراء الرسول (ﷺ) من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ومنه إلى السماء ، إلى غير ذلك مما زخر به القرآن الكريم والصحف السماوية ، ما لا يقبله إلا المؤمن بالغيب ، إيمان من امن بالله الذي وسعت قدرتُه كلَّ شيء[260].

ذلك لأنَّ الإيمانَ الذي يقومُ على الحسِّ والتجربة ، ويسير مع المألوف المعروف ، ويتقيّدُ بالسنن الكونية ، والنواميس الطبيعية ، والحوادث التاريخية ، ويلجأ دائماً إلى شهادة العقل ، والحواس الخمس ، وقوانين العلوم الرياضية والمحسوسات ، إنّما هو إيمانٌ مغلولٌ ، وإيمانٌ محدودٌ مشروط ، لا يصلح للاعتماد إلا في نطاق عالم الشهادة ، ولا يسايرُ الأديان ، ولا يتّفق مع دعوة الأنبياء ، وما يطلبونه من تصـديق مطلق بعالمي الشـهادة والغيب على حد سـواء ، وثقة دائمة وسرعة في الانقياد والطاعة ، وتفان في الجهاد والتضحية، ولا يصلحُ في الحقيقة لأنْ يسمّى إيماناً ، إنّما هو علم وتطبيق

260 عقيدة التوحيد ص (236) ، النبوة والأنبياء ص (40).



وخضوع للمنطق وطاعة للحواس والتجارب، ولا فضلَ فيه ، ولا يختصّ بالدين ، فكلّ عاقلٍ في حياته ، يؤمِنُ بتجاربه، ونتائج استقرائه ، وما تؤدّي إليه حواسّه ، ويرشد إليه عقله[261].

وأمّا المؤمنُ بالغيب ، المؤمنُ بقدرة الله المطلقة ، وإرادته الحرة ، المصدّق للرسل في كلِّ ما جاؤوا به ، ونطقوابه ، وأخبروا به عن الله ، فهو في راحةٍ وهدوءٍ ، وانسـجامٍ ووئامٍ مع روح هذه الديانات وأخبارها ، جاهد وفكر مرة ثم اسـتراح ، جاهد وفكر في الإيمان بالله وصـدق الرسـول (ﷺ) وعصـمته في ما يقول: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى *﴾ [النجم : 2 ــ 3] ثم امن واطمأنّ وصدق بكل ما جاء به الرسول (ﷺ) ، وصحّ به النقل في سهولةٍ ويسرٍ ، كأنّه كان منه على ميعادٍ ، وكان على أتمّ الاستعداد.

وقد ذكر الله هذا الفرقَ بين النفسيتين ، نفسيةِ المؤمن الذي أخضع عقله للصحيح من المنقول والثابت عن الرسول (ﷺ) ، وبين نفسـية الرجل الذي يحاول أن يخضـع الكتاب وما جاء به الرسـل لعقله وعلمه القاصـر ، ويسـلط عليه التأويل البعيد ، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِـخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ *رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ *﴾ [آل عمران: 7 ـ 8].

وذكر نفسـية الرجل الذي تعوّد أن لا يؤمنَ ، وأنْ لا يدينَ ، وأن لا يعيشَ إلا على المألوف المعروف الموافق لعقّله الظاهر السـطحي ، وشـهواته ومصـالحه فقال: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ *﴾ [الحج : 11][262].

5 . إخلاص الدين لله وإفراد العبادة له جلّ وعلا:

من سمات دعوة الأنبياء ، تصـحيح العقيدة في الله تعالى ، وتصـحيح الصـلة بين العبد وربه ، والدعوة إلى إخلاص الدين، وإفراد العبادة لله وحده ، وأنّه النافعُ الضارّ ، المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء ، والنسك له وحده ، وكانت حملتُهم مركزةً موجهة إلى الوثنية القائمة في عصـورهم ، الممثّلة بصـورة واضـحة في عبادة الأوثان والأصـنام والصـالحين المقدسـين من الأحياء والأموات ، الذين كان يعتقدُ أهل الجاهلية أنّ الله خلعَ عليهم لباسَ الشـرف والتألّه ، وجعلهم متصرّفين في بعض الأمور الخاصة ، ويقبل شفاعتهم فيهم بالإطلاق ، بمنزلة ملك الملوك ، يبعث على كلِّ قطر ملكاً ، ويقلّده تدبيرَ تلك المملكة في ما عدا الأمور العظام[263].

---

261 النبوة والأنبياء في ضوء القران ص (49) كل ذلك جاء في القران صراحة في سور كثيرة ومواضع عديدة.

262 قوانين عالم الشهادة لا تصلح إلا لعالم الشهادة ، أما الغيب فسبيله الخبر الصادق عن الله سبحانه (ن). .[270]  النبوة والأنبياء في ضوء القران ، ص (50).

263 النبوة والأنبياء في ضوء القران ص (36).

وكلُّ مَنْ له صلةٌ بالقرآن ــ وهو الكتابُ المهيمن على الكتب السالفة ــ يعرفُ اضطراراً وبداهةً أنَّ القضاء على هذه الوثنية والإنكار عليها ومحاربتها وإنقاذ الناس من براثنها كان هدفَ النبوّة الأساسي ، ومقصد بعثة الأنبياء ، وأساس دعوتهم ، ومنتهى أعمالهم ، وغاية جهادهم ، وقطب الرحى في حياتهم ودعوتهم ، حولها يدندنون ، ومنها يصدرون ، وإليها يرجعون ، ومنها يبدؤون ، وإليها ينتهون ، والقرآن يقول بالإجمال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ *﴾ [الانبياء : 25]. وتارة يقول بالتفصيل فيسمي نبياً نبياً[264].

فإخلاصُ الدِّين لله ، وإفرادُ العبادةِ له هو الهدفُ الأسمى الذي دعا إليه جميعُ الأنبياء عليهم السلام ، في كلِّ عصرٍ وزمانٍ ، وفي كلِّ بيئةٍ ومكانٍ فلم يكن هدفُ الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، إلا أن يوجهوا المخلوق الضعيفَ إلى خالقه العظيم القدير ، وأن يصرفوا وجهةَ البشر من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد ، مصداقاً لقوله تعالى:
﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ *﴾ [البينة : 5].

6 . البساطة في الدعوة ، ومجانبة التكلف والتعقيد:

ومن سمات دعوة الأنبياء البعدُ عن الأساليب الصناعية ، والتصنع والتكلّف في حياتهم وسلوكهم بصفة عامة ، وفي دعوتهم وكلامهم وحجتهم بصفة خاصة ، وقد كان قول اخر الرسل (ﷺ): ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ *﴾ [ص: 86] تصوير لحالِ جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين السابقين (ﷺ) جميعاً.

فهم دائماً يخاطِبون الفطرةَ السليمة ، والعقل العام بأسلوب فطري غير ذي عوجٍ ، لا يتوقف فهمُه على ذكاءٍ نادر، وعلم فائق ، وألمعية بارعة ، ودراسةٍ واسعةٍ للعلوم ، وإحاطةٍ بالمصطلحات العلمية ، ومعرفةِ المنطق والفلسفة ، والرياضيات ، والفلك وعلوم الطبيعة ، يفهمه العوام كما يتذوقه الخواص ، وينتفع به الجهلاء كما ينتفع به العلماء ، كلٌّ على قدر فهمه وطاقته ، ويطابِقُ حالَ الأمم التي تعيش على فطرتها وسذاجتها ، كما يطابق حال الأمم المتمدنة المثقفة العالية ، ولا يثيرون الأسئلة الدقيقة ، ولا يفترضونها ، إنّما كلامهم كالماء الزلال السلسال ، الذي يسيغه كلُّ واحدٍ ، ويحتاج إليه كل واحد[265].

قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ *﴾[النحل : 125].

---

264 المصدر نفسه.

265 النبوة والأنبياء في ضوء القران ص (92).

وانظر إلى إبراهيم عليه السلام وهو يقيمُ الحجّة القاصمة على خصمه العنيد ، ويقطعُ عليه الطريقَ بأيسر الطرق ، وأظهر البراهين الدامغة ، قال تعالى: ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *﴾ [البقرة : 258].

ولهذا نجدُ أنّ أنجحَ طريقٍ للدعوة هو سلوكُ سبيل الأنبياء في مخاطبة الفطرة ، والبعد عن التصنّع والمناهج الكلامية[266].

قال إمام الحرمين الجويني: لقد خضتُ البحرَ الخضّمَ ، وتركتُ أهل الإسلام وعلومَهم ، وخضتُ في الذي نهوني عنه، والان إن لم يتداركني ربّي برحمته ، فالويلُ لفلان ، وها أنا أموتُ على عقيدة أمي[267].

قال الفخر الرازي:

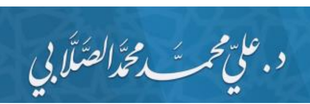
نهايةُ إقدامِ العقولِ عقالُ ... وأكثرُ سَعْيِ العالمينَ ضَلالُ
وأرواحُنا في وحشةٍ من جسومنا ... وحاصِلُ دنيانا أذًى ووبالُ
ولم نستفدْ مِنْ بحثِنا طولَ عمرنا ... سوى أنْ جمعنا فيه قِيلَ وقالوا
وكم من جبالٍ قد علتْ شرفاتها ... رجالٌ، فماتوا، والجبالُ جبالُ

لقد تأملتُ الطرقَ الكلاميةِ والمناهجَ الفلسفيةِ، فما رأيتُها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيتُ أقربَ الطرق طريقةَ القرآن ، إقرأ في الإثبات: ﴿ الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى *﴾ [طه : 5] ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر : 10] ، واقرأ في النفي: ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا *﴾ [طه : 110] ، ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي[268].

وقال أبو حامد الغزالي: «إنّ الصحابة رضوان الله عليهم كانوا محتاجين إلى محاجّة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد (ﷺ) ، فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً ، وما ركبوا ظهرَ اللجاج في وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات ، كلُّ ذلك لعلمهم بأنّ ذلك مثارَ الفتن ، ومنبع التشويش ، ومن لا تقنعه أدلةُ القرآن لا يقمعه إلا السيفُ والسنان ، فما بعد بيانِ الله بيان»[269].

---

[266] عقيدة التوحيد ص (337).
[267] عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين للمؤلف ص (159).
[268] عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين للمؤلف ص (159).
[269] إلجام العوام عن علم الكلام ، للغزالي ص (89 ـ 90).





7 . وضوح الهدف والغاية في الدعوة:

ومن سمات دعوة الأنبياء وضوحُ الهدف والغايةِ في الدعوة ، فهم يدعون الناس إلى هدف واضح ، وإلى فكرة بيّنة ، لا لُبْسَ فيها ولا غموض ، استمع إلى قوله تعالى مخاطباً خاتم الأنبياء والمرسلين: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [يوسف : 108].

فالأنبياء الكرام دعوا الناس إلى رسـالةٍ ربّانية واضـحة بينة ، لا غموض فيها ولا خفاء ، ومن مظاهر هذا الوضـوح أنّهم قد أُرسلوا في أقوامهم وبلغاتهم ، حتى
يمكن التفاهم معهم ، وإيصـال الرسـالة إليهم ، وأنّ الدعوة كانت تنزل منجّمة حتى يفهمَ السـائلُ ، ويقتنعَ المجادلُ ، ويسهلَ التطبيقُ.

ومن مظاهر هذا الوضوح أيضاً أنّ الرسل كانوا يذكرون أصول دعوتهم ابتداءً ، ويستمرون بعد ذلك في التدليل على ما دعوا إليه[270].

8 . الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء:

من سمات دعوة الأنبياء مراعاة الحكمة والمصلحة مطلقاً ، ورعاية طبائع الناس واستعدادهم ، ورعاية المكان الصالح والزمان الصـالح ، ونشـاط النفوس ، وإقبال القلوب ، ورعاية التدرّج والتيسـير ، وهذا ما تقتضـيه طبيعة الإسـلام السـمحة، وحكمة الله البليغة ، وفِطَرُ الأنبياء الحكيمة ، ونطقت به الاثار ، وشـهدت به الحوادث ، وزخر به تاريخ التشريع ، وسيرة الرسول (ﷺ).

قال تعالى: ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً *﴾ [الاسراء : 106].
وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرآن جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً *﴾ [الفرقان: 32]. وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة : 185].
وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : 78].

وقد كان رسول الله (ﷺ) يأمرُ أصحابه بالتيسير والتبشير ، وقد قال رسول الله (ﷺ) لمعاذ وأبي موسى رضي الله عنهما لما بعثهما إلى اليمن: «يسّرا ولا تعسّرا ، وبشّرا ولا تنفّرا»[271].

---

[270] دعوة التوحيد.

[271] صحيح البخاري (622/2).





وقال (ﷺ): «إنما بعثتم ميسّرين ، ولم تُبْعَثوا معسِّرين»[272].

وقد كان يرجِءُى تطبيق شيءٍ فيه مصلحة جزئية لأجل مصلحة كلية هي أعظمُ وأهمُّ منها ، فقال لعائشة رضي الله عنها: «لولا حداثةُ قومك بالكفرِ لنَقَضْتُ البيتَ ، ثم لبنيتُه على أساسِ إبراهيم عليه السلام»[273].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كان النبيُّ (ﷺ) يتخوَّلنا بالموعظةِ في الأيام كراهة السامة علينا[274].

وعن جابر بن عبد الله: كان معاذُ بن جبل يصلّي مع النبيّ (ﷺ) ، ثم يرجع ، فيؤمُّ قومه ، فصلّى العشاء ، فقرأ البقرة ، فانصرف رجلٌ ، فكان معاذٌ ينالُ منه ، فبلغ النبيَّ (ﷺ) فقال: «فتان فتان» ثلاث مراراً[275].

وعن ابن مسعود قال: قال رجلٌ: يا رسول الله ، إنِّي لأتأخرُ عن الصلاةِ في الفجر ممّا يطيلُ بنا فلانٌ فيها ، فغضبَ رسول الله (ﷺ) ، ما رأيته غضبَ في موعظةٍ كان أشدَّ غضباً منه يومئذٍ ، ثم قال: «يا أيها الناس ، إنَّ منكم منفِّرين، فَمَنْ أمَّ منكم الناسَ فليتجوَّزْ ، فإنَّ خلفه الضعيفَ والكبيرَ وذا الحاجةِ»[276].

والنصوص في ذلك والشواهدُ أكثر من أن تُحصى[277]، وهذا كلّه مستفيضٌ متواتر من سيرته (ﷺ) ، مفروض في سيرة الأنبياء السابقين ، للحكمة التي وصفهم الله بها ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ *﴾ [ص : 20]. قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ *﴾ [الانعام : 89].

ولكن كلُّ هذا التيسير والتدريج ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر إلى استعدادِ النفوس ، إنّما هو للتعليم والتربية وفي المسائل الجزئية ، ومما ليس من العقائد ومبادأى الدين في شيء.

أمّا ما يفرّق بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، وكان من شعائر الإسلام ، وحدود الله ، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ــ على اختلاف عصورهم ــ أصلبُ فيه من الحديد ، وأثبتُ عليه من الجبالِ ، لا يعرفون تنازلاً ، ولا يعرفون هوادة ، ولا يرضون مساومة[278].

[272] المصدر نفسه (215/1).

[273] المصدر نفسه.

[274] المصدر نفسه.

[275] المصدر نفسه.

[276] المصدر نفسه.

[277] النبوة والأنبياء في ضوء القران ص (35).

[278] المصدر نفسه.



9 . اختصاصها بالعلم النافع المنجي:

تكفّل الأنبياءُ صلواتُ الله وسلامه عليهم وانفردوا في دعوتهم بالعلم النافع ، وبالعلم الذي لا سعادةَ للإنسان ولا نجاةَ له بغيره ، وهو العلمُ الذي يَعْرِفُ به الإنسانُ خالقه، وفاطرَ هذا الكون، ومدبّرَ هذا العالم ، وصفاتِه العليّة ، والصلةَ التي بينه وبين عبده ، وموقف الإنسان في هذا العالم ، وموقفه من ربّه ، ومبدأه ومصيره ، وما يرضيه تبارك وتعالى وما يُسخطه ، وما يشقي الإنسانَ في الدار الاخرة وما يُسْعِدهُ ، وخواص عقائده وأعماله وأخلاقه ، وجزاءها ، وما يترتّب على ما يصدرُ منه من قولٍ واعتقادٍ ، وعملٍ من الثواب والعقاب ، والنتائج البعيدة الطويلة المدى ، وهذا هو العلمُ الذي يستحق أن يُسمّى (علم النجاة)[279].

10 . الإيمان بالاخرة والاهتمام بها:

من سمات دعوة الأنبياء وملامحها وشعائرها التشديدُ على جانب الاخرة ، واللهجُ بها ، والإشادةُ بذكرها ، والتنويهُ بشأنها تنويهاً يجعلها من النقاط الأساسية في دعوتهم ، ويشعُرُ كلُّ مَنْ يعيش في أخبارهم وأحاديثهم ، ويتذوّق كلامهم أنَّ الاخرة دائماً نُصب أعينهم ، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها ، وسعادتها وشقائها ، فهم إلى الجنة في حنين شديد ، ومن جهنم في فزع كبير ، وهو شيءٌ طبيعي ، قد ملك عليهم مشاعرهم ، واستولى على فكرهم ، وحسناً أن نقرأ ما حكاه القرآن من قول إبراهيم ، وقد جاشت نفسُه ، وفاضت عواطفه ، حيث ذكر الاخرة ، وتمثل هولها وفزعها قال تعالى: ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ *رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ *وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ *وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ *وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ *وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ *يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ *إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ *وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ *وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ *﴾ [الشعراء : 82 ـ 91].

والإيمان بالاخرة، وتمثُّل ما فيها من سعادةٍ دائمةٍ، وشقاءٍ دائمٍ، وما أعدَّ الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من جزاءٍ ، وللكفّار العصاةِ من عقاب ، هو الحافزُ الحقيقي إلى دعوتهم ، وبذل نصحهم ، وهو الذي يقلقهم ، ويطيّر نومهم ، ويكدِّر صفو عيشهم ، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ، ولا يقرُّ لهم قرار ، وهو حافزٌ أقوى وأعظم سلطاناً على نفوسهم ممّا يشاهدونه من اختلال النظام واضطراب الأحوال ، وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع إذا انتشر فيه الفساد ، ويجعلون ذلك موجباً لدعوتهم ، وإنذارهم ، وسبباً لقلقهم وإشفاقهم.

وقد تعدّى الإيمانُ بالاخرة إلى أتباعهم ، والمؤمنين بهم ، وتجلّى لهم مدى الحياة وتفاهتها ، وعظمة الحياة الاخرة وخلودها ، وأنها المبتغى الذي يجاهد في سبيله المجاهدون ، ويسعى له العاملون ، ويتنافس فيه المتنافسون ، قال مؤمن من ال فرعون ﴿ يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ *مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ

[279] المصدر نفسه.



عَمِلَ صَــــالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَــــابٍ *﴾ [غافر : 39 ـ 40].

وقال سحرة فرعون بعد لحظة من إيمانهم بموسى عليه السلام ، لما أوعدهم فرعون بالعذاب الأليم ، وما أدراكم به؟ تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، والتصليب في جذوع النخل: ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا *إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى *إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا *وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّــــالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّــــالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى *﴾ [طه: 72 ـ 76][280].

والأنبياء يبعدون كلَّ البعد عن أن يُطمعوا أمتهم في مُلك أو ســيادة أو منفعة دنيوية ، ويجعلونه ثمناً لإيمانهم ، أو مكافأة لقبول دعوتهم ، بل بالعكس من ذلك ، ينكرون على الناس حب العلو والاستعلاء والاستيلاء بدافع حب الجاه والطموح الفردي أو القومي قال تعالى: ﴿ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [القصــص : 83]. إنّما يطمعونهم في رحمة الله، ويخوفونهم من عذاب الله، ويجعلون مناط الأمر الثوابَ والجزاءَ في الاخرة، إنّما يذكرون أنّ هذا الإيمان والطاعة والاســتغفار يجلبُ رحمة الله، ويســتدرُّ الرزق، ويُنزل الأمطار، ويدفع ما هم فيه من جَدْب وضيق، فيقول نوح عليهالسلام: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا *يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا *﴾ [نوح : 10 ـ 11].

وقال تعالى: ﴿ وَيَاقَوْمِ اسْــتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِــلِ السَّــمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ*﴾ [هود : 25] ، وهذه طبيعةُ الإيمانِ والاستغفارِ ، وسجيتها التي لا تختلف عنها كطبائع الأشياء وخواصّ الأدوية ، ونواميسَ الفطرة[281].

11 ـ دعوة حضارية ، لها أسلوبها الخاص في الحياة:

إنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لم يدعوا إلى عقيدة وشريعة فحسب ، ولم يحملوا ديناً جديداً فحسب ، بل كانوا مؤسسي حضارة ومدنية وأسلوب من الحياة جديدٍ خاص ، جديرٍ بأن يسمّى الحضارة الربانية ، ولهذه الحضارة

---

[280] النبوة والأنبياء في ضوء القران ص (35).

[281] المصدر نفسه.



أصولٌ ودعائمُ ، وعلاماتٌ وشعائرُ ، تمتازُ بها عن الحضاراتِ الأخرى ، الحضارات التي تُسمّى الحضارات الجاهلية ، امتيازاً واضحاً ، امتيازاً في الأساس وفي الروح ، وفي الأشكال والتفاصيل[282].

وكان إبراهيم الخليل الحنيف (ﷺ) إمامَ هذه الحضارة الحنيفية المؤسسة على توحيد الله تعالى ، والإيمان به وذكره ، المؤسسة على متابعة الفطرة السليمة ، والقلب السليم ، المؤسسة على الحياة والأدب مع الله ، والإنابة والرحمة على بني الإنسان ، ورقّة العاطفة ، وقد سرت أخلاقه في هذه المدنية ومنهج الحياة قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ *﴾ [التوبة : 114].

وكان إبراهيم عليه السلام ولا يزال مؤسس هذه الحضارة ، وكان رسول الله (ﷺ) ـ وهو حفيده ـ مجدّدَ هذه الحضارة ومتممَّها ، وهو الذي بعث فيها الروحَ ، وأفاض عليها الخلودَ ، وأرسى قواعدها ، وشدّ بنيانها ، وجعلها خالدة باقية عالمية[283].

إنّ هذه الحضارة الإبراهيمية المحمدية لا تعرفُ الوثنيةَ والشركَ ، ولا تسمح به في لونٍ من الألوان ، وفي أي مكان وزمان ، فكان أكبرُ دعاء إبراهيم وأكبرُ همه ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ *﴾ [ابراهيم : 35] ، وكان أكبرُ وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعاً ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج : 30 ـ 31].

إنها لا تعرِفُ التهالك على الشهوات ، والتكالُبَ على حطام الدنيا ، والتناحُرَ على جِيفَ المادة ، والتقاتل في سبيل الحكومات والمناصب ، إنّها دعوة لم تزل عقيدتُها: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [القصص : 83].

إنّها حضارة لا تعرِفُ الفصل بين الإنسان والإنسان ، والتمييز بين الألوان والأوطان ، «فالناسُ كلهم من ادم ، وادمُ من تراب ، لا فضلَ لعربيّ على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ألا بالتقوى» ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات : 13][284].

قال لمن هتف بالأنصار ومن هتف بالمهاجرين: «دعوها فإنها منتنة»[285].

إنّها حضارةٌ تُعْرَفُ في العقيدةِ بالتوحيد ، وفي الاجتماعِ باحترام الإنسانية ، والمساواةِ بين أفرادها.

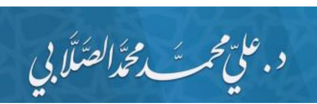
---

[282] المصدر نفسه.

[283] النبوة والأنبياء في ضوء القران ص (44).

[284] المصدر نفسه ص (45).

[285] المصدر نفسه ص (23).





وفي دائرة الأخلاق والمنهج بتقوى الله ، والحياء والتواضع ، وفي ميدان الكفاح بالسعي للاخرة ، والجهاد في سبيل الله ، وفي ساحة الحرب بالرحمة والعاطفة الإنسانية ، وفي أنواع الحكومات بترجيح جانبِ الهداية على جانبِ الجباية ، والخدمة على الاستخدام ، تعرف في التاريخ بخدمة الإنسانية المخلصة ، وإنقاذها من براثن الجاهلية ، والدعواتِ المضلّة الطاغية ، وفي العالم باثارها الزاهرة الزاهية ، وخيراتها المنتشرة الباقية ، إنها عُجِنت مع اسم الله ومراقبته ، وصبغت بصبغة الله ، وقامت على أساس الإيمان ، فلا يمكن تجريدُها عن الطابع الديني ، واللون الرباني ، والروح الإيماني[286].

ثانياً . خصائص الأنبياء:

الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام هم صفوةُ البشر وسادتهم ، وهم من بني ادم ، لهم خصائص البشر وصفاتهم ، لا يخرجون عن صفاتهم البشرية ، ولكنّ الله عزّ وجلّ اصطفاهم ، وأنعم عليهم باختيارهم رسلاً إلى الناس ، وخصّهم لذلك ببعض الخصائص والصفات ، التي لا يشترِكُ معهم بقيةُ البشر فيها ، وهذه الخصائص لا تخرِجُهم عن بشريتهم وعبوديتهم لله عز وجل ، قال تعالى على لسان بعض رسله في مجادلتهم لأقوامهم: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *﴾ [ابراهيم : 11].

ومن أهم خصائص الأنبياء:

1 . اصطفاؤهم بالوحي والرسالة:

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ *﴾ [الحج : 75]. وقال تعالى لرسوله (ﷺ): ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف : 110].

2 . تنام أعينهم ، ولا تنام قلوبهم:

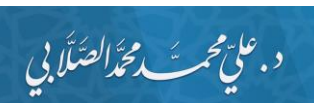
عن أنس رضي الله عنه في حديث الإسراء: «والنبيُّ نائمةٌ عيناه ، ولا ينام قلبُه ، وكذلك الأنبياء تنامُ أعينهم ، ولا تنام قلوبهم»[287].

وقد صحَّ عنه (ﷺ) أنه قال: «إنا معاشرَ الأنبياءِ ، تنامُ أعيُننا ، ولا تنامُ قلوبُنا»[288].

[286] النبوة والأنبياء في ضوء القران ص (64).

[287] مسند الإمام أحمد (411/5).

[288] البخاري رقم (3570).





3. تخييرهم عند الموت:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله (ﷺ) يقول: «ما مِنْ نبيٍّ يمرَضُ إلاّ خُيِّرَ بين الدُّنيا والاخرة»[289].

وسُمع النبي (ﷺ) في شكواه التي قُبِضَ فيها يقول: «مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»[290].

4. يقبر النبيُّ حيثُ يموت:

صحَّ عنه (ﷺ) قوله: «لم يُقْبَرْ نبيٌّ إلاّ حيثُ يموتُ»[291] ، ولهذا فإنّ الصحابةَ رضي الله عنهم دفنوا الرسول (ﷺ) في حُجرةِ عائشة رضي الله عنها حيثُ قُبِضَ[292].

5. لا تأكل الأرض أجسادَهم:

قال رسول الله (ﷺ): «إنّ الله حرّمَ على الأرضِ أن تأكلَ أجسادَ الأنبياء»[293].

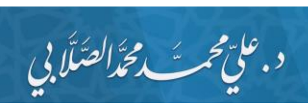
6. أحياءٌ في قبورهم:

صحَّ عنه (ﷺ) أنّه قال: «الأنبياء أحياءٌ في قبورهم يصلّون»[294].

كما ثبت عنه (ﷺ) أنه قال: «مررتُ على موسى ليلةَ أُسرِيَ بي عند الكثيبِ الأحمرِ، وهو قائمٌ يصلّي في قبره»[295].

أمّا عن كيفية هذه الحياة ، فهذا أمرٌ غيبي ، لا مجال للعقل فيه ، فما دام أنه صحّ عن رسول الله (ﷺ) فيجبُ الإيمانُ من غيرِ تكييفٍ ، ولكنْ مع إيماننا بأنَّها حياةٌ برزخيةٌ ليست كحياتهم التي عاشوها في الدنيا ، فلا يجوزُ سؤالهم

289 المصدر نفسه رقم (4586).
290 وقفات تربوية في ضوء القران الكريم ، عبد العزيز الجليل (33/3).
291 صحيح الجامع رقم (5201).
292 وقفات تربوية (34/3).
293 صحيح أبي داود ، للألباني رقم (925).
294 السلسلة الصحيحة رقم (621).
295 مسلم رقم (2375).





في قبورهم ، ولا طلب المدّدِ منهم ، فإنّهم لا ينفعون ولا يضـــرون ، قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ *﴾ [يونس: 106].

7 . لا يورثون بعد موتهم:

قال رسول الله (ﷺ): «إنّا معشرَ الأنبياءِ لا نُوْرَثُ ، وما تركتُ بعدَ مؤنةِ عاملي ونفقةِ نسائي صدقة»[296].

والروايات التي عند البخاري ومسلم ليس فيها «إنا معشر الأنبياء» وإنما هي بلفظ «لا نُوْرَثُ ما تركنا صدقةٌ»[297].

8 . إعداد الله لهم وتهيئتهم لرسالته:

لقد أكرم الله عزّ وجل أنبياءَه ورسـله ، وخصّـهم بمزيد عنايةٍ وتوفيقٍ وأخلاقٍ عاليةٍ ، لم تكتمل لغيرهم من البشـر ، وذلك لتهيئتهم لقيادة الأمم ، وسـياسـة الشـعوب ، فخصّـهم الله بأخلاقٍ سـاميةٍ ، واداب عاليةٍ ، وحكمةٍ بالغةٍ ، وعزائمَ، وعقيدةٍ صحيحة.

ولنأخذ مثالاً على ذلك عناية الله عز وجل بنبيه موسى عليه السلام ، وتهيئته للرسالة قبل إرساله ، وتأييده له بعدها ، حيث يقول عز وجل: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي *﴾ [طه : 39].

فحياةُ موسى عليه السلام كلُّها عظاتٌ ، واياتٌ بينات على سنته تعالى في إعداد أنبيائه قبل الرسالة فمنها:

* أنّ الله ســبحانه جعل نجاته ممّا أصـــاب غيره من أبناء قومه فيما يراه الناسُ دماراً ، وإلقاءً بالنفس إلى التهلكة: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ *﴾[القصص: 7 ـ 8].

* أن الله سبحانه كتبَ لموسى حياةً سعيدةً في بيتِ مَنْ يُخشى عليه منهم ، فعاش بين أظهرهم عيشةَ الملوك ، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَـــى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْـــعُرُونَ *﴾ [القصص : 9].

* أنّ الله حرّمَ عليه تحريماً كونياً أن يَرْضَـعَ من امرأةٍ ســوى أمه ، فكان ذلك فيما يرى الناسُ بلاءً أحاط به ، وهو في نفس الأمر لطفٌ من الله ورحمة بموسى ليرجِعَه إلى أمه ، وهم لا يشعرون ، فاجتمعت له السلامةُ والنجاةُ ، وعطفُ الأمهات ، وعزُّ الملوك ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِـــعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ

---

[296] رواه النسائي في الكبرى رقم (6309) مسند أحمد (9973) إسناده صحيح.

[297] البخاري رقم (6730) مسلم رقم (1757).





نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾[القصص: 12ـ 13].

وهنـــاك سلسلة أخرى من حياة موسى قبل الرسالة تضمّنت الكثيرَ مما حباه الله به من العلم والحكمة ، والمروءة والنجدة ، ونصر المظلوم ، والأخذ على يد الظالم ، والعطف على الضعيف ، وقوة الإيمان بالله ، والصدق في الالتجاء إليـه ، والتوكل عليـه ، والـتواضع مع عزّة الـنفس ، وغير ذلك مكـارم الأخلاق التي يُعدّ الله بها مَنْ يختارُه للرسالة ، وقيادة الأمم ، وتلخيص ذلك فيما يلي:

* حفظ الله على موسى صفاءَ روحِهِ ، وسلامةَ فطرته ، فمع أنه عاش في أوساط ظلم وطغيان ، لم يتأثّر بما يتأثّر به مَنْ قضى الأيام الأولى من حياته في بيئةٍ استشرى فيها الفسادُ ، وطبعت بطابع الجبروت والاستبداد ، ولم يصبه ما يصـــاب به أبناء الوجهاء ، ومن يتقلب في النعمة ورغد العيش غالباً: من الجهل والاســـتهتار ، أو الرخاوة والخلاعة والمجون ، بل صانه الله عن كلّ ما يشينه ، واتاه العلم النافع ، والحكمة البالغة ، وسداد الرأي ، كما حفظ عليه نعمته من قبلُ في بدنه ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *﴾ [القصص : 14].

* جبل الله نبيه موسـى عليه السـلام على الحزم ، والأخذ بالقوة في نصـرة المظلوم ، فيتجلَّى ذلك من الخصـومة التي كانت بين رجل من بني إسرائيل واخر مصري ، وإنصافه للمظلوم.

كما طبعه الله على الرفق بالضـــعيف ، والعطف عليه ، ومدّ يدِ المعونة إليه ، يتبيّن ذلك فيما كان منه من النجدة حينما وردَ ماءَ مدين ، فوجد عليه أُمّةً من الناس يسـقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ قالتا: لا نسقي حتى يصدرَ الرِّعاء وأبونا شيخ شيخ كبير ، فسقى لهما ، فجمع له بين شدة البطش بالظالمين ، وكمال الرفق بالمستضعفين.

*كان من اثار عناية الله بموسى عليه السلام ورعايته له أن قوّى فيه الوعيَ الدينيَّ ، واستحكمت فيه الصلةُ بينه وبين ربّه ، فأحبَّ ما يحبه الله من العدل والإنصاف ، وكره ما يبغضه الله من الظلم والعدوان ، لذلك فزع إلى ربه ، واعترف بظلمه لنفسـه حينما قضى المصـري نحبَه من وكزته ، وأسـرع في الأوبة إليه مِنْ ذنبه ، فغفر الله له ، فأخذ على نفسـه عهداً ألا يكون ظهيراً للمجرمين ، شــكراً لله على نعمته ، ووفاء له بما غفر من ذنبه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِـي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ *﴾ [القصص : 16ـ 17].

* فاض قلبُه إيماناً بالله ، وعظمت ثقته به ، وتوكله عليه ، فقصـــد إليه وحده في غربته وحيرته رجاءَ أن يهديه ســواء السبيل ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ *﴾ [القصص : 22].





ولما اشــتدّت به الحاجةُ ، وأخذ منه الجوعُ مأخذه توجّه إلى ربه ، وســأله من فضــله ، وأبت عليه عزّةُ نفســه أن يشــكوَ حاجته لغير ربه ، أو يُعرِّض لمن ســقى لهما بطلب الأجر ﴿ فَسَـقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ *﴾ [القصص : 24].

وقد استجاب الله دعاءه ، وهيأ له بيئةً صالحةً يحيا فيها حياةً طيبةً ، فقد عرض عليه الرجل الصالح ــ لما عرف عنه من القوة والأمانة ـ أن يزوّجه إحدى ابنتيه ، على أن يرعى له الغنم ثمانيَ حجج ، فإنْ أتمَّ عشراً كان ذلك مكرمة منه، فالتزم موســى بذلك ، ولم يمنعه ما كان فيه أولاً من رغد العيش وحياة الملوك أن يكون أجيراً يأكلُ ويتزوَّجُ من كســب يده ، وأشهد ربَّه على ذلك ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ*﴾ [القصص: 28] وقد ثبت أنّه أتمَّ أبعدَ الأجلين ، فدل على أنه طُبِعَ على حبِّ الخير ، وفعلِ المعروف[298].

* * *

[298] الحكمة من إرسال الرسل ص 78 . 80 ، عبد الرزاق عفيفي ، وقفات تربوية (40/3).





الفصل الرابع

جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء وتفاضلهم عليهم الصلاة والسلام

أولاً. هديهم في قوة العلم بالله عز وجل ، وأثر ذلك في صدق الإيمان وكمال التوحيد.

ثانياً. هديهم في السلوك والأخلاق.

ثالثاً. التعرض للأذى والصدّ عن سبيل الله عز وجل من قبل الأعداء وأنصار الباطل.

رابعاً. التدرج في الدعوة ، ومراعاة المصالح والمفاسد.

خامساً. مراعاة السنن الربانية.

سادساً. أصناف المدعوين في دعوة الأنبياء.

سابعاً. تفاضل الأنبياء.



الفصل الرابع

جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء وتفاضلهم

عليهم الصلاة والسلام

أولاً ـــ هديهم عليهم الصلاة والسلام في قوة العلم بالله عز وجل ، وأثر ذلك في صدق الإيمان ، وكمال التوحيد:

إنّ أعلمَ الناس باللهِ عزّ وجلّ هم أنبياؤه ورسله عليهم الصلاة والسلام ، وهذا العلمُ به سبحانه وبأسمائه وصفاته العلا هو الذي أثر هذه الخشية العظيمة والإيمان الصادق ، والتوحيدَ الكامل لله عز وجل ، لأنّه كلّما كان العبدُ أعلمَ وأعرفَ بربه سبحانه كان أشدَّ خوفاً وتعظيماً وعبادةً ومحبة وإخلاصاً ، وإن ممّا اختص الله سبحانه به رسله ، ومَنَّ عليهم به هو تكميلُ هذا العلم النفيس في نفوسهم ، والذي هو أشرفُ العلومِ وأزكاها.

ومن الأدلة على شرف هذا العلم ، وأنّ أولى الناس به هم الأنبياءُ والرسلُ[299] ما يلي:

قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا *﴾ [مريم : 43].

وقوله تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾ [يوسف : 68].

وقوله تعالى عن قول يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ *﴾ [يوسف : 96] وذلك بعد أن جاءَ البشير بقميص يوسف عليه السلام ، فارتدّ البصرُ إلى يعقوب عليه السلام ، وأخبرهم أنّه يعلم من لطف الله سبحانه ورحمته ما يدفعُ عنه اليأسَ ، ويثمِرُ الرجاءَ ، وهذا الأثرُ العظيم من اثار علم يعقوب عليه السلام بأسماء الله عزّ وجل وصفاته مما لم يصل إليه أبناؤه الذين استنكروا عليه أمله في رجوع يوسف عليه السلام.

وقوله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ*﴾[الأعراف: 62] ، أي وأعلمُ مِنَ اللهِ ما لا تعلمونه ، فأعلمُ من صفاتِ اللهِ وقدرته الباهرة ، وبطشه بأعدائه ما جهلتم ، وأعلم أنَّ العاقبة للمتقين ، وأن بأسه لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين[300].

---

[299] وقفات تربوية (53/3).

[300] وقفات تربوية (54/3).



وقوله تعالى عن مقالة نوح عليه السلام لقومه: ﴿ قَالَ ياقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ *﴾ [هود : 28].

وقوله تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿ قَالَ ياقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ *﴾ [هود : 63].

وقوله تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿ قَالَ ياقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ *﴾ [هود : 88].

وقوله تعالى لنبيه محمد (ﷺ): ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ *﴾ [الانعام : 57].

وقوله (ﷺ) عن نفسه عندما تنزّه بعضُ الصحابة عن شيء رخّص فيه الرسول (ﷺ) ، فبلغه ذلك فخطبَ ، فحمِدَ الله ، ثم قال: «ما بالُ أقوامٍ يتنزّهون عن الشيء أصنعهُ ، فواللهِ إنّي لأعلمُهم بالله ، وأشدُّهم له خشيةً»[301].

والعلم بالله عز وجل وبأسمائه الحسنى وصفاته العلا له اثارٌ إيمانية مباركة منها:

1 . شدة تعظيمهم لله عزّ وجل وخوفهم منه:

مما يلفت الانتباه في حياة الأنبياء شدةُ تعظيمهم لله عز وجل، وخوفهم منه، والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

أ . مناجاة نوح عليه السلام لربّه بشأن ابنه:

قال تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ *قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ *﴾[هود: 45 . 47].

ويظهر من هذه الآيات علمُ نوح عليه السلام بربه عزّ وجلّ ، والذي أثمر عنده هذا الأدبَ العظيم مع ربّه ، والخوف منه سبحانه ، فتراه وهو يدعو ربّه بشأن ابنه الهالك مع الكافرين يختمُ دعاءَه بقوله: ﴿ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ *﴾ ، ولم يقل: وأنت أرحم الراحمين ، وهذا من كمال علمه عليه السلام بأسماء الله عزّ وجلّ وصفاته واثارها ، لأنّ المقام

[301] البخاري رقم (6101) ، مسلم رقم (2356).





مقام تفويض واستسلام لحكمة الله البالغة ، التي اقتضت أن يكون ابنُ نوح مع الهالكين ، ولم يكن مع الناجين ، ولذلك ختم نوح عليه السلام دعاءه بقوله: . ﴿ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ *﴾

كما يظهر في هذه المناجاة خوف نوح عليه السلام من ربه ، واتهامه لنفسه بالظلم ، وطلبه المغفرة من ربه سبحانه، وذلك في قوله: الله أكبرُ! هذا نوحٌ عليه السلام الذي أمضى تسعمئة وخمسين عاماً في دعوة ﴿ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ *﴾ ، وصبر وصابر ، وناله من الأذى والاستهزاء الشيءَ العظيم ، ومع ذلك يختم دعوته بطلب المغفرة والرحمة من ربّه سبحانه: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا *﴾ [نوح : 28][302].

ب ـ محاجّة شعيب عليه السلام لقومه ، وردّه عليهم عندما خيّروه بين الخروج من قريتهم ، أو العودة في ملتهم:

قال الله عز وجل: ﴿ قَالَ الْمَلأُالَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ﴾ ﴿ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ *﴾[الأعراف: 88 ـ 89].

أي: يمتنعُ عن مثلنا أن نعودَ فيها ، فإن هذا من المحال ، فايسهم عليه السلام من أن يوافقهم من وجوهٍ متعددة:

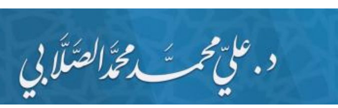
من جهة أنّه هو ومن معه كارهون لملّتهم ، مبغضون ما هم عليه من الشرك.
ومن جهة ثانية جعل ما هم عليه كذباً ، وأشهدهم أنّه إن اتبعهم وهو من معه فإنّهم كاذبون.

ومنها اعترافهم بمنّةِ الله عليهم ، إذ أنقذهم الله منها.

ومنها أنّ عودتهم في ملّتهم بعد أن هداهم الله ـ من المحالات ، بالنظر إلى حالتهم الراهنة ، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى ، والاعتراف له بالعبودية ، وأنّـه الإله وحده ، الذي لا تنبغي العبادةُ إلاّ له وحده ، لا شريك له ، وأنَّ الهةَ المشركين أبطلُ الباطل ، وأمحلُ المحال ، لأنّ الله منَّ عليهم بعقول يعرفون بها الحق من الباطل ، والهدى من الضلال.

وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله ، وإرادته النافذة في خلقه ، التي لا خروجَ لأحدٍ عليها ، ولو تواترت الأسباب، وتوافقت القوى ، فإنّهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه ، ولهذا استثنى ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ

[302] وقفات تربوية (57/3).



نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ ، أي: فلا يمكننا ولا غيرُنا الخروج على مشيئته التابعة لحكمه وحكمته ، قال تعالى: ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ، فيعلم ما يصلح للعباد وما يدبرهم عليه[303].

ونلاحظ في الآيات الكريمة: أنَّ شعيباً بقدر ما يرفعُ رأسَه ، وبقدر ما يرفع صوتَه في مواجهةِ طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا من قومه ، بقدر ما يخفِضُ هامته ، ويسلّم وجهه في مواجهة ربه الجليل ، الذي وسع كل شيء علماً ، فهو في مواجهة ربه ، لا يتألّى عليه ، ولا يجزمُ بشيءٍ أمامَ قدره ، ويدع له قيادة زمامه ، ويعلن خضوعه واستسلامه: ﴿ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ، إنّه يفوّض الأمرَ لله ربه في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه ، إنّه يملك رفضَ ما يَفْرِضُه عليه الطواغيتُ من العودةِ في ملّتهم ، ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة ، ويعلن الاستنكارَ المطلقَ للمبدأ ذاته ، ولكنّه لا يجزمُ بشيءٍ عن مشيئة الله به وبهم ، فالأمرُ موكولٌ إلى هذه المشيئة ، وهو والذين امنوا معه لا يعلمون ، وربّهم وسعَ كل شيء علماً ، فإلى علمه ومشيئته تفويضُه واستسلامُه.

إنّه أدبُ وليِّ الله مع الله، الأدب الذي يلتزم به أمره ، ثم لا يتألّى بعد ذلك على مشيئته وقدره ، ولا يتأبّى على شيء يريدُه به ، ويقدّره عليه.

وهنا يدع شعيبُ طواغيتَ قومه وتهديدَهم ووعيدهم، ويتّجه إلى وليه بالتوكل الواثق يدعوه أن يفصلَ بينه وبين قومه بالحق

ج ـ تعظيم موسى عليه السلام لربه وخوفه منه:

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ ﴾ إذا تجلّى الله له ﴿ فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل﴾ الأصمّ الغليظ ﴿ جعله دكاً﴾ أي: انهال مثل الرمل ، انزعاجاً من رؤية الله ، وعدم ثبوته لها ﴿ وَخَرَّ مُوسَى﴾ حيث رأى ما رأى ﴿ صعقاً﴾ أي: مغشياً عليه ﴿ فلما أفاق﴾ تبيّن له حينئذٍ أنّه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله ، فموسى أولى أن لا يثبتَ لذلك ، فاستغفرَ ربَّه لما صدرَ منه من السؤال الذي لم يوافق موضعاً ، لذلك ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك، وتعظيماً عما لا يليق بجلالك ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من جميع الذنوب، وسوءِ الأدبِ معك ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ المؤمنين﴾ أي جدد عليه السلام إيمانه بما كمل الله له مما كان يجهله قبل ذلك.

[303] وقفات تربوية (60/3) ، تفسير السعدي عند الآية (89) من سورة الأعراف.

د. تعظيم عيسى عليه السلام لربه سبحانه، وأدبه مع ربه عز وجل:

وذلك عن ســـؤال الله عز وجل له يوم القيامة وهو أعلم ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة : 116].

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا
أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَــهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَــيْءٍ شَــهِيدٌ *إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾[المائدة: 116 ـ 120].

وفي هذه الآيات الكريمة من المعاني الشـريفة اللطيفة ما يحتاجُ إلى تأمل وتدبر ، ففي ردّ عيســى عليه الســلام من التعظيم والتنزيه والأدب لربّه عزّ وجلّ ما يدلُّ على معرفته لخالقه الكريم.

وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله ، وخطابهم وسؤالهم ، كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به؟.

قال المســيح عليه الســلام: ولم يقل: لم ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ ، وفَرْقٌ بين الجوابين في حقيقة الأدب ، ثم أحال الأمرَ على علمه سـبحانه بالحال وسـره ، فقال: ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ ، ثم برّأ نفسَـه عن علمه بغيب ربه، وما يختصّ به سبحانه ، فقال: ثم أثنى على ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ ، ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها ، فقال: ثم نفى أن يكونَ قال لهم غير ﴿ وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أمره ربُّه به ـ وهو محض التوحيد ـ فقال: ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ *﴾ ، ثم أخبرَ عن شـــهادته عليهم مدّةَ مقامه فيهم ، وأنّه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم ، وأنّ الله عزّ وجلّ وحدَه هو المتفرّدُ بعد الوفاة بالاطلاع عليهم ، فقال: ثم وصفه بأنّ شهادته سبحانه فوق كل شهادة ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ ، فقال: ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَــهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ ، ثم قال: وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ ، أي شـأن السـيد رحمةُ عبيده ، والإحسان إليهم ، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك ، فإذا عذّبتهم ــ مع كونهم عبيدك ــ فهذا عدلك ، فلولا أنهم عبيدُ ســوءٍ من أبخس العبيد وأعتاهم على ســيدهم وأعصــاهم له لم تعذبهم ، لأنّ قربة العبودية تســتدعي إحســان الســيد إلى عبده ورحمته ، فلماذا يعذّب أرحمُ الراحمين؛ وأجودُ الأجودين؛ وأعظمُ المحســنين: عبيدَه لولا فرط عتوّهم وإبائهم عن طاعته ، وكمال استحقاقهم العذاب ، ثم قال: ﴿ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ ،

ولم يقل: الغفور الرحيم ، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى ، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم ، والأمر بهم إلى النار ، فليس المقام مقام استعطافٍ ولا شفاعةٍ ، بل مقامِ براءة منهم. فلو قال: (فإنك أنت الغفور الرحيم) لأشعرَ باستعطافه ربَّه على أعدائه الذين قد اشتدّ غضبه عليهم ، فالمقامُ مقامُ موافقةٍ للربِّ في غضبه على مَنْ غضب الربُّ عليهم ، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يُسألُ بهما عطفه ورحمته ومغفرته ، إلى ذكر العزّةِ والحكمة المتضمنتين لكمالِ القدرةِ وكمالِ العلم.

والمعنى: إن غفرتَ لهم فمغفرتُك تكونُ عَنْ كمالِ القدرة والعلم ، وليست عن عجزٍ عن الانتقام منهم ، ولا عن خفاءٍ عليك بمقدار جرائمهم ، وهذا لأن العبد قد يغفِرُ لغيره لعجزٍ عن الانتقام منه ، ولجهله بمقدار إساءته إليه ، والكمالُ: هو مغفرةُ القادر العالم ، وهو العزيزُ الحكيم ، وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عينُ الأدبِ في الخطاب[304].

هـ. تعظيم نبينا محمد (ﷺ) لربه سبحانه وخوفه منه:

فقد قال رسول الله (ﷺ): «فوالله إنِّي لأعلمُهم بالله ، وأشدُّهم له خشية»[305].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «لو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»[306].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله (ﷺ) إذا عصفتِ الريحُ قال: «اللهم إنِّي أسألُكَ خَيْرَها ، وخَيرَ ما فيها ، وخيرَ ما أرسلتْ به ، وأعوذُ بكَ من شرِّها ، وشرِّ ما فيها ، وشرِّ ما أُرسلتْ به».

قالت: وإذا تخيّلت السماءُ تغيّرَ لونه ، وخرجَ ، ودخلَ وأقبل وأدبرَ ، فإذا أمطرت سُرِّي عنه ، فعرفت ذلك عائشة ، فسألته فقال: «لعلّه يا عائشة» فسألته فقال؛ «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾[الأحقاف: 24]»[307].

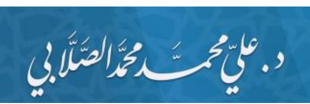
---

[304] مدارج السالكين ، لابن القيم (378/2 ، 379).

[305] البخاري رقم (6101) ، مسلم رقم (2356).

[306] البخاري رقم (6486).

[307] وقفات تربوية (67/3).



2 ـ كثرة ذكرهم لله عز وجل، وشدة تضرّعهم ودعائهم له سبحانه مع قوة عبادتهم:

ومن هذه النماذج ما يلي:

أ ـ تضرّعهم إلى الله وسؤاله قضاء حوائجهم:

قال تعالى:﴿ فَاسْـتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ *وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ *فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ *﴾ [الأنبياء: 83 ـ 90].

فقد جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ، ووجود طعم المحبة في التملّق له ، والإقرار له بصفة الرحمة ، وأنّه أرحم الراحمين ، والتوسل إليه بصفاته سبحانه ، وشدّة حاجته هو وفقره ، ومتى وجد المبتلَى هذا كُشِفَتْ عنه بلواه[308].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ *﴾ ، أي: إنّ في صـبرِ أيوب عليه السـلام ودعائه عبرةً للعابدين من بعده ، ليقتدوا بصـبره وعبادته ودعائه ، وفي هذه الآيات أيضـاً ذكر إسماعيل ، وإدريس ، وذا الكفل ، وأنهم من الصـابرين ، وأنّ الله عزّ وجلّ جازاهم بأنْ أدخلهم في الصالحين[309].

فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد وصفهم الله بالصبر ، فدلَّ على أنّهم وفّوها حقها ، وقاموا بها كما ينبغي، ووصفهم أيضاً بالصلاح ، وهو يشمل صلاح القلب بمعرفة الله ومحبته[310] ، والإنابة إليه كل وقت ، وصلاح اللسان، بأن يكون رطباً من ذكر الله ، وصـلاح الجوارح باشـتغالها بطاعة الله ، وكفّها عن المعاصـي ، فبصـبرهم وصـلاحِهم أدخلهم الله في رحمته ، وجعلهم مع إخوانهم من المرسـلين ، وأثابهم الثوابَ العاجِلَ والاجل ، ولو لم يكن من ثوابهم إلا أن الله تعالى نوّه بذكرهم في العالمين ، وجعل لهم لسانَ صدقٍ في الاخرين ، لكفى بذلك شرفاً وفضلاً[311].

وفي قوله تعالى: ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُـبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ *﴾ [الانبياء : 87]، قال ابن القيم: فإنّ فيها من كمال التوحيد والتنزيه

للربّ تعالى ، واعترافِ العبد بظلمه وذنبه ، ما هو من أبلغ أدوية الكربِ والهمِّ والغمّ ، وأبلغ الوسـائل إلى الله سـبحانه في قضـاء الحوائج ، فإنَّ التوحيدَ والتنزيه يتضـمنان إثباتَ كلِّ كمال لله ، وسلبَ كل نقصٍ وعيبٍ ، والاعترافُ بالظلم يتضـمّنُ إيمانَ العبد بالشـرع والثوابِ والعقابِ ، ويوجِبُ انكسـاره ، ورجوعه إلى الله ، وإقالة عثرته ، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلى ربه ، فهاهنا أربعةُ أمورٍ قد وقع التوسل بها: التوحيد ، والتنزيه ، والعبودية ، والاعتراف[312].

---

[308] بدائع التفسير ، لابن القيم (189/3).

[309] وقفات تربوية (70/3).

[310] تفسير السعدي (295/3).

[311] المصدر نفسه (295/3).

[312] بدائع التفسير ، (190/3).

وقد وصف الله سبحانه: نبيّه يونس عليه السلام بأنّه كان من المسبّحين في وقت الرخاء ، فقال تعالى: ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ *لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *﴾ [الصافات : 143 ـ 144]. وفي قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ *﴾ في وقته السابق بكثرة عبادته لربه ، وتسبيحه ، وتحميده وفي بطن الحوت[313].

هذا هو أدبُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في كثرة ذكر الله عزّ وجلّ وتسبيحهم في الرخاء والشدة ، وفي كلِّ حينٍ ، مع دعائهم لربهم ، واعترافهم بظلمهم لأنفسهم.

ويبقى في الآيات السابقة وصفُ زكريا ويحيى عليهما السلام بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ *﴾ [الانبياء : 90]. وفي قوله: أي: يبادرون ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ ، ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة ، ويكمّلونها على الوجهِ اللائق الذي ينبغي ، ولا يتركون فضيلةً يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصةَ فيها أي: يسألوننا الأمور المرغوبَ فيها من مصالح الدنيا ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ ، ويتعوّذون بنا من الأمور المرهوبِ منها من مضارّ الدارين ، وهم راغبون لا غافلون راهبون. و أي: خاضعين ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ *﴾، متضرّعين ، وهذا لكمال معرفتهم بربهم[314].

هذه صلة الأنبياء بربهم: ذكر ، وتسبيح ودعاء[315].

ب . خشوعهم وبكاؤهم عند ذكر الله عز وجل:

فبعد أن ذكر الله عز وجل مجموعةً من الأنبياء في سورة مريم ، أثنى عليهم بقوله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَانِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا *﴾ [مريم: 58].

فهذه خيرُ بيوت العالم ، اصطفاهم الله ، واختارهم ، واجتباهم ، وكان لهم عند تلاوةِ آيات الرحمن عليهم المتضمّنة للأخبارِ بالغيوب ، وصفات علام الغيوبِ ، والإخبار باليوم الاخر ، والوعد والوعيد. أي: ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا *﴾ لايات الله ، وخشعوا لها ، وأثّرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة ما أوجبَ لهم البكاءَ والإنابة والسجودَ لربهم ، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله: وفي إضافة الآيات إلى اسمه (الرحمن) دلالةٌ على أنَّ آياته من رحمته بعباده وإحسانه ﴿يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً *﴾ ، حيث هداهم بها إلى الحقِّ ، وبصّرهم من العمى ، وأنقذهم من الضلالةِ ، وعلّمهم من الجهالة[316].

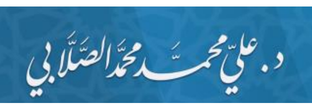
---

313 تفسير السعدي (272/4).

314 تفسير السعدي (297/3) وقفات تربوية (73/3).

315 المصدر نفسه (73/3).

316 تفسير السعدي (209/3).



ج. دعاؤهم عليهم الصلاة والسلام ربّهم بالثبات على الحق ، والموت على التوحيد والإسلام:

من ذلك قول الله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ *﴾ [ابراهيم : 35]. وقوله تعالى عن دعائه الاخر أيضاً: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ *﴾ وقوله تعالى عنه أيضاً: ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا﴾[الممتحنة: 5].

وقوله تعالى عن موسى عليه السلام عندما أخذت قومَه الرجفةُ قوله: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الاعراف : 155 ـ 156].

وقوله تعالى: عن سليمان عليه السلام أنه قال: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ *﴾ [النمل : 19].

وقوله تعالى عن يوسف عليه السلام أنه قال: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ *﴾ [يوسف: 101].

ومن دعاء يوسف عليه السلام: ينبغي للعبد أن يتضرّعَ إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه ، ويعمل الأسباب لذلك: يسأل الله حسن الخاتمة ، وتمام النعمة ، ويتوسَّلُ بنعمه الحاصلة إلى ربه أن يتمّها عليه ، ويحسن له العاقبة ، وليس هذا من (يوسف) تمنياً للموت ـ كما ظنَّ بعضُهم ـ بل هو دعاءُ اللهِ أن يُحْسِنَ خاتمته ، ويتوفّاه على الإسلام. كما يسأل العبدُ ربَّه ذلك كلَّ وقت[317].

وقد جمعت هذه الدعوةُ الإقرارَ إليه ، والبراءةَ من موالاةِ غيرِ الله سبحانه ، وكون الوفاةِ على الإسلام أجلُّ غايات العبدِ ، وأنّ ذلك بيدِ الله ، لا بيدِ العبدِ ، والاعترافِ بالمعاد ، وطلبِ مرافقة السعداء[318].

د. القوة في طاعة الله وعبادته:

قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ *﴾ [ص : 45].

ومعنى قال: أولو القوّة في ﴿ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ *﴾ ، والعلم بأمرِ اللهِ. وروي عن قتادة قال: أُعطُوا قوةً في العبادةِ، وبَصَراً في الدّين[319].

---

317 تفسير السعدي (452/2) وقفات تربوية (75/3).

318 بدائع التفسير (476/2).

319 مجموع الفتاوي (170/19) وقفات تربوية (77/3).



والشواهد في ذكر عبادةِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كثيرةٌ منها:

قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ *﴾ [ابراهيم : 40].

وقوله تعالى في مدح إسماعيلَ عليه السلام: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا *﴾ [مريم : 55].

وقوله تعالى في مدح إسحاق ويعقوب عليهما السلام: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ *﴾ [الانبياء : 73].

وقوله تعالى: في وصف عبادة داود عليه السلام وإنابته ، وكثرة تسبيحه وخشوعه حتى إنّ الجبالَ والطيرَ تردِّدُ معه: ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ *إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ *وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ *﴾ [ص : 17 ـ 19].

ووصف نوبته بقوله سبحانه: ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ *﴾ [ص : 24].

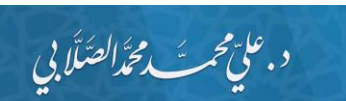
وقد وصف لنا الرسولُ (ﷺ) جانباً من كثرة عبادة داود عليه السلام ، وقوّته فيها ، فقال: «أحبُّ الصلاةِ إلى الله صلاةُ داودَ ، وأحبُّ الصيامِ إلى الله صيامُ داود ، كان ينامُ نصفَ الليل ، ويقومُ ثلثه ، وينامُ سدسَه ، وكان يصومُ يوماً، ويفطِرُ يوماً ، ولا يفرُّ إذا لاقى»[320].

وأمّا عن نبينا محمد (ﷺ) وكثرةِ عبادتِه ، وقوّته فيها ، فهي كثيرةٌ جداً ، ولا غرابةَ في ذلك ، فهو الذي امتلأ قلبُه معرفةً بربّه سبحانه ، وحبّاً وتعظيماً له ، وهو الذي قال له ربُّه عزّ وجلّ: ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ *قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً *نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً *أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ القرآن تَرْتِيلاً *﴾ [المزمل : 1 ـ 4].

وهو الذي قال له ربه عز وجل: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً *﴾ [الإنسان : 26]. وقال له: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا *﴾ [مريم : 65].

---

[320] البخاري رقم (1131) وقفات تربوية (78/3).





ومن أحواله (ﷺ) في عبادته وقوته فيها:

* عن حذيفة رضـــي الله عنه قال: صـــلّيتُ مع النبيّ (ﷺ) ذاتَ ليلةٍ ، فافتتحَ البقرةَ ، فقلتُ: يركَعُ عند المئةِ ، ثم مضى ، فقلتُ يصلّي بها في الركعةِ ، فمضى ، فقلت:

يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران ، فقرأها ، يقرأ مسترسلاً ، إذا مرَّ بايةٍ فيها تسبيحٌ سبّحَ ، وإذا مرَّ بسؤالٍ سأل ، وإذا مرَّ بتعوّذ تعوّذ ، ثم ركع ، فجعل يقول: «سبحان ربي العظيم» فكان ركوعه نحواً من قيامه ، ثم قال: «سمع الله لمن حمده» زاد في روايةٍ: «ربنا لك الحمد» ثم قام قياماً طويلاً قريباً مما ركع ، ثم سجدَ فقال: «سبحان ربي الأعلى» فكان سجودُه قريباً من قيامه[321].

* وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قام النبيُّ (ﷺ) حتى تورّمت قدماه ، فقيل له: قد غفرَ اللهُ لكَ ما تقدّمَ من ذنبك وما تأخر ، قال: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟!»[322].

3 . كمال التوكل على الله:

وإليك شيئاً من الأمثلةِ:

قال الله عز وجل عن نبيه نوح عليه الســلام: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُـــرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُـــوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ*﴾ [يونس : 71].

وقال تعالى عن نبيه هود عليه السلام في محاجته لقومه: ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ *إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِـيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِـرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * مَا مِنْ دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾ [هود: 54 ـ 56].

ولما علم نبيُّ الله هود عليه الســلام أنّ ربّه على صــراطٍ مســتقيمٍ في خَلْقه ، وأمره ونهيه ، وثوابه وعقابه ، وقضــائه وقدره، ومنعه وعطائه ، وعافيته وبلائه ، وتوفيقه وخذلانه ، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس ، الذي تقتضـيه أسماؤه وصـفاته ، من العدل والحكمة ، والرحمة والإحسـان والفضـل ، ووضـع الثواب موضـعه ، والعقوبة في موضعها اللائق بها ، ووضع التوفيق والخذلان ، والعطاء والمنع ، والهداية والإضلال ، كل ذلك في أماكنه ومحالّه اللائقة به ، بحيث يستحق على ذلك كمالَ الحمدِ والثناء: أوجبَ له ذلك العلمَ والعرفانَ ، إذ نادى على رؤوس الملأ في قومه بجنانٍ ثابتٍ ، وقلبٍ خائفٍ بل متجرّد لله: ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا

[321] مسلم رقم (772).

[322] البخاري رقم (4836) ومسلم رقم (2819).





ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ *إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾ [هود : 54 ـ 56].

فكيف أخافُ مَنْ ناصيتُه بيد غيره ، وهو في قهره وقبضته ، وتحت قهرِه وسلطانه ، وهل هذا إلا مِنْ أجهلِ الجهل وأقبحِ الظلمِ؟![323].

ومن مواقف الشجاعة والثبات وحسن الظن بالله عز وجل ما قصه الله عز وجل علينا في كتابه عن موسى عليه السلام مع قومه عندما تبعهم فرعون وجنوده عند البحر. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ *قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ *فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ *﴾ [الشعراء : 61 ـ 63].

وما قصه علينا عن محمد (ﷺ) وهو في غار ثور قال تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة : 40].

4 ـ حسن الظن بالله والرضى بحكمه:

وهذه الصفات من ثمار التوكّل الصادقِ ، الذي ينبعُ من العلم بالله عز وجل ، ومعرفة أسمائه وصفاته واثارها.
قال تعالى عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ *فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ *وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ *قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ *﴾ [الصافات: 101 ـ 106].

حقاً إنّ هذا لهو البلاءُ المبين ، والامتحانُ العظيم ، للثقة بالله عز وجل ، والرضى بحكمه ، والاستسلام لأمره ، وقد وصف الله سبحانه حالهما بقوله: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ *﴾ أي أسلم الوالدُ والولدُ لأمر الله وجل وحكمه.

الله أكبر ما أعظمَ هذه النفوس ، وأنبلَها وأطهرَها ، وأعظمَ إيمانها بالله وتوحيده؟![324].
ونموذج اخر من التوكل العظيم والثبات العظيم لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فيما قصه الله عز وجل علينا عن إلقائه في النار ، قال تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ *قُلْنَا يانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ *وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ *﴾ [الانبياء : 68 ـ 70].

[323] وقفات تربوية (96/3).
[324] المصدر نفسه (97/3).





روى البخاريُّ عن ابن عباس رضـــي الله عنهما قال: «حَسْــبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ» قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمّدٌ حين قيل له: [آل عمران: 173]

ما قصّه الله عزّ وجل في سورة يوسف عن يعقوب عليه السلام ، وحسن ظنه بالله عز وجل ، والرضا بحكمه النابع من صـدقه وتوكله ، وثقته بربه سبحانه ، قال تعالى في وصـف رجائه ، وحسـن ظنه بربه سـبحانه ، بعد ما فقد ابنَه الثاني ، وقبله كان قد فقد يوسفَ عليه السلام: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ *وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَال ياأَسَـفَى عَلَى يُوسُـفَ وَابْيَضَّـتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ *قَالُوا تاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُـفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًـا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ *قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ *يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّـسُـوا مِنْ يُوسُـفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُـوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ *﴾ [يوسف : 83 ـ 87].

وإنّ هذا الرجاءَ العظيمَ من يعقوب عليه السلام في ربّه عز وجل ، وحسن ظنه به ، واستسلامه لحكمه ليظهرَ من قوله: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ *﴾ [يوسـف : 83] وقد توسّـل عليه السلام إلى ربه باسمه (العليم) و(الحكيم) وذلك لعلم يعقوب عليه الســلام بربه ، وعلمه بأسمائه وصــفاته ، ودلالاتها واثارها ، فكأنّه يقول: إنه هو (العليم) بحالي في الحزن والأسف (الحكيم) الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمةٍ ومصلحةٍ.

وكذلك يتَّضـحُ هذا الرجاءُ في الله عز وجل وعدم اليأس من رحمته من قوله: ﴿ يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّـسُـوا مِنْ يُوسُـفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ *﴾

5 ـ الاستعانة بالله عز وجل والتبرؤ من الحول والقوة:

وهذه الصفة من أعظم ثمار العلم بالله عز وجل وتوحيده والتوكل عليه ، فترى حياتَهم كلَّها قائمةً على الاستعانة بالله وحده ، والاعتصام به سبحانه ، وأنّهم لا يرون لأنفسهم فضلاً ولا قوة إلا بما يمدّهم الله به من توفيقه وعزّته عز وجل وهذه الصفةُ بارزةٌ في هديهم جميعاً ، نكتفي منها بما يلي:

قول الله عز وجل في دعاء نوح عليه السلام بعد أن كذّبه قومه ، وبذل جميع الأسباب في هدايتهم: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ *﴾ [القمر : 10].
قوله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [الممتحنة : 4 ـ 5].





وقوله تعالى أيضاً عن وصية أخرى من موسى لقومه: ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [الاعراف : 128].

وقوله تعالى أيضاً عن وصية أخرى من موسى لقومه: ﴿ وَقَالَ مُوسَى ياقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ *﴾ [يونس: 84].

وقوله تعالى عن موسى عليه السلام عندما هدده فرعون بالقتل: ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ *﴾ [غافر: 27].

وقوله تعالى عن يوسف عليه السلام عندما تعرّض لفتنة النساء: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ *فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *﴾ [يوسف : 33 . 34][325].

ثانياً . هديهم عليهم الصلاة والسلام في السلوك والأخلاق:

لقد خصّ الله عزّ وجلّ أنبياءَه عليهم الصلاة والسلام بالكمال البشري في الأخلاق والسلوك ، فجاءوا قدوات لمن بعدهم ، يُهتدَى بأخلاقهم ، ويقتدى بسلوكهم ، كما كان الشأنُ في توحيدهم وإيمانهم ، ومعرفتهم بربهم ، ولا غرابة فيما وصلوا إليه من أخلاق عالية ، وصفات نبيلة ، فما هي إلا من اثار التصوّر الصحيح ، والإيمان العظيم ، فالارتباطُ بين المعتقَد والسلوك ارتباطٌ قوي ، وبينهما تناسَبٌ طردي ، تشهدُ له الأدلة والتجارب ، فكلّما صحَّ الاعتقاد وكان سليماً ، فإنّ الأخلاق تعلو وتنمو ، وتشرقُ ، والعكس بالعكس.

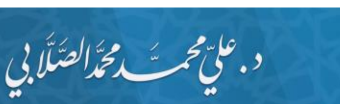
وحسبنا أن نستعرضَ بعض هذه الأخلاق الرفيعة ، لتدلُّنا على بقيتها ، لعلَّ القلوبَ ترقُّ ، والعزائمُ تستيقظ ، لتلحق بهذه الصفوة المباركة ، فتهتدي بأخلاقهم ، وتسير بسلوكهم ، وخاصة في مثل زماننا المعاصر ، الذي يشهد أزمةَ أخلاق ، وسوء ممارسات في التعامل بين الناس ، فإن كنّا محبين للأنبياء حقيقةً فهذه أخلاقهم عليهم الصلاة والسلام ، وقد أمرنا الله عز وجل بالاقتداء بهم فيها وفي غيرها:

ومن هذه الأخلاق ما يلي:

1 . خلق الرحمة بالناس والشفقة عليهم من عذاب الله عز وجل:

قال تعالى عن دعوة نوح عليه السلام لقومه: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *﴾ [الاعراف : 59].

[325] وقفات تربوية (97/3).



فنوحٌ عليه السلام خوّفهم إنْ لم يطيعوه عذابَ الله ، فقال: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *﴾ وهذا من نصحه عليه السلام لهم ، وشفقته عليهم ، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي ، والشقاء السرمدي ، كإخوانه من المرسلين ، الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة ابائهم وأمهاتهم[326].

وهذا التخوفُ على الناس من عذاب الله عز وجل كان عندَ جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن ذلك قول الله تعالى عن شعيب عليه السلام يحذر قومه: ﴿ وَيَاقَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ *﴾ [هود : 89].

وقد وصف الله عزّ وجلّ نبيه محمد (ﷺ) بقوله: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *﴾ [التوبة : 128].

2 . النصح للناس:

قوله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ *﴾ [الاعراف : 61 . 62].

وقوله تعالى عن نبيه هود عليه السلام: ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ *﴾ [الاعراف : 67 . 68].

وقوله تعالى عن نبيه صالح عليه السلام بعد هلاك قومه: ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ﴾ [الأعراف: 79].

وقوله تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام بعد هلاك قومه: ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَال ياقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ *﴾ [الاعراف : 93].

ولقد بلغ النصحُ والشفقةُ على الناس من نبينا محمد (ﷺ) حتى كادَ هذا الأمرُ أن يهلكه ، فخاطبه الله عز وجل قائلاً: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ *﴾ [الشعراء: 3] ، فكان يحزن حزناً شديداً على عدم إيمانهم نصحاً لهم ، وشفقة عليهم[327].

ومن هذا الباب ، أيضاً تلك الدعوة التي وجهها إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه ، والتي كانت كلّها نصحٌ وشفقةٌ ورحمةٌ مع أدبٍ جمّ ، وحلم وتلطف ، من الابن النبي إلى أبيه الكافر: قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِّيقًا نَبِيًّا *إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا *يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا

[326] تفسير السعدي (122/2) ، وقفات تربوية (99/3).
[327] وقفات تربوية (100/3).

لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا *يَاأَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا *يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا *قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا *قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا *﴾ [مريم : 41 . 47].

ومع أنّ الأبَ الشقيَّ ردَّ نصيحة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهدّده ، وتوعّده بالرجم ، وطالبه بالهجر والمقاطعة ، إلاّ أنّ الابن البار الخائف على أبيه من عذاب يمسّه من قبل الرحمن قال: فلما أيس من ﴿ قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا *﴾ ، تبرأ منه ، واعتزله ، وترك الاستغفار له ، ومع ذلك فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يحاوِلُ الشفاعة فيه يوم القيامة ، ولكن حقّت كلمةُ العذابِ على الكافرين[328].

ومن ذلك قوله تعالى عن إسماعيل عليه السلام: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا *﴾ [مريم : 55].

أي وكان مقيماً لأمر الله على أهله ، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة الإخلاص للمعبود ، وبالزكاة المتضمنة الإحسان إلى العبيد ، فكمّل نفسه ، وكمّل غيره ، وخصوصاً أخصّ الناس عنده ، وهم أهله ، لأنهم أحقّ بدعوته من غيرهم[329].

3 . الصبر:

الصبر من الأخلاق الأساسية في الإمامة في الدين:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ *﴾ [الانعام : 34].
وقال تعالى: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ *﴾ [إبراهيم: 12].
وقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: 35].
وقال تعالى عن أيوب عليه السلام: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ *﴾ [ص : 44].
وقال سبحانه عن نبيه يوسف عليه السلام بعد تلك الابتلاءات المتنوّعة، والتي ثبّته الله عز وجل فيها، وتجاوزها بنجاح: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ *﴾ [يوسف : 90].
والآيات في وصف صبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتقواهم ، وخشيتهم من الله سبحانه كثيرةٌ لا يتّسع المقام لذكرها ، وممّا تجدرُ الإشارةُ إليه ، أنّ مِنْ أهمِّ أغراض قصص الأنبياء في القرآن الكريم أخذُ العبر من صبرهم وتضحيتهم ومعاناتهم في مواجهة الشرك ، وإرجاع الناس إلى عبادة الله عز وجل ، وذلك حتى يقتديَ بصبرهم مَنْ جاء بعدهم من

328 المصدر نفسه (100/3).
329 وقفات تربوية (107/3).



الدعاة والمصلحين ، فيثبتوا ولا يضعفوا ، ويستبشروا ولا ييأسوا ، قال تعالى: ﴿ وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ *﴾ [هود : 120].

وهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام تعرّض لمحنٍ عظيمةٍ فصبر لها صبرَ الموحّدِ لربّه ، الموفي لوعده ، ذلك حين ألقي في النار ، وحين أُمِرَ بذبح ابنه ، وفلذة كبده ، وحين أُمِرَ بتركه بوادٍ غير ذي زرع ، وحين هاجر من موطنه وترك أباه وأقاربه.

وهذا موسى عليه السلام وما واجه من الأذى والتهديد من فرعون وملأه ، ثم ما واجه من الأذى والتعنت من قومه بني إسرائيل ، حتى إنّ الرسول (ﷺ) قال عن موسى عليه السلام: «يرحمُ اللهُ موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[330].

وهذا عيسى عليه السلام جاءه من الأذى والتهم الباطلة من بني إسرائيل حتى تامروا على قتله وصلبه، فصبر على ذلك كله، ولكنّ الله عزّ وجل رفعه إليه[331].

والأنبياء والمرسلون يتفاوتون في الصبر ، فبالرغم من الصبر العظيم من يوسف عليه السلام لا يعني أنه فاق أولي العزم من الرسل في الصبر والتقوى ، فقصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم أعظم ، والواقع فيها من الجانبين ، فما فعله الأنبياء من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته ودينه ، وإظهار آياته ، وأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، ومجاهدة المكذّبين لهم ، والصبر على أذاهم ، هو أعظم عند الله ، ولهذا كانوا أفضل من يوسف صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وما صبروا عليه وعنه أعظم من الذي صبر يوسفُ عليه وعنه ، وعبادتهم لله وطاعتهم وتقواهم وصبرهم بما فعلوه أعظمُ من طاعة يوسف وعبادته وتقواه ، أولئك أولو العزم الذين خَصّهم الله بالذكر في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا *﴾ [الاحزاب : 7] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا *﴾ [الاحزاب : 7] وقوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى : 13] ، وهم يوم القيامة الذين تطلب منهم الأمم الشفاعة[332].

330 وقفات تربوية (108/3) ، البخاري رقم (6100).

331 وقفات تربوية.

332 مجموع الفتاوى (130/15 . 135) باختصار.



وفي قصة يوسف عليه السلام من جوانب الصبر العظيمة ما يدلنا على ما هو أعظمُ صبراً من يوسف عليه السلام ، ففي قول يوسف عليه السلام: ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ *﴾ [يوسف : 33]. عبرتان:

إحداهما: اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي.

والثانية: طلبُ سؤال الله ودعائه أن يثبّتَ القلبَ على دينه ، ويصرفه إلى طاعته ، وإلا فإذا لم يثبت القلبُ صبا إلى الامرينَ بالذنوبِ ، وصار من الجاهلين ، ففي هذا توكل على الله ، واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان به والطاعة.

وهذا كقول موسى عليه السلام لقومه: ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [الاعراف : 128]. لما قال فرعون: ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [الاعراف : 127 . 128].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *﴾ [النحل : 41 . 42].

فلا بدّ من التقوى بفعل المأمور ، والصبر على المقدور ، كما فعل يوسف عليه السلام: اتقى الله بالعفّة على الفاحشة ، وصبر على أذاهنّ له بالمراودة والحبس ، واستعان بالله ودعاه ، حتى يثبته على العفّة ، فتوكّل عليه أن يصرف عنه كيدهن ، وصبر على الحبس ، ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله ، كما فعل يوسف عليه السلام وغيره من الصالحين ، كانت العاقبة له في الدنيا والاخرة ، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيماً وسروراً ، كما أنّ ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعيم بالذنوب ينقلب حزناً وثبوراً.

فيوسفُ خاف الله من الذنوب ، ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم إذ أطاع الله ، بل اثرَ الحبس والأذى مع الطاعة على الكرامة والعز وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية ، فإنّه لو وافق امرأة العزيز لنال الشهوة وأكرمته بالمال والرئاسة ، فاختار يوسف الذلَّ والحبسَ وتركَ الشهوة والخروجَ من المال والرياسة مع الطاعة على العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية ، بل قدم الخوف من الخالق على الخوف من المخلوق وإن اذاه بالحبس والكذب ، فإنّها كذبت عليه ، فزعمتْ أنّه راودها ، ثم حبسته[333].

كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء أخوته له في الجُبِّ وبيعه ، وتفريقهم بينه وبين أبيه ، فإنّ هذه أمورٌ جرت عليه بغير اختياره ، لا كسب له فيها ، وليس للعبد فيها حيلة غير الصبر ، وأمّا

[333] مدارج السالكين (2/156)..

صبره عن المعصية ، فصبرُ اختيارٍ ورضًى ، ومحاربةٍ للنفس ، ولا سيّما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة ، فإنّه كان شاباً ، وداعية الشباب إليها قوية ، وعزباً ليس له ما يعوّضه ، ويردّ شهوته ، وغريباً ، والغريب لا يستحي في بلدِ غربته مما يســتحي منه مَنْ هو بين أصــحابه ومعارفه وأهله ، ومملوكاً ، والمملوك أيضــاً ليس له وازعٌ كوازع الحرِّ ، والمرأة جميلةٌ ، وذاتُ منصب وجمالٍ ، وهي سيدته ، وقد غاب الرقيب ، وهي الداعية له إلى نفسها ، والحريصة على ذلك أشدَّ الحرص ، ومع ذلك توعّدته إن لم يفعل بالسجن والصَّغار ، ومع هذه الدواعي كلّها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله ، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه[334]؟!.

وكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، على ما نالهم من الله ، باختيارهم وفعلهم ، ومقاومتهم قومهم ـــ أكمل من صبر أيوب على ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً في فعله ، وكذلك صبر إسماعيل الذبيح ، وصبر أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام على تنفيذ أمر الله أكملُ من صبر يعقوب على فقد يوسف[335].

هذا هو صبرُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذه هي تضحياتهم.

وإذا أردنا أن نقتدي بهم في هذا الخلق العظيم، وأن ننتفع به كما انتفعوا ، فلابدّ في هذا الصبر من شروطٍ ثلاثٍ:

أ ــ أن يكون الصبر بالله ، والمراد بذلك الاستعانة بالله سبحانه ورؤيته أنه هو المصبِّر ، وأنَّ صبرَ العبد بربه لا بنفسه ، كما قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل: 127]

ب ــــ أن يكون لله ، وهو أن يكون الباعثُ له على الصــبر محبة الله ، وإرادة وجهه ، والتقرب إليه ، لا لإظهار قوة النفس ، والاستحماد إلى الخلق ، وغير ذلك من الأغراض.

ج ـ أن يكون الصبر مع الله ، وهو دورانُ العبد مع مراد الله الديني منه ، ومع
أحكامه الدينية سائر بسيرها ، مقيماً بإقامتها ، أي يجعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابه[336].

---

[334] المصدر نفسه (169/2).

[335] المصدر نفسه (157/2).

[336] المصدر نفسه (157/2).



4 . الكرم:

من الأمثلة على صفة الكرمِ الكرمُ الذي كان من إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأضيافه من الملائكة ، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ *إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ *فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ *﴾ [الذاريات : 24 ـ 26] ، وقوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ *فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ *﴾ [الذاريات : 26 . 27] ، متضمنٌ وجوهاً من المدح واداب الضيافة ، وإكرام الضيف:

منها: قوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ والروغان الذهابُ بسرعةٍ ، وهو يتضمّن المبادرة إلى إكرام الضيف ، والاختفاء يتضمّن ترك تخجيله ، وألاّ يعرّضه للحياء ، وهذا بخلافِ مَنْ يتثاقل ، ويتبادَرُ على ضيفه ، ثم يبرز بمرأى منه ، ويحلّ صرةَ النفقة ، ويزنُ ما يأخذ ، ويتناول الإناء بمرأى منه ، ونحو ذلك ، مما يتضمّن تخجيلَ الضيف وحياءه فلفظة (راغ) تنفي هذين الأمرين.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِلَى أَهْلِهِ﴾ مدحٌ اخر لما فيه من الإشعار بأنَّ كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله ، وأنَّه لا يحتاجُ إلى أن يستقرِضَ من جيرانه ، ولا أن يذهبَ إلى غير أهله ، إذ قِرَى الضيف حاصلٌ عندهم.

وقوله: ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ *﴾يتضمّن ثلاثة أنواع من أحدها: خدمة ضيفه بنفسه ، فإنه لم يرسل به ، وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام ، لم يأتهم ببعضه ، ليتخيّروا من أطيبِ لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ، ليس بمهزول ، وهذا من نفائس الأموال ، ولد البقر السمين ، فإنّهم يعجبون به ، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره.

وقوله: ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ متضمناً المدحَ واداباً أخر.

ثم عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿ أَلاَ تَأْكُلُونَ *﴾ وهذه الصيغة مؤذنةٌ ، بخلاف من يقول: ضعوا أيديكم في الطعام ، كلوا ، تقدموا ، ونحو هذا.

وهذا يوسف عليه السلام يقول الله عز وجل على لسانه وهو يخاطب إخوته: ﴿ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ *﴾ [يوسف : 59]. أي خير المضيفين ، لأنه أحسن ضيافتهم[337].

---

[337] مسلم رقم (2312).

وأما إذا جئنا إلى كرم الرسـول محمد (ﷺ) وجوده، فهو الكرم الذي لا يضـاهَى ، والجود الذي لا يبارى ، ويكفينا من ذلك قول الأعرابيِّ الذي جاء إلى رسـول الله (ﷺ) فوجد عنده من الكرم والسـخاء ما يبهرُ العقولَ ، حتى قال مقولته المشهورة لما رجع إلى قومه ، وقد أعطاه الرسول (ﷺ) غنماً بين جبلين فقال: يا قوم أسلموا ، فإنّ محمّداً يعطي عطاءَ مَنْ لا يخشى الفاقة[338].

5 . الوفاء:

أمّا صفة الوفاء فهي بارزةٌ في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، الذين بلّغوا الرسالة ، وأدّوا الأمانة ، وجاهدوا في الله حق جهاده.

فمنهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام، الذي قال عنه ربه تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى *﴾ [النجم : 37] أي بلغ جميعَ ما أُمِرَ به ، وقال ابن عباس ﴿ وَفَّى *﴾ أُمِرَ به ، وقال قتادة طاعة ﴿ وَفَّى *﴾ ، وأدَّى رسـالته إلى خلقه ، وهذا القولُ هو اختيارُ ابن جرير ، وهو يشمل الذي قبله[339].

ومدحَ الله سبحانه نبيّه إسماعيل عليه السلام بقوله: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا *﴾ [مريم : 54]. قال ابن كثير: وقال بعضم: وإنّما قيل له لأنّه قال لأبيه: فصدق في ذلكِ ُستجـدللهلٍ إـل« شاء افففملله كل افصفافحِلِ *﴾.[340]

وقد وفّى موسى عليه السلام لربّه سبحانه في تبليغ بني إسرائيل دعوةَ اللهِ عزّ وجلّ ، وصبره على أذاهم وتعنتهم وسوء أدبهم ، وقد كان له موقفُ وفاءٍ قبل بعثته ، ألا وهو موقفه عليه السلام مع شيخ مدين حينما أجر نفسه عشر سنين، وهي أتمُّ الأجلين عند الشـيخ والد البنتين حتى يتزوّج إحداهما ، وكان قد خيّره بين الثماني والعشـر ، فاختار أكمل الأجلين.

عن سـعيد بن جبير ، قال: سـألني يهودي من أهل الحيرة: أيُّ الأجلين قضـى موسـى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حَبْرِ العرب فأسأله ، فقدمتُ فسألتُ ابنَ عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما ، إنّ رسول الله إذ قال فعل[341].

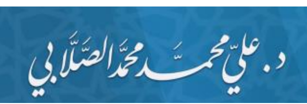
إنَّ العقل والقلم ليعجزان عن الإحاطةِ بأخلاق وسلوكيات هؤلاء الصفوة من عباد الله عزَّ وجلَّ، سواء من جهة الكم أو الكيف ، ولكننا استعرضنا بعض هذه الأخلاق الكريمة لترشدنا إلى غيرها.

338 مسلم رقم (2312).

339 تفسير ابن كثير عند الآية (37) من سورة النجم.

340 المصدر نفسه عند الآية (54) من سورة مريم.

341 البخاري رقم (2684).



ثالثاً ـ التعرّض للأذى ، والصدّ عن سبيل الله عزّ وجلّ مِنْ قِبَلِ أعداء الدعوة ، وأنصار الباطل:

من سنن الله في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تعرّضهم للأذى ، ووقوف المفسدين في طريق دعوتهم ، يصدونهم ، ويشوّهون دعوتهم ، ويؤذونهم بصنوف الأذى والابتلاء ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ *﴾ [الانعام : 34].

ولما جاء الرسول (ﷺ) إلى ورقة بن نوفل ابن عمّ خديجة رضي الله عنها ، وأخبره بما رأى في غار حراء من نزول الوحي قال له ورقة: هذا الناموسُ الذي نزّل على موسى: يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكونُ حياً ، إذ يخرجُك قومك ، فقال رسول الله (ﷺ): «أو مخرجي هم؟» قال نعم ، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثلِ ما جئتَ به إلا عُودي ، وإن يدركني يومك أنصرْك نصراً مؤزّراً[342].

ومن صور الأذى والصد عن سبيل الله عز وجل التي تعرّض لها أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام:

1 ـ السخرية ، ورميهم تارة بالسحر ، وتارة بالجنون والسفاهة ، وتارة بالكذب والضلالة:

والشواهد في القرآن على هذا كثيرة منها:

قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ*﴾ [الاعراف : 60]. وقال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ *﴾ [المؤمنون : 25].

وقال عز وجل عن قوم هود عليه السلام: ﴿ قَالَ الْمَلأَُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ *﴾ [الاعراف : 66].

وقال تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ *﴾ [الشعراء : 153].

ونفس هذه المقولة قالها قوم شعيبٍ لنبيهم: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ *﴾ [الشعراء : 185].

وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ *﴾ [يونس : 76].

وقال تعالى عن مشركي العرب مع رسول الله (ﷺ): ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ *﴾ [الانبياء : 5].

وقال عزّ وجل مخبراً عن هذا الموقف الموحّد من المشركين مع أنبيائهم عليهم السلام: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ *أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ *﴾ [الذاريات : 52 ـ 53][343].

---

[342] البخاري رقم (3).

[343] وقفات تربوية (163/3).



2 . القتل والسجن والإخراج من الأرض:

قال تعالى: ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ *﴾ [الشعراء : 116].

وقال تعالى عن قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ *﴾ [الانبياء : 68].

وإخباره تعالى عن تهديد قوم شـــعيب لنبيهم عليه الســـلام بقوله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْـــتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الاعراف : 88].

وقول قوم لوط لنبيهم عليه الســـلام وأهله في قوله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ *﴾ [النمل : 56].

ولما قصّ الله عز وجل علينا خبرَ قوم نوح وهود وصـالح مع رسـلهم عليهم السـلام في سـورة إبراهيم [13] قال بعد ذلك: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا﴾.

وقوله تعالى عن تهديد فرعون لموسى عليه السلام بالقتل: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ [غافر : 26].

وما تعرض له الرسـول (ﷺ) من التهديد بالسـجن ، أو الإخراج ، أو القتل ، والذي ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ *﴾ [الانفال : 30].

وقال نوح عليه الســلام عندما هُدِّدَ بالرجم: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ *فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [الشعراء : 117 . 118].

وقال شـعيب عليه السـلام عندما هُدِّدَ بالإخراج من بلده: ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ *﴾ [الاعراف : 89].

وقال لوط عليه الســـلام بعدما هُدِّدَ بالإخراج: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ *رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ *﴾ [الشعراء: 168 . 169][344].

[344] وقفات تربوية (177/3 . 178).



وقد يلجأ المبطلُ إلى القوّة المادية ، فيقتل بعضَ أنبياء الله ، ويعذّب بعضاً اخر ، بعد أن تعوزُه الحجّة ، وينقصه البرهانُ والدليل ، فيكون التجاؤه إلى التعذيب والتقتيل عنوان خذلانه ، وعلامةً على نصر أعدائه ، ورُبَّ معذب أو قتيل كتب الله له النصر ، ولدعوته الظفر والتأييد ، وربَّ جبار أو عنيد كتب الله عليه الذل ، وسجّل عليه الخذلان ، فكان الأول حياً في موته ، منتصراً في قبره ، وكان الثاني ميتاً في حياته ، مكبوتاً في جبروته وكبريائه ، فهو نصر معنوي، يظفر فيه الحقّ بالباطل ، وتظهر فيه الحجّة على التقليد ، والبرهان على الشبهة ، وقوة الروح على قوة المادة ، وقد يكونُ مع النصر المعنوي نصرٌ مادي ، كإنجاء الله إبراهيم من النار ، بعد أن دبّروا له ما دبّروا ، وصنعوا له ما صنعوا ، وإنجاء نبينا محمد (ﷺ) من تدبير قريش لقتله ، كلُّ ذلك نصر مادّي ، ومعه نصر معنوي[345].

3 . التضييقُ في الرزق ، وانتهاجُ سياسة التجويع والحصار الاقتصادي:

ويتّضحُ هذا مما قام به المشركون في مكة من مقاطعة الرسول (ﷺ) ومَنْ امن معه مقاطعةً اقتصادية في البيع والشراء وغير ذلك ، ومحاربتهم في شِعْبِ أبي طالب ، حتى مسّهم الضرُّ ، وبلغ منهم الجوع مبلغاً شديداً ، وكذلك ما نادى به المنافقون في المدينة من محاولةٍ لتضييق سبل الرزق لمن حول رسول الله (ﷺ) ، حتى يتفرّقوا عنه ، وينشغلوا في بطلب المعاش ، قال تعالى: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ *﴾ [المنافقون : 17].

وهي قولةٌ يتجلّى فيها خُبثُ الطبع ، ولؤم النحيزة[346]، ذلك أنّه لخسّة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كلُّ شيء في الحياة ، كما هي في حسهم ، فيحاربون بها المؤمنين... وهي خطة غيرهم ممّن يحاربون الدعوة إلى الله عز وجل من قديم الزمان إلى هذا الزمان ، ناسين الحقيقة البسيطة ، التي يذكّرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ *﴾ [المنافقون: 7][347].

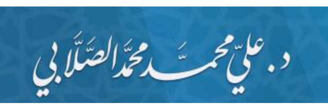
4 . إثارة الفرقة بين أبناء الأمة الواحدة وجعلها أحزاباً وشيعاً:

وهذا واضحٌ من قوله تعالى عن فرعون مصر: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ *﴾ [القصص : 4].

[345] دعوة الرسل ، محمد العدوي ص (241).

[346] النحيزة: الطبع والجبلة.

[347] ظلال القران (3579/6).



وكذلك ما حاوله اليهود زمنَ الرســـول (ﷺ) من إثارةِ النعرات بين الأوس والخزرج بعد إســـلامهم ، ولكنّهم باءوا بالفشل، وعصم الله سبحانه الأنصار بوجود الرسول (ﷺ)[348].

5 . اتهامهم بالفساد والإفساد وإثارة الفتن:

ويتّضحُ هذا جلياً من قوله تعالى عن المقولة الجائرة لفرعون: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ *﴾ [غافر: 26].

وقال تعالى عن الملأ من قوم فرعون: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَـى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِـدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الاعراف : 127][349].

6 . اتّهام الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام بأنّهم طُلاّب مُلْكٍ ودنيا ، وليسوا مخلصين فيما ينادون به:

قال تعالى: ﴿ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون : 24].

وقوله تعالى أيضـــاً في مقولة فرعون لموســـى عندما رأى معجزة العصـــا: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِـنَا بِسِـحْرِكَ يَامُوسَى*﴾ [طه : 57].

وقوله تعالى عن فرعون وقومه وعن موسى وهارون عليهما السلام:

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ *﴾ [يونس : 78].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ﴾ [يونس : 78]: هـذه الكلمة مِنْ ملأ فرعون هي إذكـاءٌ لشـعور الرفعة وأبّهة السـلطان ، وتأريثٌ للعداوة والبغضـاء لموسـى وأخيه ، لأنّه يحاول بعمله هذا أن يَسْـلُبَ فرعون مُلكه، ويقضي على نفوذه وعظمته ، وهي دسيسـةُ خبيثةٌ دنيئةٌ ألفناها من بطانات الرؤساء ، وتعوّدناها من حواشي السوء ، إذا كرهوا رجلاً دسّوا عليه تلك الدّسيسة ، واتّهموه بتلك التهمة ، لأنّهم يعلمون أنّ الرؤساء لا يتأثرون بشيءٍ تأثرهم بما يمسّ سـلطانهم ، ويتعلق بسـلطانهم ، فإذا لقنوهم تلك الكلمة فإنّهم لا يناقشـون فيها ، ولا يطلبون عليها دليلاً ، ولا شبه دليل من ذلك المبلّغ الدسّاس ، وهي طبيعةٌ من طبائع التسلط ، وخُلقٌ من أخلاقه ، ولا تخص رجلاً دونَ اخر ، ولا تتعلّق بجيلٍ دون جيلٍ.

وقد يعلم ملأ فرعون أنّ موسى عليه السلام وأخاه هارون لا يريدان ملكاً ، وإنما يريدان إصلاحاً في الأرض ، وإنقاذاً لبني إسرائيل من بطش فرعون وظلمه ، ولـكنّ بطانات السوء تأبى إلا أن تظهِرَ المصلحَ بتلك الصورة ، التي من شأنها

---

[348] وقفات تربوية (171/3).

[349] وقفات تربوية (167/3).

أن يطيرَ لها لبُّ فرعون ومَنْ على شاكلته من الظلمة المستبدين ، لـــذلك لجأوا إلى تلك الدسيســـة ، دسيسة أنّهما يريدانِ مُلكاً ، ولا يريدان رسالة[350].

وهذه الصور من الأذى والصدّ عن سبيل الله تعالى تبيّنُ لنا سنةَ الله عزّ وجل في الصراع بين الحق والباطل ، وسنته سبحانه في الابتلاء والتمحيص.

رابعاً . التدرّج في الدعوة ، ومراعاة المصالح والمفاسد:

أوّل ما أوحي إلى رسول الله (ﷺ) من ربه تبارك وتعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *﴾ [العلق : 1] ، وذلك أوّل نبوته ، فأمره أن يقرأ في نفسه ، ولم يأمره إذ ذاك بالتبليغ ، ثم أنزل عليه: ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ *قُمْ فَأَنْذِرْ *﴾ [المدثر : 1 . 2] فنبأه بقوله: ﴿ اقرأ﴾ وأرسله بـ ﴿ يا أيها المدثر﴾ ثم أمره أن ينذرَ عشيرته الأقربين ، ثم أنذرَ قومه، ثم أنذرَ مَنْ حولهم من العرب ، ثم أنذر العربَ قاطبةً ، ثم أنذرَ العالمين ، فأقام بضـعَ عشـرةَ سـنةً بعد نبوته ، ينذِرُ بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمَرُ بالكفِّ والصـبرِ والصـفحِ ، ثم أذن له في الهجرة ، وأذن له في القتال ، ثم أمره أن يقاتِلَ منْ قاتله ، ويكفَّ عَمّنْ اعتزَّ به ولم يقاتله. ثم أمره بقتال المشركين حتى يكونَ الدين كلّه لله.

ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقســام: أهل صــلح وهدنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة ، فأمر بأنْ يتمَّ لأهل العهد والصــلح عهدهم ، وأن يوفي لهم به ما اسـتقاموا على العهد ، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ، ولم يقاتلهم حتى يُعْلِمهم بنقض

العهد. وأمر أن يقاتل مَنْ نقضَ عهده ، ولما نزلت (سـورة براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسـام كلها ، فأمره فيها أن يقاتل عدوّه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، أو يدخلوا في الإسلام ، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين ، والغلظة عليهم ، فجاهد الكفّارَ بالســيف والســنان ، والمنافقين بالحجة واللســان ، وأمره أن يجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام:

1 . قسم أمره بقتالهم ، وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم ، وظهر عليهم.

2 . وقسم لهم عهدٌ مؤقّت لم ينقضوه ، ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتمَّ لهم عهدهم إلى مدتهم.

3 ـــ وقسم لم يكن لهم عهد ، ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمر أن يؤجّلهم أربعةَ أشـهرٍ ، فإذا انسلخت قاتلهم وهي الأشــهر الأربعة المذكورة ، وهي الأشــهر الحرم المذكورة في قوله: ﴿ فَسِــيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْــهُرٍ﴾ [التوبة : 2] ، وهي الحرم المذكورة في قوله: ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة : 5].

350 دعوة الرسل ص (221) بتصرف.

فالحُرُم هاهنا: أشهرُ التسيير ، أوّلها يومُ الأذان ، وهو اليوم العاشر من ذي الحجة ، وهو يومُ الحجّ الأكبر ، الذي وقع فيه التأذين بذلك ، واخرُها العاشر من شهر ربيع الاخر ، وليست هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة : 36] ، فإن تلك واحدٌ فردٌ ، وهو شهر رجب وثلاثة سردٌ: ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ولم يسيّر المشركين في هذه الأربعة ، فإنّ هذا لا يمكن ، لأنّها غير متوالية ، وهو إنّما أجّلهم أربعة أشهر ، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم ، فقتل الناقض لعهده ، وأجّل مَنْ لا عهدَ له ، أو له عهد مطلق أربعة أشهر ، وأمره أن يُتَمَّ للموفي بعهده عهدَه إلى مدته ، فأسلم هؤلاء كلهم ، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم.

وضرب على أهل الذمة الجزية ، فاستقرّ أمرُ الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له ، وأهل عهد، وأهل ذمة ، ثم الت حالُ أهل العهد والصلح إلى الإسلام ، فصاروا معه قسمين: محاربين ، وأهل ذمة ، والمحاربون له خائفون منه ، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن بربه ، ومسالم له امن ، وخائف محارب.

وأما سيرته في المنافقين ، فإنّه أُمِرَ أن يقبلَ منهم علانيتهم ، ويكلَ سرائرَهم إلى الله ، وأن يجاهِدَهم بالعلم والحجة ، وأمره أن يُعرِضَ عنهم ، ويُغْلِظ عليهم بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهاه أن يصلّي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأخبر أنّه إن استغفرَ لهم فلن يغفرَ الله لهم ، فهذه سيرته في أعدائه من الكفّار والمنافقين[351].

هذا هو خط دعوته (ﷺ) وجهاده منذ أن بعثه الله سبحانه إلى أن مكّن له في الأرض ونصره.

وفترةُ النبيّ (ﷺ) قبل الهجرة والإذن بالقتال محلّ اتفاق بين الأنبياء جميعاً ، حيث إنّ هديهم عليهم الصلاة والسلام قد اتفق في هذه الفترة مع هدي الرسول (ﷺ) في مكة قبل الهجرة حيث الاستضعاف والصبر وكفّ اليد ، أمّا بعد الهجرة ، فكان الجهادُ الذي نصر الله به نبيّه (ﷺ) ، وبما أيده به من المعجزات.

أما الأنبياء الذين لم يشرع في حقهم الجهاد وقتال الأعداء ، فكان نصرُ الله عزّ وجلّ ينزل عليهم بعد أن يكونوا قد تجاوزوا مرحلة البناء والابتلاء بنجاح ، وذلك النصرُ يجيء بمعجزةٍ منه سبحانه ، وايةٍ من آياته ، فينصر الله سبحانه به أنبياءه ، ويهلك به أعداءه ، كما نصر نوحاً بالطوفان ، وهوداً بالريح ، وصالحاً بالصاعقةِ ، وشعيباً بعذاب يوم الظلّة[352].

ومن أهم ملامح الدعوة في فترات الاستضعاف ـــ والذي يتّضح من هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوة أقوامهم في تلك المرحلة ـــ الصفحُ والصبرُ على الأذى ، وكفُّ اليد ، والاستعانةُ بالله على كلِّ وسائل الأذى والصدّ والاستفزاز ، الذي يقومُ به أهلُ الباطل ، وأعداءُ الدعوة.

---

[351] زاد المعاد: (3/159 ـ 161).

[352] وقفات تربوية (3/185).



إنّ القول بالصفح والصبر في الدعوة وكفّ اليد لا يعني أبداً تركَ الجهر بالدعوة إلى التوحيدِ ، وتبصير الناس بدينهم ، وتصـــحيح مفاهيمهم ، وتوعيتهم بكيد أعدائهم ، كما أنّه لا يعني بحالٍ من الأحوال ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والنصـح للناس بتحذيرهم من الفسـاد وعواقبه ، وتعرية الباطل ، وإنما المقصـود تجنب أي شـكل من أشـكال المواجهة بالقوة مع الباطل وأهله للأســباب المذكورة ســابقاً ، وما ســوى ذلك يجب أن يبقى على أشـدّه في الدعوة والبلاغ والتربية ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب الضوابط الشرعية ، وحسب الاستطاعة ، وقدر ما يملك من فعل الأســباب ، وأنْ توطّءَى النفوسُ على تحمّل الأذى والابتلاءات التي تترتب على دعوة الناس وتبليغهم دينهم حتى إذا جاءت العقبات من الباطل وأنصـاره ، فإذا العزائمُ قوية تتحمّل الأذى ، وتثبت ولا تضـعف وتتضـعضـع أمامَ تهويشِ الباطل وتخويفه ، أو أمام ترغيبه ومساوماته[353].

خامساً ـ مراعاةُ السنن الربانية في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ *﴾ [آل عمران: 43].

وقال عز وجل: ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً *﴾ [فاطر : 43].

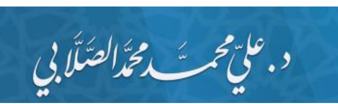
والتاريخُ بما يحتوي من الحوادث المتشـابهة، والمواقف المتماثلة، يسـاعد على كشـف هذه السـنن التي هي غايةٌ في الدقة والعدل والثبات.

وفي إدراكنا للســـنن الربانية فوائدُ عظيمة، حتى لو لم نقدر على تفادي حدوثها والنجاة منها، حيث يعطينا هذا الإدراكُ والمعرفةُ صـلابةً في الموقف، بخلاف من يجهل مصـدر الأحداث، فإنّ الذي يعلمُ تكونُ لديه بصـيرةٌ وطمأنينة، أما الذي يجهل فليس لديه إلا الحَيْرَة والخوف والقلق[354].

---

[353] وقفات تربوية (196/3).

[354] منهج كتابة التاريخ الإسلامي ، د.محمد صامل السلمي ص (60).





ومن السنن الثابتة من خلال دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما يلي:

1 . سنّةُ سوءِ عاقبةِ المكذّبين:

إنّ الذين يكذّبون بايات الله ورسله ، ويظلمون الناس بغير حق ، ويَسْعَوْن في الأرض فساداً ، وعدهم الله بسوءِ العاقبة ، قال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا *وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا *وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا *﴾ [الفرقان : 37 . 39].

2 . العاقبة للمتقين:

قال تعالى عقب قصة نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [الاعراف : 128].

فمن سنن الله تعالى أنَّ العاقبةَ للمتقين ، والهلاكَ للمكذّبين المعاندين.

قال تعالى عن هود عليه السلام مع قومه: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ *﴾ [الاعراف : 72].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [الروم : 47].

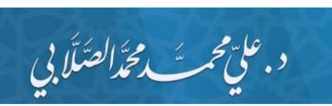
وما جرى من تحقُّق هذه السنة في الماضي ، سيجري مثلُه إن شاء الله تعالى في الحاضر والمستقبل إذا تحققت أسبابها من ظهور المتقين الذين يستحقّون نصر الله عز وجل[355].

3 . الابتلاء سنةٌ جاريةٌ للمؤمنين:

وهذه السنّة من الوضوح بحيث لا تحتاجُ إلى تعليق ، حيث تواترت بها الأدلّةُ الكثيرةُ من القرآن والسنة ، وحيث الوقائع والتجارب في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم تشهد بذلك ، ويكفي قوله تعالى: ﴿ الم *أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ *وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ *﴾ [العنكبوت : 1 ـــ 3]. وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ *﴾ [البقرة : 214].

---

[355] وقفات تربوية (207/3).



وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلتُ يا رسول الله: أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياءُ ، ثم الأمثلُ فالأمثلِ ، فيبتَلى الرجلُ على حَسَبِ دينه ، فإن كان في دينه صَلْباً اشتدّ بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حَسَبِ دينه ، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يتركَه يمشي على الأرضِ ما عليه خطيئةٌ»[356].

وحكمةُ هذا الابتلاء عظيمةٌ ، وفوائدُه في التربية والتمحيص وتمييز الصـــفوف معروفةٌ ، وعلى هذا ينبغي أن توطن النفوسُ على هذه السنة مع سؤال الله عز وجل العافية والثبات[357].

4 . سنّةُ إناطةِ التغييرِ بالبشر:

وتُعتبر هذه من سنن الله سبحانه الخالدة ، التي أناطَ بالبشرية مسؤولية رقيّهم وانحطاطهم ، ومسؤولية إتباعهم للخير أو الشر ، حيث إنّهم مُنِحوا قدراً من الحرية والاختيار ، ومع ذلك القدر من الحرية بعث إليهم المولى عزّ وجلّ الرسل ، التي جاءتهم بالهداية الربانية ، التي فيها خيري الدنيا والاخرة لمن اتبع المرســـلين ، قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى *﴾ [طه : 123].

فإذا وجدت أسبابُ الهداية فإنّ النتائجَ تتبعها ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد : 11].

لذلك فإنّ التغيير يبدأُ من النفس، ســـواء بالارتقاء إلى أعلى ، أو بالانتكاس والهبوط إلى أســـفل ، فهي تعتبر النقط الأساسية في تغيير النفس البشرية من الشرّ إلى الخير أو العكس ، والبشر في كلتا الحالتين هم المسؤولون مباشرة عن إصلاح أنفسهم ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد : 11].

ولقد تعامل رســـول الله (ﷺ) مع هذه الســـنة في تغيير النفوس والمجتمع ، ومن تأمّل هذه الآية الكريمة التي قرّرت حدوثَ التغيير من الله سبحانه مترتباً على حدوثه من النفس البشرية سواء بالسلب أو الإيجاب ، وهذا الترتيبُ يضع البشرية أمامَ مفرق طرق ، ويربط في أعناقهم مسؤولية عدم إحداث التغيير في النفس البشرية والمجتمعات الإنسانية وفق منهج الله القويم ، قال تعالى: وهذه السنةُ ﴿ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ يمكِنُ إدراكها إدراكاً صحيحاً وكلياً إلا باتباع المنهج الرباني ، الذي يربط بين الســـنن والأحداث التاريخية ، ويحدد العلاقة الســـليمة بينهما ، حيث إنّ اتباع المنهج الرباني يغطّي خير الســنن ، ويصـرف الصـوارف ، قال تعالى: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *﴾ [البقرة : 38][358].

---

[356] سنن الترمذي رقم (2400) صححه الألباني رقم (1003).

[357] وقفات تربوية (210/3).

[358] منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص (64).





5 . سنة زوال الأمم بالعلوّ والطغيان:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ *إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ *الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ *وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ *وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ *الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ *فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ *فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ *إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ *﴾ [الفجر : 6 . 14].

فتأمل في هذه الآيات الكريمة التي تقرّرُ سنةً من سنن الله الربانية التي لا تحابي أحداً من خلقه ، إنّها سنةُ زوال الأمم بالترف والفساد ، زوال الأمم بالتجبر والطغيان ، زوال الأمم بالبطر والكبرياء ، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا *﴾ [الاسراء : 16]. أي أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات ، واجتناب المعاصي ، فعصوا وفسقوا ، وحققوا
أسباب الزوال والانهيار ، فحقّت عليهم سنةُ الأخذِ والزوال ، والتدمير والتنكيل ، جزاءَ فسقهم وعصيانهم.

6 . سنة إهلاك الأمم بالظلم والإجحاف:

قال تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ *﴾ [الانبياء : 11].

فإذا ما فشى الظلمُ ، وعدمُ إقامة العدل في أمة من الأمم ، فقد تحقّقت فيهم أسبابُ الهلاك ، وحقت عليهم سنةُ الله بالهلاك ، ووقعت عليهم القاصمة ، لأنَّ الله سبحانه تعالى قد حرّم الظلمَ على نفسه ، وجعله بين العباد محرّماً ، كما في الحديث القدسي: «يا عبادي إنّي حرّمتُ الظلمَ على نفسي ، وجعلتُه بينكم محرَّماً فلا تظالموا»[359].

فإذا اختلّت الموازينُ ، وانعدمتِ القيمُ ، وتحكّم الأقوياءُ في رقاب الضعفاء ، وقسم المجتمع إلى طبقاتٍ سادة وعبيد ، وتلاعبَ السادةُ بحدود الله وأوامره ، فقد حقّت عليه سنةُ الله ، التي لا تحابي أحداً من خلقه ، ولن تجدَ لسنّة الله تبديلاً ولا تحويلاً ، جاء في الحديث الصحيح قوله (ﷺ): «إنّما هلك الذين مِنْ قبلكم أنّهم كانوا إذا سرَقَ فيهم الشريفُ تركوه ، وإذا سرقَ فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ ، وايمُ اللهِ ، لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمّدٍ سرقتْ لقطعتُ يدَها»[360].

7 . سنة لكل أمة أجل:

قد يرى الناسُ موجبات العذاب والانهيار، قد حلّت بأمة من الأمم ، ثم لا يرون زوالها بأنفسهم ، لكنَّ عمر الأمم أطولُ من عمر الأفراد ، ولا تقع إلا بأجل محدود لابدّ من استيفائه ، قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ

---

[359] مسلم رقم (2577).

[360] البخاري رقم (3475) مسلم رقم (1688).



لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ *﴾ [الاعراف : 34]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ *مَا تَسْبَقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ *﴾ [الحجر : 4 ـــ 5]. وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا *﴾ [الكهف : 59].

8 . سنةُ الأيام سِجَالٌ بين الناس:

فمن رحمة الله سبحانه أنْ جعل مداولةَ الأيام سِجالٌ بين الناس ، من شدّةٍ ورخاءٍ ، وقوّة وضعف ، وعزّ وذلّ ، وصحةٍ وسقمٍ ، وغنًى وفقر ، امتحاناً لهم حتّى يعلمَ منهم ـ وهو أعلمُ بما يفعلون ـ الشاكرين من الجاحدين ، والصابرين من الجازعين ، والمجاهدين من القاعدين ، والمنفقين من الممسكين ، قال تعالى: ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ *﴾ [آل عمران: 14][361].

9 . سنة نصر الله للمؤمنين:

لقد قضت حكمةُ الله سبحانه وسنته الجارية على استحقاقِ المؤمنين لنصره إذا أتوا بشروطِ هذه السنّة ، ومن هذه الشروط:

أ . الاستقامة على منهج الله، قال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا *﴾ [الجن: 16].

ب ـــ عدم الإشراك به سبحانه، وتحقيق الإيمان، والعبودية الشاملة ، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا﴾ ﴿ اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *﴾ [النور: 55].

ج . ذكر الله كثيراً، قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *﴾ [الانفال : 45].

فإذا ما حقق المؤمنون شروطَ هذه السنة، كما كان الأمر في عهد داود وسليمان ومحمد عليهم أفضل الصلاة والتسليم، فإنّ نصرَ الله لهم قريب، قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ *﴾ [غافر : 51]. وقال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ *﴾ [محمد : 7]. وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [الروم : 47][362].

[361] منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص (65).

[362] منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص (69).



10 ـ سنة التدافع بين الحق والباطل:

وهذه السـنةُ من أهم السـنن الربانية التي يجب الوقوفُ عندها ، وعدمُ نسـيانها أو الغفلة عنها ، والمتأمِّلُ في دعوةِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم يلمسُ هذه السنة بوضوحٍ وجلاءٍ ، فالنبيُّ (ﷺ) تعامَلَ مع هذه السنة ، وظهرت جلياً في الفترة المدنية مع حركة السَّرايا والبعوث والغزوات التي خاضها النبيُّ (ﷺ) ضدَّ المشركين.

وهذه السـنّةُ متعلقةٌ تعلّقاً وطيداً بالتمكين لهذا الدين، وقد أشـار الله تعالى إليها في كتابه العزيز ، وجاء التنصـيصُ عليها في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾ [البقرة : 251]. وفي قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *﴾ [الحج : 40].

ونلاحظ في اية البقرة: أنّها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصـراع بين الحق والباطل، المتمثّل هنا في طالوت وجنوده المؤمنين، وجالوت وأتباعه، ويذيّل الله تعالى الآية بقوله ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾ [البقرة : 251] مما يفيد أنَّ دفعَ الفسادِ بهذا الطريق إنعامٌ يعمُّ الناسَ كلَّهم[363].

وتأتي ايةُ الحجّ بعد إعلان الله تعالى أنه يدافع عن أوليائه المؤمنين ، وبعد إذنه لهم سـبحانه بقتال عدوِّهم ، ويختتم الآية بتقريرٍ لقاعدة أساسية: ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *﴾.

لقد أدرك الصحابةُ هذه السنة ، وعلموا أنَّ القضـاء على الباطل وتدميره ، لابدّ له من أمةٍ لها قيادة ومنهج ، وقوة تدمغ الباطل وتزهقه ، وأيقنوا أنَّ الحقَّ يحتاجُ إلى عزائم تنهضُ به ، وسواعد تمضي به ، وقلوب تحنو عليه ، وأعصابٌ ترتبط به ، لقد علّمهم النبيُّ (ﷺ) كيف يتعاملون مع هذه السنة ، فاستجابوا لأمرِ الله تعالى عندما أمرهم بالجهادِ في سبيله ، فقد شرع الله عز وجل الجهادَ لهذه الأمة ، وجعله فريضـةً ماضيةً إلى يوم القيامة ، لا يبطله جورُ جائرٍ ، ولا عدلُ عادلٍ ، وما تركه قومٌ إلا أذلهم الله ، وسلّط عليهم عدوَّهم ، وقد شرع الله عز وجل الجهادَ على مراحل ، ليكونَ أروض للنفس ، وأكثرَ ملاءمةً للطبع البشري ، وأحسنَ موافقةً لسير الدعوة وطريقة تخطيطها[364].

هذه بعض السنن التي نلاحظها في دراسة دعوة الأنبياء والرسل. وفي إدراكنا للسنن الربانية فوائدُ عظيمة، حتى لو لم نقدر على تفادي حدوثها ، والنجاة منها ، حيث يعطينا هذا الإدراكُ والمعرفةُ صـلابةً في الموقف ، بخلاف مَنْ يجهل مصدر الأحداث ، فإنّ الذي يعلم تكون لديه بصيرةٌ وطأنينةٌ ، أما الذي يجهلُ فليس لديه إلا الحَيرةُ والخوف والقلق.

---

[363] مفاتيح الغيب للفخر الرازي (3/514).

[364] السيرة النبوية للمؤلف (1/611 ـ 612).



والسنن الربانية نوعان: سنن خارقة ، وسنن جارية:

فالســـنن الخارقة: هي التي يجريها اللهُ على خلاف مألوف الناسِ على يد رســـولٍ من رســـله ، تأييداً من الله له بتلك المعجزة ، كما حوّل العصا حيةً في يد موسى عليه السلام ، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى *فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى *﴾ [طه : 19 ـ 20].

وكما أنبع الماءَ من الصخرةِ عندما ضربها موسى بعصاه ، قال تعالى: ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ [البقرة : 60].

والسنة الجارية نوعان:

سنةٌ متعلقة بالأمورِ الطبيعية ، كسنة الله في تعاقب الليل والنهار ، والشمس والقمر ، فهي تجري وفقَ ناموسٍ محدّدٍ قدَّره الله لها.

وسنة متعلقة بدين الله، وأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، فهي ثابتةً لا تتبدّل ، مثل نصره لأوليائه ، وإهانته لأعدائه ، كما أنّه سبحانه وتعالى إذا حكم في الأمور المتمثلة بحكمٍ ، فإنّ ذلك لا ينتقض ولا يتبدّل ولا يتحوّل ، فهو سبحانه لا يفرّق بين المتماثلين ، وإذا وقع تغييرٌ فذلك لعدم التماثل ، كما أنّ من ســنته التفريقَ بين المختلفين ، كما دلَّ على ذلك القرآن ، قال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ *﴾ [القلم : 35][365].

ومن هذا الباب صــارت قصــصُ المتقدّمين عبرةً لنا ، ولولا القياسُ واطراد فعله وســنته لم يصــحَّ الاعتبارُ بها ، لأنّ الاعتبارَ إنّما يكونُ إذا كان حكمُ الشيء حكمَ نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن[366].

فهذه السنن الشرعية إنّما تدرك من خلال النظر في التاريخ ، وملاحظة مصائر الأمم ، وقيام الحضارات وسقوطها وأسبابُ ذلك[367].

والســـنن الربانية تجيءُ في القرآن غيرَ محدّدة ، لكي تشـــملَ على أكبر قدرٍ من الوقائع ، وتلامسَ أكبرَ عدد من التفاصيل، والجزئيات[368].

كما أنّ معرفة السنن الربانية تفرضُ على الجماعة الواعية المدركة والملتزمة أن تتجاوزَ مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار والهلاك ، وأن تحسنَ التعامل مع تلك السنن ، ومع قوى الكون ، مستمِدّةً ذلك من منهج الله الذي سار عليه أنبياؤه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم.

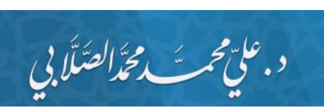
---

365 منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص (60).

366 جامع الرسائل ، لابن تيمية ص (55).

367 تفسير التاريخ ، عماد الدين خليل ص (109).

368 المحكم في العقيدة ص (159 ـ 162).





سادساً . أصناف المدعوّين في دعوة الأنبياء:

فصّل القرآن الكريم أصنافَ المدعوّين الذين اتّصل بهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلا تكادُ تجدُ طبقةً من الناس إلاّ والقرآن يقدّم لك نموذجاً لاتصالِ الأنبياء بهم، ومن هذه النماذج:

1 . الملوك:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ*﴾ [البقرة : 258].

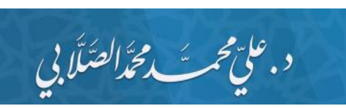
وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾ [يونس : 75].

وقال تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِي لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ *لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ *إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ *وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ *أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ *اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ *قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ *اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ *قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ *إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ *أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ *﴾ [النمل : 20 . 31].

2 . الأغنياء المترفون:

قال هود عليه السلام لقومه في القرآن الكريم: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ *وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ *وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ *فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ *وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ *أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ *وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *﴾ [الشعراء : 128 . 134].

وقال صالح عليه السلام لقومه في القرآن الكريم: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ *﴾ [الاعراف : 74].



3 . الفقراء والمستضعفون:

هذا كلام قوم نوح لنوح عليه الســلام: ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَـرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ *﴾[هود: 27].

وقال تعالى عن قوم موسى عليه السلام: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ *وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ *﴾ [القصص : 4 . 6].

4 . المطففون:

قال تعالى: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ *وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ *﴾ [هود : 84 . 85].

5 . الشاذون:

قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ *إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ *وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ *﴾ [الاعراف : 80 . 82].

6 . المسجونون:

قال تعالى: ﴿ يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ *مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾ [يوسف : 40].

7 . الأقربون:

قال تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ *﴾ [هود: 42].

وقال تعالى:﴿ يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا *﴾ [مريم : 41 . 45][369].

[369] صحيح مسلم (1/271).



سابعاً ـ تفاضل الأنبياء:

أ ـ التفاضل بين الأنبياء ثابتٌ بأدلةِ الكتاب والسنة:

فمن الكتاب:

قوله سبحانه: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: 253].

قوله تعالى: ﴿ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ فالمراد به موسى عليه ، إذ هو المشتهر بين الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بالتكليم ، وقد قال له سبحانه: ﴿ قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي﴾ [الاعراف : 144]. وقال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا *﴾ [النساء : 164].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعَضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا *﴾ [الاسراء : 55].

ومن السنة:

ما رواه أبو هريرة: أنَّ رسول الله (ﷺ) قال: «فُضِّلْتُ على الأنبياءِ بستٍّ: أعطيتُ جوامعَ الكلم ، ونُصِرْتُ بالرعبِ، وأُحلّتْ لي الغنائم ، وجُعلتْ لي الأرضُ طهوراً ومسجداً ، وأُرسلتُ إلى الخلق كافّةً ، وخُتِمَ بي النبيون»[370] ، فقوله (ﷺ): «فضلت على الأنبياء» دليل على وقوع التفاضل بينهم ، والأمةُ مجمعةٌ على أنّ بعض الأنبياء أفضلُ من بعضٍ[371].

ب ـ وجوه تفاضل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بالتفصيل:

بعد أن ذكرنا تفاضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على وجه الإجمال ، وذكرنا الأدلة على ذلك من القرآن الكريم والسنة النبوية ، نذكر الآن وجوه التفضيل على التفصيل ، وهذه الوجوه هي:

الوجه الأول: التفضيل بالتخصيص بمنقبةٍ:

كتكليم موسى عليه السلام ، فمن خُصَّ بمنقبةٍ عظيمةٍ أفضلُ ممّن لم يخصَّ.

الوجه الثاني: التفضيل بالبينات والآيات:

كما قال سبحانه: ﴿ وآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة : 87] ، وقال (ﷺ): «أعطيتُ جوامعَ الكلم ، ونصرتُ بالرعب»[372].

---

370 صحيح مسلم (1/271).

371 مباحث في المفاضلة في العقيدة ، محمد الشظيفي ص (117 ـ 118).

372 صحيح مسلم (1/271).

الوجه الثالث: التفضيل بالتأييد بالملائكة:

كما قال سبحانه في عيسى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة : 253] ، وروح القدس هو جبريل في أظهر الأقوال[373]، فمن كان تأييد الله له من الأنبياء بالملائكة أكثر وأظهر كان أفضل.

وقال ابن السعدي في الآية: وأيده بروح القدس أي: بروح الإيمان ، فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره ، فحصل له بذلك القوة والتأييد ، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عاماً لكل مؤمن بحسب إيمانه ، كما قال: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة : 22] ولكنّ ما لعيسى أعظمُ ممّا لغيره ، لهذه خصّه بالذكر ، وعليه فكلُّ مَنْ كان من تأييد الله له من الأنبياء بالإيمان أعظم وأقوى كان أفضل.

الوجه الرابع: التفضيل بالشرائع:

كما قال (ﷺ): «وأُحلّت لِيَ الغنائمُ ، وجُعِلتْ لِيَ الأرضُ مسجداً وطهوراً»[374] ، وكما قال سبحانه عن محمد (ﷺ) في شأن اليهود: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الاعراف : 157].

وكما حكى الله قول عيسى لليهود: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: 50]. فكل من كانت شريعتهُ أتمَّ وأيسرَ فهو أفضل.

الوجه الخامس: التفضيل بإنزال الكتب:

كما قال سبحانه: [النساء: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا *﴾ ، فمن أُنزل عليه الكتابَ أفضلُ ممّن لم ينزل عليه كتاب.

الوجه السادس: التفضيلُ بما في الكتاب من الشرائع ونحوها بين مَنْ أُنزل إليهم كتاب.

الوجه السابع: التفضيل بالدرجات:

كما قال سبحانه: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: 253] يعني مراتبَ ، ووجوه متعددة[375].

الوجه الثامن: والتفضيل بالمراتب في السماء:

كما في حديث المعراج[376].

الوجه التاسع: التفضيل بكثرة الاتباع:

كما في حديث (الصحيحين) أنّ النبيّ (ﷺ) عُرِضَتْ عليه الأمم ، فرأى النبيَّ وليس مَعَه أحدٌ ، والنبيَّ ومعه الرجلُ والرجلان ، والنبيَّ ومعه العشرةُ ، والنبيَّ ومعه السوادُ الأعظم[377].

---

[373] روح المعاني ، للألوسي (2/3).

[374] صحيح مسلم (145/1) فتح الباري (478/13).

[375] مباحث المفاضلة في العقيدة ص (121).

[376] روح المعاني ، للألوسي (2/3).

[377] صحيح مسلم (145/1) فتح الباري (478/13).



قال بعضُ أهل العلم: والتفضيلُ المرادُ لهم هنا في الدنيا ، وذلك بثلاثة أحوال:
أن تكون ايتُه ومعجزاتُه أبهرَ وأشهرَ.
وأن تكونَ أمّته أزكى وأكثر.
أو يكون في ذاته أفضل وأظهرَ ، وفضله في ذاته راجعٌ إلى ما خصّه الله به من كرامته ، واختصاصه من كلامٍ أو خلةٍ أو رؤيةٍ ، أو ما شاء الله من ألطافه ، وخصوص ولايته واختصاصه[378].

والرســـولُ الذي ينشـــأ بين أهل الكفر الذين لا نبوّة لهم يكونُ أكملَ من غيره من جهةِ تأييد الله له بالعلم والهدى وبالنصر والقهر ، كما كان نوح وإبراهيم عليهما السلام[379].

فهذه جملةٌ من وجوه تفاضلِ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم[380].

ج . أولو العزم من الرسل:

أفضلُ الرسل أولو العزم منهم ، قال سبحانه وتعالى امراً نبيه محمد (ﷺ) وهو أفضل الخلق: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: 35].
فامتدحهم الله عزّ وجلّ بالعزم ، وخصّهم بالذكر من بين رسله ، وأمرَ نبيّه محمداً (ﷺ) ـ وقد فضله على جميع خلقه . أن يقتديَ بهم[381] ، فأفضـــلُ أولياء الله هم أنبياؤه ، وأفضـــل أنبيائه هم المرســـلون منهم ، وأفضـــل المرســـلين هم أولو العزم[382].

قال ابن كثير: لا خلافَ أنّ الرسلَ أفضلُ من بقيةِ الأنبياءِ ، وأنّ أولي العزم منهم أفضلهم[383].

وواضحٌ من الآية السابقة أنَّ الصفةَ البارزةَ في أولئك الرسل أولي العزم هي الصبر ، ذلك أنها هي الصفةُ التي يطلب الله عز وجل من رسوله الكريم (ﷺ) أن يتأسّى بهم فيها من بين صفاتهم العديدة.

---

378 الشفا (227/1 ، 228).
379 الفتاوي (131/15).
380 مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (123).
381 المصدر نفسه ص (130).
382 الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان. لابن تيمية ص (7).
383 تفسير ابن كثير (47/3).





وكل الرسل ذوو صبر وثبات وتحمّل ، فلابدّ أن يكون اختصاصُ (أولي العزم) بهذا الوصفِ الذي وصفهم به الله في كتابه الكريم ناشئاً عن زيادةِ صفةِ الصبر عن الرسل العاديين ، وقدرة فائقة على تحمّل الشدائد ، وثبات في مواجهة المواقف الصعبة ، التي مرّت بهم في أثناء قيامهم بالدعوة إلى التوحيد.

وإذا كان الرسل جميعاً هم هداةُ البشرية وقادتها ، وهم موضع القدوة والأسوة ، فإنّ في حياة أولي العزم من الرسل عِبَراً خاصة ، لطول جهادهم ، وكثرة المواقف الصعبة التي تعرّضوا لها ، وثباتهم في وجه العواصف المزلزلة ، التي تنخلعُ لها القلوب ، واطمئنانهم إلى قدر الله ، ووعده بالنجاة والنصر... ثم فيما حلّ بالمكذّبين من أقوامهم من هلاكٍ وتدمير.

إنّ الدعاة بصفة خاصة هم أَوْلى الناسِ بأخذِ العبرة من سير الرسل جميعاً ، ولكنّهم أجدر بأن يأخذوا العبرة من سير أولي العزم من الرسل ، وعلى رأسهم محمد (ﷺ) ، لأنّه ما مِنْ موقفٍ يتعرّضون له في دعوتهم إلا وله مثيلٌ أو شبيه في سيرهم.. ثم ينتصر الحق بعد الجهاد الطويل ، والجهد الشاق ، وتذهب قوى الباطل بدداً ، ويبقى الحق راسخاً في الأرض ، يظلل الناسَ بظلاله الوارفة ، وينعَمَ الناسُ في ربوعه بالأمن ، بعد أن يكون المجاهدون قد ضحّوا في سبيله بأمنهم وراحتهم ، وأموالهم وأنفسهم ، يذهبُ منهم مَنْ ذهب شهيداً في سبيل الله ، ويبقى منهم من يبقى شهيداً للحق بصبره وثباته وتجرّده لله ، قال تعالى: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً *﴾ [الشورى : 23][384].

1 . تعيين أولي العزم:

أولو العزم خمسةٌ وهم: محمّد ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، وهم الخمسة المذكورون نصّاً في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا *﴾ [النساء : 7]. وفي قوله سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى : 13].

فقد خصّهم الله عزّ وجلّ بالذكر في هاتين الايتين من بين الأنبياء ، وهو تنبيهٌ إلى فضلهم بين سائر الأنبياء ، وقد خصّهم سبحانه بالذكر في ذكره أعظمَ الأمور وأفضلها وأغلظها ، وهو الميثاقُ الذي قال فيه: ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا *﴾ [النساء : 154].

[384] ركائز الإيمان ص (284 . 285).



والوصايا التي شرعها لخلقه ، وذلك ما أخذ على جميع النبيين ، وبَعث به جميع النبيين ، وهو العهدُ الذي بين اللهِ وخلقه ، وهو إقامة الدين ، وعدم التفرق فيه ، وإسلام الوجه له سبحانه ، والدعوة إلى ذلك ، والمجاهدة فيه ، والموالاة فيه ، والبراءة فيه.

وهؤلاء الخمسة صلوات الله وسلامه عليهم أكمل وأعظم مَن قام بهذا الميثاق ، ولذا خُصّوا بالذكر ، وهم الذين تفزعُ الأمم إليهم في الموقف يوم القيامة بعد أبيهم ادم ، فيتراجعونها ، حتى تنتهي إلى محمد (ﷺ) ، كما في حديث الشفاعة[385].

يقول ابن القيم في بيان طبقات المكلّفين:

الطبقة الأولى: مرتبة الرسالة ، وهي العليا على الإطلاق ، فأكرم الخلق وأخصّهم بالزلفى لديه رسلُه.

قال: وأعلاهم منزلة أولو العزم منهم ، المذكورون في قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى : 13] وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق ، وعليهم تدورُ الشفاعة ، حتى يردوها إلى خاتمهم وأفضلهم محمد (ﷺ).

قال: الطبقة الثانية: من عداهم من الرسل ، على مراتبهم من تفضيل بعضهم على بعض[386].

2 . في تفاضل أولي العزم:

ذكر الله عز وجل أولي العزم في ايتي الأحزاب والشورى المذكورتين ، وقد بدأ سبحانه في الايتين بذكر الطرفين أول الرسل وخاتمهم ، وذكر بعدهما الثلاثة مبتدأ بإبراهيم ثم موسى ثم عيسى بحسب ترتيب وجودهم عليهم الصلاة والسلام.

وقد بدأ سبحانه في اية الأحزاب بذكر محمد (ﷺ) لشرفه وفضله عليهم ، وذلك لأنّ في الآية ذكرٌ للنبيين في الجملة، تعميماً ، ثم خصّ الله سبحانه أفضلهم بالذكر بعد دخولهم في العموم ، فناسب ذلك الابتداء بذكر محمد (ﷺ) ، لكونه أفضل هؤلاء المفضلين.

وفي الآية ذكرٌ للميثاق المأخوذ على النبيين ، فهي متعلقة بالأنبياء خاصة ، ولذلك قدم محمد (ﷺ) في الذكر للوجه المذكور ، قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا *﴾ [الاحزاب : 7].

---

385 فتح الباري (395/8) صحيح مسلم (63/1).

386 طريق الهجرتين لابن قيم ص 249 ، مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (135).



أمّا اية الشورى فمتعلقة بالشريعة التي بعثوا بها ، ولذلك بدأ سبحانه بنوح قبل محمّد عليهمـا الصلاة والسلام ، لأن الآية في ذكر دين الإسـلام ، وما وصـى الله به الرسـل ، فناسـب ذلك أن يبدأ بنوح عليه السـلام ، لأنّ رسـالته أول الرسـالات ، ففيه بيانٌ جلي أنّ أول رسـالات الرسـل أوصـتْ بما شُـرِعَ لأمة محمد (ﷺ) من الدين ، فهو دينٌ أصيل مستقيم ، لا عوج فيه ولا اضـطراب ، ثم ذكر سـبحانه مِنْ بين من توسّطوا بين محمد ونوح أشـهر أصـحاب الشـرائع وأفضلهم[387].

فمحمّد (ﷺ) هو أفضـــلُ أولي العزم بلا خلاف ، يقول ابن كثير: ولا خلافَ أنّ محمداً (ﷺ) أفضــــلهم ، ثم بعده إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى عليهم الصلاة والسلام على المشهور[388].

يرى ابن كثير أنّ نوحاً اخرهم في ترتيبهم في الفضل ، وقوله: (على المشهور) كأنه إشارة إلى وجود خلاف في ترتيبهم في الفضـل بعد محمد (ﷺ) ، وقد قطعَ بأنّ إبراهيم بعده في الفضـل في موضـع اخرَ ، فقال في إبراهيم: هو أشـرفُ أولي العزم بعد محمّد (ﷺ)[389].

3 . بعض خصائص أولي العزم:

إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

فمن فضـائله وخصـائصـه عليه الصـلاة والسـلام أنّه خليلُ الرحمن ، لم يشـاركه في الخلة إلاّ محمّد صـلى الله عليهما وسـلم، قال سـبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَـنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْـلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِـنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً *﴾ [النساء : 125].

وقد جعله الله إماماً للناس ، يقتدون به ، ويهتدون بهديه ، قال سـبحانه: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة : 124]. وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [النحل : 120]. وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ *﴾ [البقرة : 130].

---

[387] تفسير ابن كثير (470/3) روح المعاني (154/21).
[388] تفسير ابن كثير (47/3) مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (137).
[389] البداية والنهاية (170/1).



وقد أجرى الله على يديه بناءَ بيته ، الذي جعله قياماً للناس ، ومثابة وأمناً ، وعهد الله إليه ولابنه تبعاً تطهير البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وأمر سبحانه المؤمنين باتخاذِ مقامِهِ مصلى ، قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ ﴿ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ *﴾[البقرة: 125]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *﴾[البقرة: 127].

وقد حصر اللهُ النبوّة والكتابَ من بعده في ذريته عليه الصلاة والسلام قال سبحانه: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ *﴾ [العنكبوت: 27]. فلم يأتِ نبيٌّ بعد إبراهيم إلاّ من ، وهو عليه الصلاة والسلام أول من يُكْسَى يومَ القيامة كما في المتفق عليه من حديث ابنِ عباسٍ قال: قام فينا النبي (ﷺ) يخطبُ فقال: «إنّكم محشورونَ حُفاةً عراةً غُرْلاً ـ كما بدأنا أوّلَ خلقٍ نعيده ـ الآية وإنّ أوّلَ الخلائقِ يُكْسَى يومَ القيامةِ إبراهيمُ»[390].

وقد جمع الله له منزلتين عظيمتين قال سبحانه: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا *﴾ [مريم: 41]. فجمع له بين الصديقية ، وفضائله عليه الصلاة والسلام أكثرُ من أن تحصَى ، وما علمناه غيضٌ من فيضٍ مما جهلناه في إبراهيم عليه الصلاة والسلام[391].

نوح عليه السلام:

فقد جاهد في الله حقّ جهاده ، وهو أول رسول بعث في الناس بعد اختلافهم على دينهم ، واجتيال الشيطان لهم ، وقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، باذلاً وسعه في الدعوة إلى الله ليلاً ونهاراً ، سراً وجهراً ، صابراً على أذى قومه ، لا تُثنيه عن الدعوةِ إلى ربه سفاهاتهم وتعدّياتهم ، قال سبحانه:
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ*﴾ [العنكبوت: 14 ـ 15].
قال سبحانه في نوح: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا *فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا *وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا *ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا *ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا *فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا *﴾ [نوح: 5 ـ 10].
وقال سبحانه عن قوم نوح: ﴿ قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ *﴾ [هود: 32 ـ 33].

---
390 مسلم (2194/4) فتح الباري (377/11).
391 مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (143).





موسى عليه السلام:

وأمّا موسى عليه السلام فهو كليمُ الله ، اشتهر من بين الأنبياء بهذه الحلية ، قال سبحانه: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا *﴾ [النساء: 164]. وقال سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ *﴾ [الاعراف : 143 ـ 144].

وقد ورد ذكر تكليم الله موسى في مواضعَ من كتاب الله ، وهو عليه السلام المعنيُّ في قوله سبحانه: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة : 253].

وقد اتاه الله عز وجل تسعَ آياتٍ بيّناتٍ[392] إلى فرعون وقومه ، ظهرت بهنّ حجته ، وقامت بينته ، أيده الله بهنّ ، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الاسراء : 101]. وقال عز وجل: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ *﴾ [النمل : 12].

عيسى عليه السلام:

فاختُصَّ من بين سائر الخلق بأنّه ولد لأم من غير أب ، وإنّما نفخ جبريل في درع جَيْبِ مريم ، فحملت بعيسى عليه السلام ، وتكلّم في المهد ، واتاه الله من البينات ما فضّله به ، كما في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: 253].

وحكى الله كلام عيسى في المهد ، فكان مما قاله وتظهر فيه من فضائله عليه السلام غررٌ: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا *وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا *وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا *وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا *﴾ [مريم : 30 ـ 33].

وقد قال سبحانه في ذكر ولادة عيسى عليه السلام: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا *فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا *قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا *قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاَمًا زَكِيًّا *قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا *قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا *فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا *﴾ [مريم : 16 ـ 22].

---

[392] التسع هي: العصا ، واليد ، والسنين ، وفلق البحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم.



وكان من الآيات التي اتاها الله عيسى عليه السلام ما قاله سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ *﴾ [المائدة: 110].

وقد رفعه الله عز وجل إليه ، فهو حيٌّ في السماء ، وهو في السماء الثانية كما حديث الإسراء قال سبحانه في تكذيب اليهود في دعواهم قتله عليه السلام ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء : 157 ــ 158]. وهذا من خصائصه عليه السلام ، إذ ليس في الأنبياء حيٌّ إلا هو[393].

وسينزل عليه السلام في اخر الزمان ، كما دلّ عليه الكتاب والسنة والإجماع ، وهذا من خصائصه عليه السلام ، قال سبحانه: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا *﴾ [النساء : 159]. وقد تواترت الأخبار عن النبيّ (ﷺ) بنزول عيسى عليه السلام[394]. قال (ﷺ): «والذي نفسي بيده ليوشكنَّ أن ينزلَ فيكم ابنُ مريمَ حَكَماً مقسطاً»[395]، وقال (ﷺ): «كيف أنتم إذا نزل ابنُ مريم فيكم وإمامُكم منكم؟»[396].

4 . تفضيل نبينا محمّد (ﷺ) على جميع الخلائق:

محمّدٌ (ﷺ) هو أفضل الأنبياء على الإطلاق ، بل هو خير الخلائق أجمعين ، صلوات الله وسلامه عليه ، وقد جاءت في ذلك نصوص لا تحصى كثرةً فيما أوحاه الله عز وجل في كتابه ، وعلى لسان رسوله (ﷺ) ، وفيما كتب وروي من أقوال الأئمة المهديين من السلف الصالح رضوان الله عليهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة : 253] والمعنى بقوله: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ (ﷺ) ، قاله ابن عباس والشعبي ومجاهد وغيرهم[397].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعَضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا *﴾ [الاسراء : 55] ، ذكر المفسرون أنّ الآية في محاجة اليهود ، وأنّ المعنى: وإنّكم لم تنكروا تفضيلَ النبيين ، فكيف تنكرون فضل النبيّ (ﷺ)[398] ؟!.

---

393 مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (146 ، 147).

394 تفسير ابن كثير (578/1).

395 البخاري في الفتح (414/4) مسلم (135/1).

396 البخاري في صحيحه مع فتح الباري (414/4) مسلم (135/1).

397 تفسير الطبري (2/3) تفسير القرطبي (264/3).

398 تفسير البغوي (120/3) تفسير السعدي (143/4).

وقد احتجّ العلماء بقوله تعالى في الأنعام: ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90] لكون النبي (ﷺ) أفضل الأنبياء ، لأن ما تفرّق في الأنبياء من خصال الفضل اجتمعت فيه (ﷺ)[399].

وقال (ﷺ): «أُعطيتُ خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصرْتُ بالرعب مسيرة شهرٍ ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مسجداً وطهوراً ، فأيّما رجلٍ من أمتي أدركتْه الصلاةُ فليصلِّ ، وأحلَّتْ لِيَ الغنائمُ ، وكان النبيُّ (ﷺ) يُبْعَثُ إلى قومِهِ خاصةً ، وبُعِثتُ إلى الناسِ كافةً ، وأعطيتُ الشفاعة»[400].

وفي أحاديث الشفاعة في بيان فضله (ﷺ) على الأنبياء ما هو ظاهرُ ، وقد وصف النبيُّ (ﷺ) ذلك اليوم بأنّه يومٌ يرغبُ إليه فيه الخلقُ كلّهم حتى إبراهيم عليه الصلاة والسلام[401].

وقال (ﷺ): «اتي بابَ الجنةِ يومَ القيامةِ فاستفتحُ ، فيقول الخازنُ: مَنْ أنت؟ فأقولُ: محمّد ، فيقولُ: بكَ أمرتُ لا أفتحُ لأحدٍ قبلكَ»[402].

وقال (ﷺ): «أنا أكثرُ الأنبياء تَبَعاً»[403].

وقال (ﷺ): «أنا سيّدُ ولدِ ادمَ يومَ القيامةِ ، وأوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عنه القبرُ ، وأوّلُ شافعٍ ، وأوّلُ مُشَفَّعٍ»[404].

وقال (ﷺ): «أنا أكثرُ الأنبياءِ تبعاً»[405]، وقال: «لم يصدّق نبي من الأنبياء ما صدقت ، وإنّ من الأنبياءِ ما يصدقه من أمته إلاّ رجلٌ واحدٌ»[406].

وقال (ﷺ): «أنا سيّدُ ولدِ ادمَ ولا فَخْرَ»[407]. وفي معنى: (ولا فخر): أي: لا أتبجّحُ بهذه الأوصاف ، وإنّما أقولها شكراً لربّي ، ومنبهاً أمتي على إنعامه عليّ ، وإنّما نفى الفخرَ الذي هو الكِبْرُ الواقع في النفس ، المنهيُّ عنه ، الذي قيل فيه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ *﴾ [القصص : 18]. ولم ينفِ فخرَ التجمّل بما ذكره من النعم التي بمثلها يُفْتَخَرُ ، ومثله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ *﴾ [القصص : 76]. يعني الأشرِيْنَ ، ولم يُرد الفرحَ بنعمة الله تعالى[408].

---

[399] تفسير الخازن (157/2).

[400] مسلم في صحيحه (188/1).

[401] صحيح مسلم (370/1) فتح الباري (533/1).

[402] صحيح مسلم (562/1).

[403] مسلم في صحيحه (188/1).

[404] المصدر نفسه (188/1).

[405] مسلم في صحيحه (1782).

[406] المصدر نفسه (188/1).

[407] صححه الألباني في صحيح الجامع (21/2).

[408] صفة الصفوة ، لابن الجوزي (183/1).

وقد قال سـبحانه: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ *﴾ [يونس : 58] فأمر سبحانه بالفرح بفضله [409]. ولقد أجمعت الأمة على أنّه أفضل الخلق[410].

د. توجيه النهي الوارد في التفضيل بين الأنبياء:

لا بدّ من اعتقادِ التفاضل بين الأنبياء ، واعتقادِ فضل الرسل على الأنبياء ، وفضلِ أولي العزم على بقية الرسل ، وفضلِ محمّد (ﷺ) على سائر الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليه ، لقيام الأدلة الشرعية الصريحة الصحيحة على ذلك ، وقد ثبتَ عن النبيِّ (ﷺ) نهيه عن التفضيل بين الأنبياء ، ونهيه عن تفضيله خاصةً على بعض الأنبياء[411]، فقد قال (ﷺ): «لا تفضّلوا بينَ الأنبياء»[412] وهو واقع في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله (ﷺ) جالسٌ ، جاء يهودي فقال: يا أبا القاسم ، ضربَ وجهي رجلٌ من أصحابك ، فقال: «أضربته؟» قال: سمعتُه بالسوق يحلِفُ: والذي اصطفى موسى على البشر ، قلت: أي خبيث ، على محمّد (ﷺ) ، فأخذتني غضبةٌ ، فضربتُ وجهه ، فقال النبي (ﷺ): «لا تخيّروا بين الأنبياء»[413]. وفي رواية: «لا تفضلوا بين أنبياء الله»[414].

وروى القصة أبو هريرة بنحوه إلا أنه قال: «لا تخيّروني على موسى»[415].

وفي حديث ثان قال (ﷺ): «لا ينبغي أن يقول أنا خيرٌ من يونس بن متى»[416].

والحاصل أنّ في الحديثين ينهى رسول الله (ﷺ) عن التفضيل بين الأنبياء ، وعن تفضيله على موسى ويونس خاصّةً.

---

[409] مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (153).

[410] المصدر نفسه ص (153).

[411] مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (158).

[412] البخاري مع الفتح (450/6) مسلم (1844/4).

[413] البخاري مع الفتح (70/5) ، مسلم (1844/4).

[414] البخاري مع الفتح (450/6) ، مسلم (1844/4).

[415] مسلم (1844/4).

[416] مسلم (1846/4).

حُمِلَ الحديث في يونس على أنّ النبي (ﷺ) هو المراد ، وهو أفضل منه ومن سائر الأنبياء ، وجميع الخلق قطعاً ، كما تقدّمت الدلائلُ عليه من الكتاب والســنة والإجماع ، وقد وجّه العلماء ذلك النهي لإزالة الإشــكال في أقوال متعددة منها:

* أن النهي وردَ قبل أن يعلمَ النبيُّ (ﷺ) أنّه سـيدُ ولد ادم ، وأنّه أفضــلُ الأنبياء ، فلما علم أخبر به ، وأنّ النهيَ عن التفضيل منسوخ بالقرآن[417].

* أنّ النهيَ من باب التواضع ، وهضم النفس ، ونفي الكبر والعجب.

* أنَّ المرادَ بالنهي منعُ التفضـيل الذي يؤدّي إلى الخصـومة والتشـاجر ، وذلك في مثل الحال التي تحاكم فيها اليهودي مع المسلم عند النبي (ﷺ) كما في حديث

أبي سعيد وأبي هريرة ، فهذا التوجيه ملائمٌ لسبب ورود الحديث[418].
* أنَّ المرادَ بالنهي منع التفضيل الذي يؤدّي إلى توهم النقص في المفضول ، أو الغضّ منه ، والإزراء به[419].

* * *

417 الشفا (226/1) ، تفسير القرطبي (262/3).
418 مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (153).
419 المصدر نفسه ص (164).

الفصل الخامس

الوحي وإثبات النبوة والمعجزات

أولاً . الوحي.

ثانياً . إثبات النبوة.

ثالثاً . المعجزات.

رابعاً . القرآن الكريم معجزة الرسول (ﷺ) الكبرى.

خامساً . الفرق بين المعجزة والكرامة وخوارق السحر.

الفصل الخامس

الوحي وإثبات النبوة والمعجزات

أولاً . الوحي:

1 . تعريف الوحي في اللغة والاصطلاح:

أ . الوحي في اللغة:

اسمُ مصدر من أوحى إليه ، إذا أعلمه بمراده في سرعةٍ وخفاء ، ويدور من ثَـمَّ معنى الكلمة في اللغة على الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجَّه له ، بحيث يخفى على غيره مهما اختلفت أسبابُ هذا الإعلام وواسطته ، لذلك يطلق الوحي على: الإلهام ، والإيحاء ، والإشـــارة ، والكناية ، والأمر ، والرســـالة ، والكلام الخفي ، وكل ما ألقيتَه إلى غيرك[420].

ب . الوحي في لسان الشرع:

إعلامُ الله تعالى مَنْ اصـــطفاه من عبادِه ما أرادَ إطلاعَه عليه من ألوان الهداية والعلمِ بطريقةٍ غيرِ معتادةٍ للبشـــر مع الوعي والإدراكِ التامّ لكلِّ ما يتلقّى[421].

2 . أنواع الوحي:

تعدّدت طرق الوحي وأنواعه ، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَـرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِـلَ رَسُولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ *﴾ [الشورى : 51]. وهي كما يلي:

أ . الرؤيا الصادقة:

الرؤيا الصادقة الصالحة كانت أوّلَ ما بُدِءَى (ﷺ) به من الوحي ، كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها . قالت: أول ما بُدِأى به رســـول الله (ﷺ) من الوحي الرؤيا الصـــالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصبح[422]، وشُبِّهت بفلق الصبح لظهوره ، ووضوحه ، وكذلك الرؤيا ، وقوعها حقٌّ لا مرية فيه[423]. وكان بَدْءُ الوحي للنبي (ﷺ) بالرؤيا الصالحة إرهاصاً للنبوة[424].

---

420 انظر: الصحاح الجوهري (6/252) تهذيب اللغة ، الأزهري (5/297).
421 مناهل العرفان ، الزُّرقاني (1/63).
422 مسلم رقم (252).
423 فتح الباري (1/31).
424 أصول الاعتقاد في سورة يونس ، القحطاني ص (234).



ورؤيا الأنبياء من الوحي ، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ *﴾ [الصافات : 102].

وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ *﴾ [يوسف : 4].

وقال تعالى في شأن نبينا محمد (ﷺ): ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا *﴾
[الفتح : 27][425].

ب ـ أن يلقي المَلَكُ في روع النبيّ (ﷺ) وقلبه دون أن يراه ،

كما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «إنّ جبريلَ عليه السلام ألقى في روعي أنَّ أحداً منكم لن يخرجَ مِنَ الدُّنيا حتّى يستكملَ رزقه ، فاتّقوا الله، وأجملوا في الطلب ، فإن استبطأ أحدٌ منكم رزقَه ، فلا يطلبْه بمعصيةِ الله ، فإنّ الله لا ينالُ فضلُه بمعصيتِه»[426]، وفي رواية: «فإنَّ الله لا يُنالُ ما عنده إلا بطاعته»[427].

ج ـ أن يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس فيتلبّس به ، وهو أشدّه على النبيّ (ﷺ).

روى البخاريُّ عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنّ الحارث بن هشام رضي الله عنه ، سأل رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول الله كيفَ يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله (ﷺ): «أحياناً يأتيني مثلَ صلصلة[428] الجرس وهو أشدُّه ، فَيَفْصِمُ عنّي ، وقد وعيتُ عنه ما قال ، وأحياناً يتمثّلُ لي المَلَكُ رجلاً ، فيكلّمني فأعي ما يقولُ» قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيتُه ينزلُ عليه الوحيُ في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإنَّ جبينَه ليتفصّدُ عَرقاً[429].

وهذا النوع من الوحي كان من أشدِّ أنواع الوحي ، وكان الرسول (ﷺ) يعاني منه مشقةً عظيمةً ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة.

---

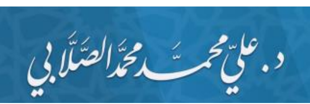
425 المصدر نفسه ص (235).

426 رواه الحاكم في المستدرك (4/2).

427 سنن ابن ماجه رقم (2144).

428 الصلصلة: صوت الحديد إذا حرّك.

429 البخاري رقم (2).



ففي (صحيح مسلم)[430] عن عبادة بن الصامت قال: كان النبيُّ (ﷺ) إذا أنزل عليه الوحي نكسَ برأسِهِ ، ونكسَ أصحابُه رؤوسَهم ، فلمّا سُرّيَ عنه رفع رأسه.

وعن زيد بن ثابت قال: إذا نزل الوحيُ على الرسـولِ (ﷺ) ثقلَ لذلك ، وتحدّر جبينُه عرقاً ، كأنّه الجُمان ، وإن كان في البردِ[431].

وعنه أيضـاً فيما يروي عنه: أنّ رسـول الله (ﷺ) أملى عليه: ﴿ لاَ يَسْـتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّـرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النسـاء : 95]. فجاءه ابنُ أمِّ مكتوم وهو يُملّها عليَّ ، قال: يا رسـول الله ، والله لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ ، وكان أعمى ، فأنزل الله على رسوله (ﷺ) وفخذُه على فخذي ، فثقلتْ عليَّ حتّى خِفْتُ أن ترضَّ فخذي ، ثم سُرِّي عنه فأنزل الله [النساء: 95]

د. مجيء الرسول الملكي في صورة بشر:

وهذه الحالةُ من أيسرِ الأنواعِ ، إذ يرى الرسـولُ (ﷺ) الملَكَ ويخاطِبُه ، ويعي منه ما يقول ، وقد يشـارِكُه في الرؤيةِ غيرُه من أصـحابه ، كما كان جبريل عليه السـلام يأتي رسـول الله (ﷺ) في صورة دحية الكلبيّ رضي الله عنه ، وجاءه مرةً في صورة أعرابي ، فدخل المسجدَ ، وجلس إلى النبي (ﷺ) ، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع يديه على فخذيه ، وأخذ يسـأل الرسـول (ﷺ) ، والرسـولُ (ﷺ) يجيب ، وهو يصـدِّقه بقوله: «صـدقت» حتى عجِبَ الصـحابة منه ، كيف يسـأله ويصـدّقه ، ولما انصـرف ، أمر الرسـول (ﷺ) أصـحابَه أن يردّوه عليه ، فطلبوه ، فلم يظفروا به ، فقال (ﷺ): «هذا جبريلُ جاءَ ليعلّم الناسَ دينهم»[432].

وفي نزول جبريل عليه السـلام على رسـول الله (ﷺ) قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ *عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ *بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ *﴾ [الشعراء : 193. 195].

والوحي بواسطة الملك هو الذي عناه الله تعالى بقوله: ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ *﴾ [الشورى : 51] ، وهذا الرسولُ في الغالبِ هو جبريل عليه السلام ، وقد يكونُ غيره ، وذلك في أحوال قليلة[433].

هـ رؤية الملك بصورته التي خلق الله عليها:

فيوحي إلى الرسول ما شاء الله أن يوحيه ، وقد وقع هذا للرسول (ﷺ) مرّتين ، كما جاء في سورة النجم ، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى *فَكَانَ قَابَ قَوْسَـيْنِ أَوْ أَدْنَى *فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى *مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى *أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى *وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى *عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى *﴾

---

430 مسلم رقم (2335).

431 صحيح الجامع للألباني رقم (3792).

432 مسلم (30/1).

433 الرسل والرسالات للأشقر ص (63).

فقد رأى رسول الله (ﷺ) جبريلَ مرّتين، فقد قال رسول الله (ﷺ) في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى *﴾ جبريل لم أره على صورته التي خُلِقَ عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطاً من السماء سادّاً ما بين السماء والأرض»[434].

فأما الأولى ، فكانت في الأرض بُعيدَ بعثته (ﷺ) بعد أن فتر الوحي. روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، أنه سمع النبيَّ (ﷺ) يقول في فترة الوحي: «بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء ، فرفعتُ بصري ، فإذا المَلَك الذي جاءني بحِرَاءَ جالس على كرسيٍّ بين السماء والأرض ، فرعبتُ منه ، فرجعتُ قلتُ: زمّلوني زمّلوني ، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ *قُمْ فَأَنْذِرْ *وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ *﴾ ﴿ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ *وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ *﴾ [المدثر: 1 ـ 5]. فحمى الوحي وتتابع»[435].

وأما الثانية ، ففي السماء ليلة الإسراء والمعراج ، روى الإمام أحمد رحمه الله بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى *﴾ [النجم : 13] ، قال رسول الله (ﷺ): «رأيتُ جبريلَ عند سدرةِ المُنْتَهى عليه ستمئة جناحٍ ، ينثرُ مِنْ ريشهِ التهاويلَ والياقوت»[436].

و ـ تكليم الله عز وجل لرسوله بلا واسطة ملك من وراء حجاب:

تكليمُ الربِّ لعبده من وراء حجاب ، كما كلّم الله موسى عليه السلام ، وقد ذكر الله سبحانه تكليمه موسى عليه السلام في كتابه حيث قال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا *﴾ [النساء : 164]. وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الاعراف : 143] ، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ *وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ *﴾ [القصص : 30 ـ 31][437].

وكما كلّم الله محمداً (ﷺ) ليلةَ المعراج ، عندما فرض عليه الصلوات الخمس[438]، كما كلّم الله ادم عليه السلام: ﴿ وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ *﴾ [البقرة : 35][439].
وجميع هذه المراتب ثبتت لنبينا محمد (ﷺ) وهذا من خصائصه[440].

---

[434] مسلم رقم (177).
[435] البخاري رقم (4) مسلم رقم (116).
[436] مسند أحمد (421/1) تفسير ابن كثير ، وقال إسناده جيد.
[437] العقيدة الإسلامية ص (221).
[438] البخاري رقم (349).
[439] أصول الاعتقاد في سورة يونس ص (247).
[440] المصدر نفسه ص (248).

و . وحي الإلهام والإرشاد:

أمّا بالنسبة لوحي الإلهام والإرشاد فهو عام ، ولا يختصّ بالأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه ، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ *﴾ [النحل : 68].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ *﴾ [القصص : 7] ، وهذا وحيُ إلهامٍ وإرشادٍ ، لأنّ من شرط النبوة الذكورةَ ، كما بينا سابقاً.

ومن الإلهام قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا﴾ ﴿ آمَنَّا واشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ *﴾ [المائدة: 111].

والإلهام: هو شيءٌ يوقعه الله في رَوْع مَنْ كُتِبَ له ذلك ، فيلقيه إلى الناس ، فيكونُ مطابقاً للواقع ، وليس من الكهانة، ولا من باب النجامة والرمل ، ولا من باب تلقين الشيطان[441].

والفرق بين الإلهام والوحي ، أنّ الوحي معصومٌ من الخطأ ، أما بالنسبة للإلهام فليس معصوماً ، فقد يقعُ وقد ولا يقع[442].

ومن الإلهام ما يجري على لسان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) قال: «لقد كان فيمن قبلَكم منَ الأمم ناسٌ محدثون ، فإن يكُ في أُمَّتِي أحدٌ فإنَّه عمر»[443]، والحديث إلهام خاص[444].

ويأتي الوحي بمعنى الإيماء والإشارة ، فقد سمّى القرآن إشارةَ زكريا إلى قومه وحياً: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا *﴾ [مريم : 11][445].

وأكثر ما وردت كلمة (وحي) في القرآن الكريم بمعنى إخبار وإعلام الله من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ، بطريقة سرّية خفيّة ، غيرِ معتادةٍ للبشر[446].

---

441 مدارج السالكين (1/39 ، 44 . 45).

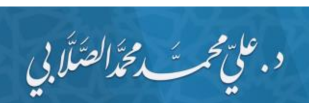
442 أصول الاعتقاد في سورة يونس ص (251).

443 البخاري رقم (3486).

444 مدارج السالكين (1/454).

445 الرسل والرسالات ص (61).

446 المصدر نفسه ص (61).



ثانياً . إثبات النبوة:

تعددت الأدلة والآيات الدالة على نبوة الأنبياء ، فمنها:

1 ــــ الأنبياء أعدل الناس طريقة ، وأصدقهم لهجة ، وأكثرهم وقاراً ، وأزهدهم في المال والجاه ، وأرفضهم لحُبِّ الدعة والراحة[447]، هذا مع كثرة المحن والابتلاء عليهم ، فما زادهم ذلك إلا ثباتاً ، فما ليّنَتْ الشــــدائدُ لهم قناة ، ولا فتّرت المكايدُ لهم عزماً[448]، ومع ذلك كلِّه ما جافوا في حكمٍ على عدو ، ولا شهدوا بغيرِ الحقِّ لصديقٍ.

فنوحٌ عليه السلام لبث في قومه ألفَ سنةٍ إلاّ خمسين عاماً لا يدعوهم إلا إلى الله، ولا يطلبُ منهم غرضاً دنيوياً، ولا مقصداً عاجلاً، وليس له في دعوته هوًى ولا شهوة.

وخاتم الأنبياء وسـيد ولد ادم أجمعين (ﷺ)، عُرِضـت عليه الدُّنيا مُلكاً ورئاسـةً ومالاً، على أن يتركَ ما يدعوهم إليه، فأبى ذلك، وسَرْدُ ذلك يطول عن سائر الأنبياء صلوات الله وسلامهم عليهم أجمعين.

2 ــــ معاداتهم لقراباتهم وأرحامهم الذين جُبِلَتِ الطباع على محبّتهم ، وعلى رجاءِ الاستغفار لهم ، بحيث تركوا مناهجَ ابائهمَ ، التي ولع الطبع باتباعها ، وعادَوْا عشيرتهم التي يتقي مِنْ كلِّ عدوٍ بمحاماتها ، ولقوا في الصبر عنهم الحتوف ، ووقعوا في الدنيا لذلك في أعظم مخوف[449].

فنوحٌ عليه السـلام ترك ابنه وفلذة كبده يغرقُ مع الغرقى ، مع رجائه له أن يكون من الناجين ، ودلّه على ما ينجيه، وهو ترك الكفر بالله ، ثم إنه استغفر من دعائه له ، فقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ *﴾ [هود : 47].

وإبراهيم (ﷺ) تبرّأ من أبيه لما أصــرّ على كفره ، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْــتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ *﴾ [التوبة : 114][450].

3 ــــ أنهم حصلت لهم أغراضهم النبيلة من النصرة ، والنجاة من الهلاك ، كما قال الله تعالى: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [القصص : 83].

---

[447] البرهان القاطع في إثبات الصانع جميع ما جاءت به الشرائع ، لابن الوزير ص (8) الشفا (172/1) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لابن تيمية (456/5 . 282).[463] مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (562/2).

[448] المصدر نفسه ص (562/2).

[449] مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (562/2).

[450] مسائل أصول الدين ص (563/2).





وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [الروم : 47].

وقد استدل بهذا قيصرُ الروم على صِدْقِ نبوة خاتم الأنبياء محمد (ﷺ) لما ذكر له أبو سفيان ـــ وكان وقتئذٍ مشركاً. ذكر له أنّ الحرب سجالٌ بينهم وبينه ، فقال هرقل: هكذا الأنبياءُ تبتلى ، ثم تكونُ العاقبةُ لهم[451].

وفي المقابل أهلك الله مَنْ خالفهم وعاداهم، فأغرقَ قومَ نوح ، وكان غرقهم ايةً لم يستطيع دفعَها إنسٌ ولا جان ، ومسخَ أهلَ السبتِ قردةً وأهلكهم ، وكان ذلك اية ، وأهلك عاداً وثمودَ ، مع قوتهم وشدة بطشهم ، ولنا طريقان إلى العلم بذلك[452] ما يعاينُ ، وما يعقل بالقلوب ، فقد ترك لنا الله آيات مرئية ، كمساكن ثمود ، كما قال الله تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت : 38].

والطريق الثاني: ما يسمع وهو متواتر ، فإنّ العلم بأنّه قد وُجِدَ أنبياء ، وحصل لهم ولأتباعهم النصر على أعدائهم ، وأنّ المكذّبين لهم ، منهم من أغرق ، ومنهم من خُسِفَ به ، ومنهم من أُرسلَ عليه الريحُ العقيم ، العلم بذلك متواتر ، ومعلوم علماً ضرورياً ، ويقول الله عَقِبَ ذكره لإهلاك المكذبين وإنجاء المؤمنين: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ *﴾ [الشعراء : 8][453].

إن تأييد الله لرسله ، ونصرته لهم ، ذو تأثير كبير على نفوس الناس ، فإنّ العرب لما رأت انتصار الإسلام صدّقت ، وامنت ، ودخلت في دين الله أفواجاً ، قال تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ *وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا *﴾ [ا ـ 2].

إنّه يستحيل على الله أن يتقوّل عليه متقوّلٌ ، فيدعي أنّه مرسلٌ من عند الله ، وهو كاذب في دعواه ، ثم بعد ذلك يؤيده وينصره ، ويرسل الملائكة لتثبيته وحمايته ، وقد أشار الله إلى هذا النوع من الاستدلال فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ *﴾ [النحل : 116] ، فحكم بعدم الفلاح وقال: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ﴾ ﴿ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ *ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ *﴾ [الحاقة: 44 ـ 46][454].

4 ـــ زهدهم في الدنيا وإطراحهم للأهواء ، وقلقهم من هول المعاد الأخروي ، وتقطُّع نياط قلوبهم خوفاً من العذاب السرمدي ، وهو شيء عُلِمَ منهم أنّه جدٌّ لا مزاحَ فيه ولا هزل ، وحقٌّ لا تصنّع فيه ولا تكلّف ، وكيف ، والتكلّف لا تخفى اثاره ، ولا تستمر لصاحبه أحواله[455]!!.

---

451 البخاري رقم (9241).

452 مجموع الفتاوي (4/213 ـ 214).

453 مسائل أصول الدين (2/564).

454 الرسل والرسالات ص (204 ـ 205).

455 البرهان القاطع ص (12) الشفا (1/179) ، مسائل أصول الدين (2/565).



والناسُ يميّزون بين الصادق والكاذب خاصةً في دعوى النبوة ، فإنّه يدعيها أصدق الصادقين ، أو أكذب الكاذبين، والنبوّة مشتملةٌ على علوم وأعمال هي أشرفُ العلوم والأعمال ، فكلّها صدقٌ وعدلٌ واستقامةٌ في الأعمال بخلاف الكاذب ، فلابدّ أن يظهرَ عليه ما يدلُّ على بطلانِ دعواه من الكذب والفجور[456]، فلابدّ أن يظهرَ في أقواله كذبٌ واختلافٌ ، وفي أفعاله زَيْغٌ وانحراف ، يقول الله تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ *تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ *يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ *وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ *أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ *وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ *﴾ [الشعراء : 221 ـ 226].

إنّ الرسلَ أزهدُ الناسِ في متاع الدُّنيا وعرَضها الزائل ، وبهرجها الكاذب ، لا يطلبون من الناس الذين يخاطبونهم أجراً ولا مالاً ، فهم يبذلون الخير ، ولا ينتظرون منهم جزاءاً ولا شكوراً ، وقد قصَّ الله علينا في سورة الشعراء طرفاً من قصة نوح وهود وصالح ، ولوط وشعيب ، وكل منهم يقول لقومه: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ *﴾ فهذا اخرُ الرسل يأمره الله بمثل ذلك: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً *﴾ [الفرقان : 57][457].

5 ـ أنّ جمعاً منهم تمكنوا من الدنيا ، واستولوا على ما يحبُّ الناسَ منها ، فلم تتغيّر لهم طريقة ، ولم تتحوّل لهم سجيةٌ، ملك سليمان عليه السلام ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده ، فخدمته الطيرُ وحُشِرت معه ، وحملته الريحُ على متنها ، وسُخّرت له ، ودانت

له ملوك الإنس ، وخضعت له عفاريتُ الجنّ ، وكان البساطُ يحمله في أرجاء الأجواء مستقرّاً على متن الريح الخفاقة ، وكانت الطيرُ تظلّه ، وكانت الأرض في يده ، وكانت أوامره مطاعة ، والخلائق له طائعة[458]، ومع ذلك كان في غاية التواضع ، قائماً بأمر الله ، لا يعصيه.

وسيد المرسلين محمد (ﷺ) كانت حاله مستقيمة ، وأخلاقه على الكمال في كل أوقاته بعد أن تغلّب على أعدائه ، وقبل ذلك ، وقد توفي (ﷺ) وليس عنده درهم ولا دينار يورّثه ، وبقيت له درع مرهونةٌ عند يهودي على ثلاثين صاعاً من شعير ابتاعها لأهله[459]، وكل ذلك من دلائل الصدق[460].

6 ـ قوّة يقينهم بوعود الله ، وتسليمهم نفوسهم لما أمر الله ، وإن كان في ظاهره كالجناية على النفس ، والإلقاء بها إلى التهلكة ، كقول نوح عليه السلام لقومه مع كثرتهم وقوتهم ﴿ ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ *﴾ [يونس : 71] وقال

456 الجواب الصحيح (5/357 ـ 411) ، شرح العقيدة الطحاوية ص (160).
457 الرسل والرسالات ص (201).
458 البرهان القاطع ص (13).
459 البخاري رقم (2916).
460 الجواب الصحيح (5/440) مسائل أصول الدين (2/567).

هود عليه السلام: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ *﴾ [هود : 54 ـ 57].

7 ــ أنها ظهرت لأجلهم خوارقُ العادات ، وبواهِرُ المعجزات: من غير ممارسةٍ لشيءٍ من علوم الطبائعيين والمرتاضين ، والمتفلسفين والمنجّمين ، والمتكهنين، والمصاحبين للجنّ والشياطين ، وأخبروا عن الغيوب ، واتّصلوا في خرق العادات إلى مرتبةٍ قصّر عنها أهلُ الدراية في فنون هذه العلوم[461].

يأتي الحديثُ عنها مفصلاً في المعجزات بإذن الله تعالى ممّا يدلُّ على أنّ ما جاءوا به ممّن لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ، لكونها من عند الله سبحانه وتعالى.

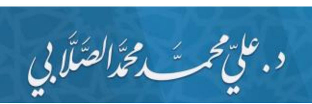
8 ــــ عدم اختلافهم ، فأخبارُهم كلُّها صدقٌ ، ولا تناقُض بينها ، وما جاءوا به من الأعمال وتفاصيل الشرائع دالٌّ على أنّ ما جاءوا به هو من عند الله العزيز العليم الحكيم. ألا ترى أنَّ النجاشيّ لما استخبر من هاجر من الصحابة إلى الحبشة عمّا يخبر النبي (ﷺ) به ، واستقرأهم القرآن ، فقرؤوا عليه ، فقال: (إنّ هذا والذي جاء به موسى عليه السلام ليخرجُ من مشكاةٍ واحدةٍ)[462]، وكذلك ورقة بن نوفل لما قالت له خديجة رضي الله عنها: أي عمّ ، اسمع من ابن أخيك ما يقول ، فأخبره النبي (ﷺ) بما رأى ، فقال: هذا الناموسُ الذي أنزل الله على موسى[463]، وكذلك هرقل لما سأل أبا سفيان: بماذا يأمركم؟ أجاب: يأمرنا أن نعبدَ الله وحده ، لا نشركَ به شيئاً ، وينهانا عمّا كان يعبد اباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، قال هرقل: وهذه صفةُ نبيٍّ[464].

9 ـ عجز من عاصرهم عن عدِّ كذبة واحدة على واحدٍ منهم ، في جميع عمره ، من جميع الأمور التي ادّعاها ، وكان هذا من الدلائل عند هرقل ، إذ سأل أبا سفيان: فقال: أكنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: فعرفتُ أنّه لم يكنْ ليدعَ الكذبَ على الناسِ ويكذبَ على الله[465].

10 ـ نسبهم وسيرتهم وأخلاقهم: فهم الأحسنُ في ذلك كله ، وقد سأل هرقلُ أبا سفيان عن نسب رسول الله (ﷺ) فأجاب أبو سفيان: هو فينا ذو نسب ، قال هرقل: كذلك الرسلُ تبعث في نسبٍ من قومها[466]، وقد قالت خديجة

---

461 البرهان القاطع ص (14).
462 البخاري رقم (3) مسلم رقم (160).
463 البخاري رقم (2941).
464 البخاري رقم (2941).
465 البخاري رقم (2941).
466 البخاري رقم (2941).





رضـي الله عنها لرسـول الله (ﷺ) أول نزول الوحي عليه: كلا واللهِ لا يخزيك الله أبداً ، إنّك لتصـلُ الرحمَ ، وتَصْـدُقُ الحديثَ ، وتَحْمِلَ الكلَّ ، وتَقْرِي الضيفَ ، وتعينُ على نوائبِ الحقِّ[467].

قال قوم صـالح لصـالح عليه السـلام: ﴿ قَالُوا ياصَـالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود : 62]. مع كمال أمانتهم ، وعدم غدرهم.

وكان من أسـئلة هرقل لأبي سـفيان عن صـفة النبيّ (ﷺ): فهل يغدر؟ قلت: لا ، قال هرقل: وكذلك الرسـلُ لا تغدر[468].

11 . البشارة بمبعث خاتم الأنبياء محمد (ﷺ) في الكتب السابقة: فقد وردت صفته في التوراة والإنجيل ، وذكر مكان ظهوره ، وصـفة أمته ، وخاتم النبوة بين كتفيه على ظهره ، وما يحصـل له من الهجرة والتمكين والنصـر على أعدائه ، وظهوره على الدين كله ، فكان ذلك كما أخبر الله ، وقد أسـلم بذلك كثيرٌ من أهل الكتاب ، ولا يكون الخبر بذلك إلا من عند علام الغيوب ، الذي بيده الأمر كله[469]. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَم يابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف : 6]. وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ *﴾ [الشعراء : 197].

فالآية تبيّنُ أنّ من الآيات البينات الدالة على صدق الرسول (ﷺ) وصدق ما جاء به علمُ بني إسرائيل بذلك ، وهو علمٌ مسـجّلٌ محفوظٌ مكتوبٌ في كتبهم التي تداولونها ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ *﴾ [الشـعراء : 196][470]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ *رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُـولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [البقرة : 127 ـ 129].

وقد اسـتجاب الله دعاء خليله إبراهيم ، وابنه نبيّ الله إسماعيل عليهما السـلام ، وكان محمد (ﷺ) هو تأويلُ تلك الاستجابة[471].

---

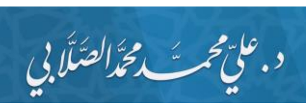
[467] البخاري رقم (2941).

[468] البخاري رقم (2941).

[469] مسائل أصول الدين (570/2).

[470] الرسل والرسالات ص (162).

[471] الرسل والرسالات ص (163).





وقال تعالى: ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ [الاعراف : 156 ـ 157].

وضرب الله في التوراة والإنجيل مثلين لرسولنا محمد (ﷺ) ولأصحابه: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *﴾ [الفتح : 29].

ثالثاً ـ المعجزات:

لم يـرد في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة مصطلحُ المعجزة ، وإنّما ظهر هذا المصطلح في وقتٍ متأخر بعضَ الشيء، عندما دوّنت العلوم ، ومنها علمُ العقائد ، في أواخر القرن الثاني الهجري وبداية الثالث ، لذا نجد أنّ القرآن الكريم قد استعمل كلمة: (الآية) في صدر إعطاء الدلائل للرسل عليهم الصلاة والسلام لحاجّة الأقوام ، يقول تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ*﴾ [الأنعام: 109].

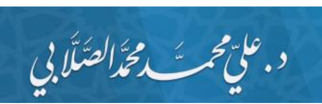
كما استعمل القرآن الكريم تارة لفظة البينة ، كما في قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الاعراف : 73]. والبينة هي الدلالةُ الواضحةُ عقليةً كانت أو حسية.

وتارة يستخدم القرآن لفظة البرهان ، يقول تعالى:
﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ *﴾ [القصص : 32].

والبرهان بيّن للحجة ، وهو أوكد الأدلة ، ويقتضي الصدقَ لا محالة[472].
كما يأتي التعبير عن المعجزة أحياناً بالسلطان ، قال تعالى:
﴿ تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *﴾ [ابراهيم : 10].

ولعلّ اختيارهم هذا المصطلح بدلاً من الآية والكلمات الأخرى لإزالة الدلالة المشتركة في الآية من القرآن الكريم ، كما في قوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ [البقرة : 106] ، وبين الآية بمعنى العلامة البارزة الدالة على

[472] مفردات الراغب ، الأصفهاني ص (45).



وجود الخالق سبحانه وتعالى ووحدانيته كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لأَيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ *﴾ [آل عمران: 190].

وبين الآية بمعنى البناء العالي ، كما في قوله تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ *﴾ [الشعراء : 128] ، وكذلك الخروج من الدلالات المشتركة في الكلمات الاخرى[473].

1 . تعريف المعجزة:

أمرٌ خارقٌ للعادة ، مقرونٌ بالتحدّي ، سالمٌ عن المعارضة ، يظهره الله على يدِ رسله[474].

فالمعجزة أمر خارق للسنة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الكون ، ولا تخضع للأسبابِ والمسبباتِ ، ولا يمكن لأحدٍ أن يصل إليها عن طريق الجهد الشخصي والكسب الذاتي ، وإنّما هي هبة من الله سبحانه وتعالى ، يختار نوعها وزمانها ليبرهنَ بها على صدق رسوله الذي أكرمه بالرسالة.

والسحرُ والأعمالُ الدقيقة التي يمارسها بعضُ أهل الرياضيات البدنية أو الروحية لا يدخلُ تحت اسم الخارق ، لأنّ لكلِّ من تلك الأمور أساليبَ ووسائلَ يمكن لأيّ إنسانٍ أن يتعلّمها ويتقنها ويمارسها ، فإذا اتبع الأسباب والأساليب المؤدية إلى نتائجها أمكنه بواسطة الجهد الشخصي والمران والممارسة أن يتوصل إلى تلك النتائج.

أما الأمور الخارقة فلا تدخلُ تحت طاقة البشر، وليست لها أسباب تؤدي إليها[475].

2 . شروط المعجزة:

ومن خلال التعريف السابق للمعجزة نستطيع أن نتلّمس شروطها:

أ . أن تكون من الأمور الخارقة للعادة:

سواء كان هذا الأمر الخارق من قبيل الأقوال ، كتسبيح الحصى ، وحنين الجذع، ومثل القرآن الكريم ، أو يكون من قبيل الفعل ، كانفجار الماء بين أصابع الرسول (ﷺ) ، وتكثير الطعام القليل ، وكفايته للجمع الكثير ، أو من قبيل الترك: مثل عدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وعدم إغراق الماء لموسى وقومه ، وعدم سيلانه عليهم.

ب . أن يكون الخارق مِنْ وضع الله وإنجازه:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ *﴾ [غافر : 78].

فالمعجزةُ هبةٌ من الله سبحانه وتعالى ، لا يستطيعُ أحدٌ أن يعيّنَ زمانها ونوعها: ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيات عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الانعام : 109].

---

473 مباحث في إعجاز القران ، د. مصطفى مسلم ص (14).

474 المصدر السابق ص (14) الإتقان ، للسيوطي (3/4).

475 مباحث في إعجاز القران ص (14).

ج . سلامتها من المعارضة:

فلو استطاع الخصمُ أن يأتي بمثل ما جاء به النبيُّ بطلت حجته، ولم يسلّم له ادعاؤه أنّ هذه الخارقة أو هذا الأمرَ دليلٌ على صدقه ، وأمارةٌ على بعثهِ من قبل الله سبحانه وتعالى.

د . أن تقع على مقتضى من يدِّعيها:

يشترط في المعجزة أن تكون موافقة لقول مدّعيها، غير مخالفة له ، سواء كان هذا الأمر مطابقاً لطلب المعاندين ، أو مخالفاً له، لأنّ الرسول يبلِّغ عن ربه في تحديد نوع المعجزة وزمانها ، ولا دخل له في هذا التعيين ، فإذا جاءت المعجزةُ على وجهٍ غير الوجه الذي عيّنه الرسول لم تكن دليلاً على صدقه ، بل تثيرُ عندئذٍ الشكوك حول ادّعائه.

ومن هذا القبيل ما وقع لبعضهم ممّا يطلق عليه العلماء (اسم الإهانة) فإذا مسحَ على المريضِ ليُشفى فمات، أو بصق في البئر لتكثير مائه فغار، كما ذكرت بعض الروايات في شأن مسيلمة الكذاب، فلا تكون معجزةً، إنما هي إهانةٌ له، ودليلٌ على كذبه.

ج . التحدّي بها:

وهذا شرطٌ أساسي في المعجزة لإثباتِ عجز الجاحدين ، وإقامة الحُجّة عليهم ، فإنّ عدم التحدي لمعجزة لا يبرزها كدليلٍ وبرهانٍ لكي لا يقول قائل فيما بعدُ: إنّه لو تحدّى بالمعجزة القومَ لتمكّنوا من الإتيان بها ، والتحدّي يكونُ بالقول الصريح بأن يقولَ الرسولُ: دليل صدقي وصحة ما جئت به هو عجزكم عن الإتيان بمثل هذا الأمر الذي أفعله، وهذا هو الغالبُ في معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام[476].

هـ أن يستشهد بها مدَّعي الرسالة على الله عز وجل:

أي يجعلها الرسول دليلَ صدقٍ رسالته ، لإثباتها ، وينسب إليه هذا الأمر إلى الله عز وجل ، فيقول مثلاً: ايتي أن يقلبَ الله سبحانه وتعالى هذه العصا ثعباناً ، أو أن يُحييَ الله سبحانه وتعالى هذا الميت عند قولي له (قم).

و . تأخّر الأمر المعجز عن دعوى الرسالة:

لأنّه بمثابة الشاهد ، ولا يقوم الشاهِدُ إلا بعد قيام الدعوى ، أما إذا تقدّم على دعوى الرسالة ، فيكون من قبيل (الإرهاص) ، وهي الأمورُ التي تتقدّم على الرسالة ، وتمهّد لها ، كتظليل السحابةِ لرسول الله (ﷺ) وهو في سفره إلى الشام قبل البعثة[477].

---

[476] مباحث في إعجاز القران ص (14).

[477] مباحث في إعجاز القران ص (17).





3. المعجزة قرينةُ الرسالة:

ولولا المعجزةُ لأشــكلَ الأمرُ على الناس ، والتبس أمر الصــادق بغيره ، ولما ســلمت الدعواتُ من مدّعين كاذبين ، وتأييد الرسول باية صدق سنة إلهية في رسالات الأنبياء جميعاً ، والقرآن الكريم يوضّحُ هذه السنة ، ويقرّرها كما ورد في قصـص الأنبياء والأمم السـابقة ، ولم يؤاخذِ الأقوامَ عندما طالبوا رسلَهم بالآيات الدالّة على صـدقهم ، إنّما اخذهم عندما عطّلوا ملكاتهم العقلية ، ولم يتدبّروا أثرَ الحكمة والتدبير فيما حولهم ، أو أصــرّوا على نوع معيّنٍ من الآيات من قِبَلِ العناد والجحود على العادات الجاهلية الموروثة من الاباء ، الذين لم يكونوا على هدى من ربهم[478].

إنَّ الرسول لا يتميّز عن سائر الناس بجسمه ولا بكلامه ، فكان لا لابدّ من أمارةٍ تدلُّ على صدقه في سفارته هذه بين الخالق سبحانه وتعالى وبين خلقه.

وقد يعطى الرسولُ الآية المعجزة عند تبليغه الوحيَ أوّل مرة من غير سؤالٍ وتطلّع كما حدث لموسى عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *يَامُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ *إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ *وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ *﴾ [النمل : 8 ـ 12].

وقد يُعطاها الرســول بعد تكذيب القوم له ، ومطالبتهم بالآية ، كما حدث لأغلب الأنبياء عليهم صــلوات الله وسلامه: ﴿ قَالُوا ياهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ *﴾ [هود : 53].

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ *مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ *قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ *﴾ [الشعراء : 153 ـ 155].

وعلى الحالتين فإنّها هبةٌ من الله ســبحانه لرســله ، فهو المعطي ، وهو الذي يختارُ نوعَها وزمانها ومكانها ، ودورُ الرســول فيها أنّها تتجلّى على يده ، وليس بالضــرورة أن تكونَ نفسَ الخارقة التي طلبها القوم ، فإنَّ مدلول الخارقة والإيمان والتصـديقِ لصـدق الرسـول يتحقّق بوجودِ المعجزةِ مطلقاً ، ولا يتوقّف على نوع خاص من المعجزات ، بل إنّ سنة الله تقضي بتعجيل عذاب الاستئصال للذين لم يذعنوا للاية الخاصة التي سألوها: ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنْظَرُونَ *﴾ [الانعام : 8][479].

---

[478] المصدر نفسه ص (18).

[479] مباحث في إعجاز القران ص (24).

4 . سنة الله سبحانه وتعالى في معجزات الأنبياء:

باستعراض معجزات الأنبياء السابقين ، ومعجزات خاتمهم عليهم الصلاة والسلام أجمعين ، نلاحظ أنَّ المعجزة تختار من بيئة القوم الذين يُرسَلُ الرسول إليهم ، ومن نوع المشهور في عصرهم مما يتلاءم مع مستواهم الفكري ، ورقيِّهم الحضاري ، لتكون الحجةُ أقوى.

أ ــ الأنبياء الذين عاشوا في البلاد العربية كانت معجزاتهم مناسبةً لبيئة العرب الصحراوية ، فمعجزةُ صالح عليه السلام كانت ناقةً غريبة المنشأ والمولد بين نوقِ أهل البادية قال تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ *مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ *قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ *وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ *﴾ [الشعراء : 153 . 156].

ب ـ وكان السحر منتشراً بين المصريين عامتهم وخاصتهم استرهبهم فرعون وجنوده به ، فجاءت معجزات موسى عليه السلام من جنس المشهور بين قومه ، فمن معجزاته الرئيسية: العصا: ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ *﴾ [الشعراء : 32]. واليد: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل : 12]. فظاهر هاتين المعجزتين لا يختلفُ عمّا كان متداولاً بين سحرة فرعون[480] ولكنّ أهل الدرايةبالسحر كانوا يميّزون بين السحر ، وبين ما هو خارج قوى السحرة ، بل من صنع الله ، لذا كانوا أول المؤمنين به.

ج ـــ وبعد عصر موسى عليه السلام انتشرت الفلسفة اليونانية وهي أساس الفلسفة الأوربية فيما بعد ، وكانت تقوم على الأخذ بالأسباب والمسبّبات ، وتولُّد المعلول من العلة في انتظام قائمٍ لا يتخلّف ، فجاءت معجزاتُ أنبياء بني إسرائيل في هذا العصر خارقةً للأسباب والمسبَّبات ، لتثبتَ أنَّ الكونَ كلّه بإرادةِ مريدٍ مختارٍ لا ليفعل إلاّ ما يريدُ ، ولا يصدر عنه بغير إرادته الثابتة شيءٌ[481].

فمعجزات سليمان عليه السلام مثلاً جاءت مناهضةً لتلك النظرية التي تقول إنّ المخلوقات نشأت عن الموجد الأول نشوء العلّةِ من المعلول ، فكانت حياةُ نبيّ الله سليمان في ملكه تجري على هدم هذا النظر ، فمن معجزاته: تسخير الجن والطير له ، وتعليمه منطق الطير والحيوان: ﴿ وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ *حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ *فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ *وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِي لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ *لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ

[480] المصدر نفسه ص (12).

[481] المعجزة الكبرى ، للشيخ محمد أبي زهرة ص (437) مباحث في إعجاز القران ص (24).



*فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ *﴾ [النمل : 16 ـ 22]. تسخير الريح له: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [سبأ : 12].

د ـ وفي عصر اليونان ازدهر الطب والفلسفة المبنية على الأسباب أيضاً فكانت معجزاتُ عيسى عليه السلام من جنس ما اشتهر به هذا العصر.

* فكانت ولادته إبطالاً صــارخاً لهذه النظرية ، فإنّ المعتاد في حياة الكائنات الحية أنَّ المولود يولد من أبوين ، فجاء عيسى عليه السلام من غير أب ، فكان ذلك خرقاً للأسباب الطبيعية الجارية: ﴿ رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا *قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُــــولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاَمًا زَكِيًّا *قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا *قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا *فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا *﴾ [مريم : 17 . 22].

* وتحدُّثه في المهد حديث الحكماء: ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَــبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا *وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَـانِي بِالصَّـلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا *وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَـقِيًّا *وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا *﴾ [مريم : 29 . 33].

* وتصـويره من الطين كهيئة الطير ثم نفخه فيها فيكون طيراً بإذن الله: ﴿ وَرَسُـولاً إِلَى بَنِي إِسْـرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيـهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِىءُ الأَكْمَـهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *﴾
[آل عمران: 49].

هــ وقبل بعثة خاتم النبيين (ﷺ) بلغت الفصاحةُ والبلاغةُ وفنونُ القول شأواً بعيداً ، وأخذت الكلمة مكاناً في نفوس العرب من التقديس والتعظيم لم يبلغه شيءٌ اخر ، ممّا حدا بهم أن يُعلقوا المعلّقات السبع في جوف الكعبة ، وإذا علمنا أنَّ الكعبة كانت تعتبر أقدسَ مكانٍ عند العرب في جاهليتهم أدركنا مكانةَ الكلمةِ في نفوسهم.

والحكمة الإلهية في اختيار المعجزة من جنس ما اشتهر بين القوم هي أنَّ الإنسانَ إذا أُتِيَ من قِبَلِ ما يعتبره مفخرته ، ومجالَ إجادته واعتزازه تكون الحجّةُ عليه أقوى ، والمعجِزُ أكثر فعلاً وأثراً.

ولتكون معجزةُ النبي الخاتم (ﷺ) أشـــدَّ لمعاناً ، وأســـطعَ برهاناً ، فقد جعل الله معجزته كتاباً متلواً معجزاً ، وهو الإنسان الأمي الذي لم يَخُطَّ بيده كتاباً ، ولم يتلقَّ من أحدٍ من البشر معرفةً[482].

[482] المعجزة الكبرى ص (437) مباحث في إعجاز القران ص (25).





5 . بعض معجزات الرسول (ﷺ) الحسية:

قد جرى على يد رسولنا صلوات الله وسلامه عليه العديد من الخوارق الحسية والكونية ، التي شهد لها مَنْ حضرها انذاك ، وجاءت بها الأخبار الصحيحة ، ومن تلك المعجزات الحسية ما يلي:

أ . انشقاق القمر:

من المعجزات الخارقة التي أيّد الله بها محمّداً (ﷺ) حين سألته قريش أن يريَهم ايةً تدلُّ على صدقه ، فأراهم انشقاقَ القمر ، فلمّا رأوا ذلك قالوا: هذا سحرٌ منه (ﷺ) لأعينهم ، إلاّ أنَّ بعضَ القوم قالوا: انظروا ما يأتيكم به السفّار ، فإنّ محمداً لا يستطيع أن يسحرَ الناسَ كلهم ، فلما سألوا مَنْ قدم عليهم من المسافرين أجابوهم برؤية القمر وقد انشقّ إلى نصفين.

وقد أثبت القرآن هذه المعجزة صراحةً في قوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ *﴾ [القمر : 1 ــ 2]. كما جاءت بها أحاديث صحيحة ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إنّ أهل مكة سألوا رسول الله (ﷺ) أن يريهَم ايةً ، فأراهم انشقاقَ القمر[483].

ب . نبع الماء من بين أصابعه (ﷺ) على مرأى ومشهد من الصحابة:

ومن ذلك ما روي عن جابر رضي الله عنه قال: عطش الناسُ يومَ الحديبية ، ورسول الله (ﷺ) بين يديه ركوةٌ ، فتوضَّأ منها ، ثم أقبل الناسُ نحوه ، فقال رسول الله (ﷺ): «ما لكم»؟ قالوا: يا رسول الله ليس عندنا ما نتوضَّأُ به ، ولا نشربُ إلاَّ مِنْ ركوتِكَ ، فوضع النبيُّ (ﷺ) يَدَهُ في الركوةِ ، فجعل الماءُ يفورُ من بين أصابعه ، كأمثال العيون قال: فشربنا وتوضَّأنا ، قلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: لو كنا مئةَ ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مئةٍ[484]. وقد علّق القاضي عياض على ما ورد من أحاديث حول هذه القصة قائلاً: هذه القصةُ رواها الثقات والعددُ الكثيرُ عن العدد الكبير من الصحابة ، ومنها ما رواه الكافة عن الكافة متصلاً بالصحابة ، وكان ذلك في مواطن اجتماعِ الكثيرِ منهم في المحافلِ ومجمع العسكرِ ، ولم يَرِدْ عن أحدٍ منهم إنكارٌ على راوي ذلك ، فهذا النوع ملحق بالقطعي من معجزاته[485].

483 مباحث في إعجاز القران ص (26 . 27).

484 البخاري رقم (3637) مسلم (2802).

485 البخاري رقم (4125).



ج . معجزة الإسراء والمعراج:

قد سجل القرآن هذه المعجزة في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *﴾ [الاسراء : 1].

كما أشار القرآن الكريم إلى بعض تلك الآيات التي أراد أن يريها لعبده محمّداً في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى *عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى *عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى *إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى *مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى *لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى *﴾ [النجم : 13 . 18].
كما سجلت تفاصيلها أحاديثُ الرسول (ﷺ)[486].

د . معجزات أخرى:

ومن تلك المعجزات المادية: معجزةُ تكثير الطعام القليل ، حتى أشبعَ العددَ الكثير ، ومعجزةُ حنين الجذع ، واستجابةُ الجماداتِ لدعائه لها ، وأتيانها له ، ومعجزات إبراءِ المرضى ، وردّ ما انفصل من بعض أجزاء الإنسان ، وغير ذلك من الآيات[487].

[486] الشفا بتعريف حقوق المصطفى (497 . 496/1).
[487] البخاري رقم (3207).



رابعاً ـ القرآن الكريم معجزةُ الرسول (ﷺ) الكبرى:

إن تلك الآيات المعجزة والعجائبَ الخارقة للعادة على كثرتها وتنوعها وصـــحّة وقوع حوادثها ، لم يقع بها التحدّي العام لإثبات دعوى الرسالة كما وقع بالقرآن الكريم ، فقد كانت معجزته (ﷺ) الكبرى التي وقع بها التحدّي ، وبقيت على مرّ الزمان ، وخوطبت بها البشـرية جمعاء ، هي القرآن الكريم ، وقد ورد في الحديث عنه (ﷺ) أنه قال: «ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أُعْطِيَ من الآيات ما مِثْلُهُ امَنَ عليه البَشَـــرُ ، وإنّما كانَ الذي أُوْتِيْتُهُ وحياً أَوْحَاهُ اللهُ إليَّ ، فأرجو أنْ أكونَ أكثرَهم تَبَعاً، يومَ القيامةِ»[488]، فتحدى الله سبحانه وتعالى العربَ بأن يأتوا بمثل هذا القرآن.

قال تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُـــهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا *﴾ [الاسراء : 88].

وتنزَّل معهم في التحدّي ، وطلب منهم أن يأتوا بعشـر سور مِنْ مثله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْـرِ سُـوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ *﴾ [هود : 13].

ولما عجزوا عن ذلك ، وظلّوا على عنادهم واسـتكبارهم ، زادهم تحدياً بأن يأتوا بسـورة: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ *﴾ [يونس : 38].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُـــورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُـــهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ *فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ *﴾
[البقرة : 23 ـ 24].

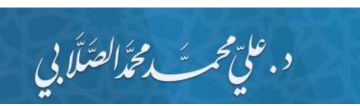
وظلَّ التحدي قائماً منذ ذلك الحين ، عجزَ عنه فصحاءُ العرب وبلغاؤهم وعجزتْ عنه البشريةُ كلُّها على مدى أربعة عشـر قرناً من الزمان ، وإنهم لعاجزون حتى قيام السـاعة ، فقد كان أولى الناس بالردّ على التحدي أولئك الذين كانت صناعتهم الفصاحة والبلاغة يتيهون بها على الناس.

ولقد كانت معجزاتُ الرســـل كلهم مِنْ قبلُ معجزاتٍ حســـيةً وكونيةً ، تتعلّق بالســـنن الجارية في الكون وتخرقهَا ، فمعجزتا نوح وهود عليهما السـلام كانتا حسـيتان كونيتان ، ومعجزة صـالح عليه السـلام كانت ناقة عجيبة لم يعهد البشر لها مثيلاً.

وكذلك كانت معجزات موسى وعيسى عليهما السلام التي أشرنا إليهما انفاً ، أشياءَ خارقةً للسنن الكونية.

---

488 البخاري رقم (4981).



أما معجزة الرسول (ﷺ) فهي معجزةٌ عقليةٌ معنوية جامعة ، وليست معجزةً حسية ولا كونية ، وإن كان للرسول (ﷺ) معجزاتٌ أخرى حسية وكونية ، كالإسراء والمعراج ، وانشقاق القمر..إلخ ، ولكن المعجزة الكبرى التي وقع بها التحدّي ، والتي بقيت على الزمن وخوطبت بها البشرية كلها هي القرآن[489].

وإعجازُ القرآن الكريم ، لا يقتصرُ على ناحيةٍ معينةٍ ، ولكن يأتي من نواحٍ متعددة ، لفظية ، ومعنوية ، وروحية ، وعلمية ، وتشريعية ، وقد اتفقت كلمةُ العلماء ، كما يقول الشيخ خلاّف ، على أنّ القرآن لم يعجزِ الناسَ على أن يأتوا بمثله من ناحية واحدة معينة ، وإنّما أعجزهم من نواحٍ متعددة لفظية ومعنوية وروحية ، تساندتْ وتجمّعتْ ، فأعجزت الناسَ أن يعارضوه ، واتفقت كلمتهم أيضاً على أنّ العقول لم تصل حتى الان إلا إدراك نواحي الإعجاز كلّها ، وحصرها في وجوه معدودةٍ ، وأنّه كلّما زادَ تدبّر سننه أظهر مرُّ السنين عجائبَ الكائنات الحية وغير الحية ، وتجلّت نواحٍ من إعجاز ، وقام البرهانُ على أنه من عند الله[490].

1 . الإعجاز اللغوي:

قد بلغت بلاغةُ القرآن ، وجزالةُ ألفاظه؛ وروعةُ أساليبه ، وإحكامُ نظمه درجةً بهرت العرب ، وأدركوا أنَّ هذا الكلام الذي يسمعوه لا يشبه الشعر الذي يقرضونه ، ولا النثرَ الذي يتعاطونه ، وقد شهد بذلك الوليد بن المغيرة ، حينما بعثتْ به قريشٌ ليحاجَّ الرسول (ﷺ) ، فعاد إليهم قائلاً: وماذا أقول؟ فواللهِ ما فيكُم رجلٌ أعلمُ بالشعر مني ، لا برجزهِ ولا بقصيدهِ ، ولا بأشعارِ الجنِّ ، والله ما يشبه هذا الذي يقولُ شيئاً من هذا ، واللهِ إنَّ لقوله لحلاوةٌ ، وإنَّ عليه لطلاوةٌ ، وإنّه لمثمِرٌ أعلاه ، مغدِقٌ أسفلُه ، وإنّه ليعلو وما يُعلى ، وإنّه ليَحْطِمُ ما تحته[491].

ويظهر هذا الإعجاز اللغوي في تنوّع أساليب القرآن في العرض وفقاً لتنوّع الموضوع النفسي المصاحبِ له ، فيشتدُّ أحياناً ، فيهزّ المشاعرَ والحواس ، كما في مواقف الوعيد والعذاب ، مثل قوله تعالى: ﴿ سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ *﴾ [الحاقة : 30 ـ 32].

بينما يلين الخطابُ ، ويرقّ ، ويلطفُ في مواقف الرحمة والرفق والدعاء ، مثل قوله تعالى: ﴿كهيعص *ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا *إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا *قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا *وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا *يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا *﴾ [مريم : 1 ـ 6].

---

[489] ركائز الإيمان ص (373).

[490] علم أصول الفقه ، عبد الوهاب خلاف ص (57).

[491]





كما يتميز بعرضــه الحي للمشــاهد والأحداث ، وقصــص الســابقين ، ومشــاهد القيامة ، إذ تمتلءُى بالحركةِ وروعة التصوير التي ينفعلُ بها الإنسان ، وتهتزّ لها مشاعره[492].

وقد كتب كثير من العلماء قديماً وحديثاً ، في أوجه إعجاز القرآن من ناحية البلاغة والأســلوب ، كما حاول بعضُ العرب قديماً معارضــة القرآن ، فجاء كلامهم ســاقطاً مضــحكاً ، جعلهم موضــعَ ســخريةٍ بين قومهم ، وأكد إعجاز القرآن الكريم ، فبضدِّها تتميزُ الأشياءُ[493].

2 . الإخبار عن أحوال الأمم السابقة:

قد وردَتْ في القرآن أخبارٌ عن أمم بادت ، وشــــعوب هلكت ، من أمثال: عاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وقوم نوح ، وإبراهيم ، وقصــــة موســـى وقومه ، وفرعون وملئه ، ومريم وولادتها المعجزة للمســـيح ، إلى غير ذلك من الأخبار التي جاءت متوافقةً مع ما توصّل إليه الإنسان من اكتشافات تاريخية عن تلك الأمم ، ومتفقة مع ما صحَّ وكان معقولاً من الروايات التي وردت في كتب أهل الكتاب ، وقد ورد هذا كله من أمّي لا يقرأ ولا يكتبُ ، ولم تكن بيئته بيئةَ علمٍ وكتابٍ ، ولم يجلسْ إلى معلّمٍ يتلقّى منه ، فكان ذلك دليلاً قوياً على أنَّ ما جاء به محمد (ﷺ) هو وحيٌ من عند الله تعالى ، يقول الله ســـــبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ *﴾ [العنكبوت : 48].

ولما تحيّر الجاحدون ، ولم يســـتطيعوا الطعنَ فيما أخبر به الوحي الإلهي، افتروا الكذب ، وادعوا أنّه يعلّمه بشـــرٌ ، ولم يجدوا بمكة إلاّ فتًى رومياً لا يُحْسِنُ العربية ، ولا يعلمُ من الأخبار وقصص الأولين شيئاً ، ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَـــرٌ لِسَـــانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَـــانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ *﴾ [النحل: 103][494].

3 . الإخبار عن أحداث غيبية أو مستقبلية:

من وجوه الإعجاز القرآني إخباره عن أمور غيبية أو أحداث مســـتقبلية لم يتوقع حدوثه انذاك ، بل إنّ حدوثها بالصورة التي أخبر عنها القرآن كان مستبعداً ، لا تدل عليه القرائن والأحوال الظاهرة ، فجاءت كما قرر القرآن الكريم وأخبر ، ومن ذلك:

أ ـــ إخباره بانهزام الفرس على يد الرومان ، بعد أن هزموا الرومان هزيمةً ساحقةً ، قال تعالى: ﴿ الم *غُلِبَتِ الرُّومُ *فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَـيَغْلِبُونَ *فِي بِضْـعِ سِـنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ *﴾ [الروم : 1 ـ 4]

فوقع الأمر كما أخبر القرآن ، فهزم الرومُ الفرسَ ، مع أنَّ ضَعْفَ الدولة الرومانية انذاك يجعلُ مثل هذا النصرَ بعيداً.

---

492 تفسير المنار (199/1) العقيدة الإسلامية ، ص (259).

493 المصدر السابق ص (260).

494 المصدر نفسه ص (160).



ب ـــ وقد وعد الله المؤمنين بالنصـر في غزوة بدر الكبرى ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ *﴾ [الانفال : 7] ، وقد تحقّق النصرُ الباهرُ مع قلة عددِ المسلمين وعُدْتهم.

ج ـ كما وعدَ سبحانه وتعالى المؤمنين بدخول المسجد الحرام: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا *﴾ [الفتح : 27].

د ـ وقد تحقق وعد الله فتم للمسلمين دخول المسجد في فتح مكة ، وقد وعد الله المؤمنين أن يستخلفهم في الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، فقال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور : 55].

وقد تحقق وعد الله ، فاستولى المسلمون في حياة الرسول (ﷺ) على كلِّ بلاد العرب ، ودانت جميعُها للمسلمين ، وتجاوزَ أصحابه حدودَ الجزيرة ، واستولوا على أرضِ فارس وما وراءها ، ومدّوا سلطانهم عليها ، وساروا إلى أرض الروم، فاقتطعوا منها الشام كلّها ومصر.

هـــ وأخيراً فقد تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظ هذا القرآن من التحريف ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ *﴾ [الحجر : 9]. وقد صدق هذا الخبرُ وتحقق ، فمازال القرآن محفوظاً من التغيير والتبديل إلى يومنا هذا، رغم تطاول الزمان ، وتقلّب الأحوال بالمسلمين ، وسيبقى كذلك بإذن الله تعالى إلى يوم القيامة[495].

4 . اتساق سور القرآن وتوافق آياته:

من أوجه الإعجاز القرآني اتساق سوره ، وموافقة آياته بعضها بعضاً في أحكامها ومعانيها وأساليبها ، فالقرآن الكريم نزل منجّماً ، وأوحي بعضُه في مكة ، وبعضُه في المدينة ، وفي ظروف متباينة من ليل ونهار ، وسفر وحضر ، ولا نجدُ في جملةِ آياته ـ التي تتجاوز ستة الاف اية ، وسوره التي تبلغ مئة وأربعة عشرة سورة ـ ايةً تختلِفُ عن أخرى في مستوى بلاغتها ، ولا تعارِضُ ايةٌ منها ايةً أخرى فيما اشتملت عليه من معاني ، ولا سورة تتضمن من الأحكام والمعارف ما يتناقَضُ مع سورة أخرى ، الأمر الذي يدلُّ على أنَّ هذا القرآن ليس من وضع البشر ، الذي نرى ثمرات عقولهم ونتاج أفكارهم ، فنجد أنّه لا يخلو عمل من أعمالهم ، مهما حاولوا تلافي ذلك من نقص وقصور ، وتناقض وتعارض ، وفي هذا الوجه من وجوه الإعجاز القرآني ورد قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا *﴾ [النساء : 82][496].

---

[495] العقيدة الإسلامية ، ص (261

[496] العقيدة الإسلامية ص (266).



5 . الإعجاز التشريعي:

تضمّن القرآن الكريم من التشريعات المنظمة للحياة الإنسانية في دوائرها الفردية والاجتماعية ، والبشرية العامة ، ما لم يكن معروفاً في الحضارات والثقافات ، والفلسفات السابقة جميعاً ، وجاء فيه من القيم الكبرى: أخلاقية وإنسانية ، وإجتماعية عامة ، ما لم يكنْ وارداً على العقول ، ولا جارياً على الخواطر ، ولا مأثوراً في واقع الناس ، ويكفي أن نشيرَ إلى بعض القيم المتعلّقة بتكريم الإنسان ، وتحريره من الاستبداد ، وتقرير حقوقه الإنسانية بقطع النظر عن جنسه ولونه ودينه ، وإعلان الوحدة الإنسانية العالمية ، وتنظيم الحياة الأسرية ، وضبط العلاقات الاجتماعية والدولية على أسس ثابتة من العدل ، وغير ذلك ممّا لم يكن معهوداً في عصر النزول القرآني ، لا في البيئة المحلية ، ولا في البيئة العالمية ، بل لم يكن معروفاً في تاريخ الحضارات ، ما كان منها دارساً وما كان باقياً[497].

وهكذا نجد أنّ شـــريعة القرآن هي أقوى وجوه الإعجاز ، وهي الدالة على إعجازه إلى يوم القيامة ، وهي قائمةٌ إلى اليوم حجةً على العربي والأعجمي ، لا يفترقُ في قبولها مَنْ يعرف لســان القرآن ومن لا يعرفه ، وهي شــفاء ســقام المجتمعات ، كما قال سـبحانه وتعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ *﴾ [يونس : 57][498].

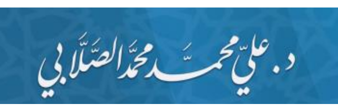
6 . الإعجاز العلمي:

مما هو معلومٌ أنَّ القرآن ليس كتابَ علوم ، ولم ينزل ليقرّرَ نظريات علمية ، أو يَدْرُسَ مســائل رياضـــية أو فلكية ، ولكن ورد في القرآن الكريم العديد من الإشــارات إلى بعض الظواهر الكونية والعلمية ، التي لم يكن للعرب ، ولا للعالم كله انذاك علمٌ بها ، ولم يكشـــف عنها العلمُ إلا مِنْ وقت قريب ، الأمر الذي يدلُّ على أنَّ القرآن ، الذي احتوى هذه المعارفَ ، وتلك الحقائق العلمية ، لا يمكن أن يكونَ مصـــدرُه البشــر ، بل هو من عند الله تعالى العليم بالكون الذي خلقه ، ومن ثَمَّ جاء خبره (الوحي) عن الكون مطابقاً لما فيه من حقائق.

---

497 المصدر نفسه ص (266).

498 المصدر نفسه ص (266).





ومن بين تلك الإشارات العلمية التي وردت في القرآن الكريم.

أ ـ قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ *﴾ [الانبياء : 30] الذي يشير إلى أنَّ السماوات والأرض كانتا شيئاً واحداً ، ثم انفصلت الأرض عن السماء؛ وقد اكتشفَ العلمُ هذه الحقيقة. فيما يعرف بنظرية الانفجار العظيم ، التي يفسّر بها نشأة الكون ، وبداياته الأولى.

ب ـ من الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن ظاهرة الجبال وأنَّها رواسي ، تمنع الأرض أن تميدَ بأهلها ، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان : 10].

وفي هذا القرن فقط كشف العلم أنَّ الجبال تحفظ توازن الأرض ، وأنّه حين يختل هذا التوازن لسبب من الأسباب تحدث الزلازل والبراكين ، فالجبال تحفظ الأرضَ فلا تميدُ بأهلها كما عبر القرآن.

ج ـ أشار القرآن إلى تكوّن اللبنُ في بطون الأنعام بين الفرث (وهو الغذاء المهضوم) والدم ، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ *﴾ [النحل : 66] ، وتلك حقيقة علمية لم يكشفها العلم إلا في القرن العشرين ، إذ ثبت علمياً أنَّ اللبن يتكوّن من مواجهة محتوى الأمعاء (الفرث) مع الدم ، خلال الجدار المعوي نفسه ، ثم تقوم الغدد اللبنية باستخلاص العناصر اللازمة لتكوين اللبن من الدم والكيلوس (خلاصة الغذاء المهضوم) وتفرز عليها عصارات خاصة تحيلها إلى لبنٍ يختلف في لونه ومذاقه اختلافاً عن كل منهما[499].

وهذه المعلومات تعتبر اليوم من مكتشفات علمي الكيمياء وفسيولوجيا الهضم ، التي كانت بالتأكيد غير معروفة مطلقاً في عصر النبي محمد (ﷺ) ، وترجع معرفة هذه الأمور العلمية فقط إلى العصر الحديث[500].

د ـ أشار القرآن الكريم إلى أصل خلق الإنسان ومراحل نمو الجنين:
قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ *ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ *ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ *﴾ [المؤمنون : 12 ـ 14].

499 دلائل الإعجاز العلمي في القران والسنة ، لموسى الخطيب ص (37).

500 القران الكريم والتوراة والإنجيل ، لموريس بوكاي ص (223).





ولم يكتشـف التشـريحُ وعلمُ الأجنّة عن هذه المراحل إلا في العصـر الحديث ، يقول موريس بوكاي: تطوّر الجنين في الرحم ـ كما يصفه القرآن ـ يستجيبُ تماماً لما نعرفه اليوم عن بعض مراحل تطور الجنين ، ولا يحتوي هذا الوصفُ على أي مقولة يستطيعُ العلم الحديث أن ينقدها[501].

وفي عبارة أخرى يقول بوكاي: إن مقولات القرآن عن التناسـل البشـري ، تعبر في ألفاظ بسـيطة عن حقائق أولى أنفقت مئات من السنوات لمعرفتها[502].

وحينما سئل العالم كيث مور: هل كان من الممكن أن يعرف رسـول الله (ﷺ) هذه التفصيلات عن أطوار الجنين؟ قال: مسـتحيل.. إنّ العالم كله في ذلك الوقت لم يكن يعرفُ أنّ الجنين يخلق أطواراً ، فما بالكم بتحديد مراحل الأطوار التي لم يستطع العلم حتى الان تسـميتها بدقة ، بل أعطاها أرقاماً بشـكل معقد غير مفهوم ، في حين جاءت في القرآن بأسماء محدّدة وبسيطة ، وغاية في الدقة ، ثم يضيف.. يتّضح لي أنَّ هذه الأدلة حتماً جاءت لمحمد من عند الله ، وهذا يثبتُ لي أنَّ محمداً رسول الله[503].

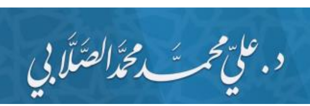
هـ أشار القرآن الكريم إلى أنَّ هناك حاجزاً بين البحار الملتقية ببعضها:

قال تعالى: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ *بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ *﴾ [الرحمن : 19 ـــ 20]. ولم يُكْتَشَفْ هذا الأمر إلاّ مؤخراً ، حيث ثبت علمياً أنَّ مياه البحار والأنهار لا يمتزجُ بعضـها ببعض ، وذلك لتباين طبيعة الماء ، وتمايز خصائصه فيهما[504].

هذا وفي القرآن إشارات كونية وعلمية كثيرة ، منها ما كشف عنه العلم ، ومنها ما لم يكشف عنه حتى اليوم ، وهي تثبتُ بدليل قاطع أنَّ هذا القرآن من عند الله العليم الحكيم ، وأنّه ما كان يتأتّى لبشرٍ أن ينطقَ به من عند نفسه[505].

إنَّ الكشـفَ عن بعض مظاهر الإعجاز العلمي في القرآن ، قد يكونُ ، وقد كان بالفعل سـبباً في دخول بعض العلماء التجريبين الغربيين في الإسـلام ، إذ إنّه دليل بيّن على إثبات إعجاز القرآن ، وبيان أنَّ هذا القرآن وحي من عند الله سبحانه وتعالى ممّا يترتّب عليه إثباتُ النبوة ، وصدقُ الرسالة ، التي جاء بها محمد (ﷺ) ، ولعلّ في اتّباع هذا المنهج في فهم القرآن سبيلاً إلى إعادة الثقة إن لبعض المسلمين الذين اهتزّت قناعاتهم بسبب ضغوط الحضارة المادية

[501] المصدر نفسه ص (232) العقيدة الإسلامية ص (264).
[502] القران الكريم والتوراة والعلم ص (234).
[503] المصدر نفسه ص (234).
[504] العقيدة الإسلامية ص (264).
[505] ركائز الإيمان ص (264).





المعاصرة ، ومنهجها العلمي وإقناعهم بأنّ الإسلام لا يحاربُ العلم كما فعلت النصرانية المحرّفة ، بل إنَّ العلم في إطارِ الحضارة الإسلامية نشأ بدعوةٍ وتوجيهٍ من الوحي الإلهي[506].

خامساً ـ الفرق بين المعجزة والكرامة وخوارق السحر:

1 ـ الفرق بين المعجزة والكرامة:

* إنّ الكرامة دون المعجزة في خرق العادة.

* إنّ الكرامةَ معتادة في الصالحين بخلاف المعجزة فهي خارقة لعادة البشر.

* إنّ الكرامة تابعةٌ للمعجزة ، ودليل من دلائل النبوة ، فإنَّ الولي لم تحصل له الكرامة إلا لاتباعه النبي ، ولو لم يتبعه لما وقعت له.

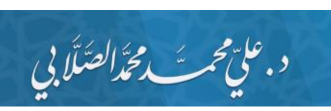
* إنَّ الكرامة ينالها الوليُّ بفعله كعبادته ودعائه ، بخلاف المعجزة فإنَّها غير مكتسبة[507].

* إنّ الكرامة هي أمرٌ خارق للعادة ، غير مقرون بدعوة النبوة ، ولا هو مقدمة لها ، يظهرها الله على يد ولي ظاهر الصلاح ، ملتزم بمتابعة نبيه ، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح ، وقد يكرّمُ الله تعالى مَنْ يشاء من عباده الصالحين بأمور غير خارقة للعادة ، ولا خارجة عن مألوف الناس ، وذلك كالاستقامة ، والتوفيق إلى طاعة الله ، والزيادة في العلم والعمل ، وهداية الخلق إلى الحق[508].

* وإذا لاحظنا واقعَ حال الكرامة ، عرفنا أنَّ الكرامة لا تقترنُ بدعوة النبوة ، ولا يتحدّى بها ، بل الأصلُ فيها الإخفاءُ والكتمانُ ، وهذا يخالِفُ المعجزةَ ، لأنها تقترن بدعوى النبي النبوة ، ويتحدّى بها ، وإظهارها واجبٌ ليتمّ بها المقصودُ من تبليغ الرسالة ، وتقام بها حجة الله على خلقه[509].

* ليستِ الكرامة دليلاً على تفضيل هذا المعطى على غيره ، فقد يُعطي اللهُ الكرامةَ لضعيف الإيمان لتقوية إيمانه ، وعندما يكون محتاجاً لسدّ حاجته ، ويكونُ الذي لم يعطَ مثل ذلك أكمل إيماناً ، وأعظمَ ولاية ، وهو لذلك مستغنٍ عن مثل ما أعطى غيره ، ولذلك كانت الأمورُ الخارقةُ في التابعين أكثر منها في الصحابة[510].

[506] العقيدة الإسلامية ص (265).
[507] اراء بن حجر الهيتمي الاعتقادية ص (473).
[508] عقيدة التوحيد ص (282 . 283).
[509] المصدر نفسه ص (283).
[510] الرسل والرسالات ص (160).



2. الفرق بين الكرامة وخوارق السحر:

أمّا الفرق بين الكرامة والســـحر ، فهو أنَّ الخارق غير المقترن بتحدّي النبوّة إن ظهر على يدِ صـــالحٍ ، وهو القائمُ بحقوق الله وحقوق خلقه فهو الكرامة ، وإن وإن ظهر على يد مَنْ ليس كذلك ، فهو الســحر أو الاســتدراجُ.. وتميز الصالح المذكورِ عن غيره بيّنٌ لا خفاءَ فيه ، إذ ليست السيما كالسيما ، ولا الاداب. كالاداب ، وغير الصالح لو لبس ما عسى أن يلبس لابدّ أن يرشحَ من نتنِ فعله أو قوله ما يميّزه عن الصالح[511].

إنّ بين كرامات الأولياء وبين ما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة:

منهـا: أنّ كرامات الأولياء سببُها الإيمان والتقوى ، والأحوال الشيطانية يكون سببُـها ما نهى الله عنـه ورسوله (ﷺ) ، ويُستعان بها على ما نهى الله عنه ورسوله[512].

* * *

[511] العقيدة الإسلامية ص (3).

[512] اراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية ص (473).

الفصل السادس

خصائص الرسالة المحمدية

وحقوق النبي (ﷺ) على أمته

أولاً ـ خصائص الرسالة المحمدية.

ثانياً ـ وضع العالم الإسلامي ومستقبله.

ثالثاً ـ حقوق النبي (ﷺ) على أمته.

الفصل السادس

خصائص الرسالة المحمدية وحقوق النبي (ﷺ) على أمته

أولاً . خصائص الرسالة المحمدية:

الرســالة المحمدية هي الرســالةُ الخاتمةُ ، وبها كَمُلَ الدين ، وتمّتِ النعمةُ الربانيةُ على البشــرية ، قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة : 3].

وتتميّز الرسالة المحمدية عن الرسالات السابقة كلّها بجملةِ خصائص منها[513]:

1 . أنها الرسالةُ الخاتمةُ والناسخةُ لما قبلها:

إنّ رسالة محمد (ﷺ) قد جاءت لتكون خاتمةَ الرسالات السماوية ، وإنّ محمداً خاتم النبيين والمرسلين ، فلا نبيَّ بعده، ولا شــريعة سماوية تأتي بعده ، والاعتقاد بذلك أصــلٌ من أصــول الدين ، يَكْفُرُ منكره ، ويخرج عن دائرة الإســلام جاحده ، وقد نصّ القرآن على ذلك ، وكذلك السنة الصحيحة ، وأجمع على ذلك المسلمون سلفاً وخلفاً[514].
قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الاحزاب : 40].

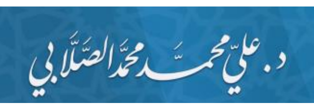
فهذه الآية نصٌّ في أنّه لا نبيَّ بعده (ﷺ) ، وإذا كان لا نبيَّ بعده فلا رسول بطريقِ الأولى والأحرى ، لأنَّ مقام الرسالة أخصُّ من مقام النبوة ، فإنّ كلّ رسولٍ نبيٌّ ولا ينعكس[515].

فالنبيُّ (ﷺ) ختمَ النبوة فطُبِعَ عليها ، فلا تفتح لأحدٍ بعده[516]، فقد انقطع إنباء الله للناس.

وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: 3] ، فالآية تؤكّد أنّ الأمة لم تعدْ تحتاجُ إلى نبيٍّ يُكْمِلُ لها دينَها ، أو يتمّ عليها نعمةَ ربها ، لأنّ الله ســبحانه وتعالى أكمل الدين على يد رسوله (ﷺ) ، ثم رضيه لها ، لأنّ الله سبحانه وتعالى قد أكملَ الدين على يدِ رسول الله (ﷺ) ، ثم رضيه له ولأمته ديناً يعبدون الله به إلى يوم القيامة[517].

---

[513] ركائز الإيمان ص (338).
[514] عقيدة التوحيد ص (258).
[515] تفسير ابن كثير (501/3).
[516] تفسير الطبري ، اية الأحزاب رقم (40).
[517] عقيدة ختم النبوة د. أحمد الغامدي، حقوق النبي على أمته (108/1).





وقد أعلن النبيُّ (ﷺ) أنّ رسالتَه خاتمةُ الرسالات ، وأنّه عليه الصلاة والسلام خاتمَ النبيين في أحاديث نبوية كثيرة ، منها:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ (ﷺ) قال: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي ، كمثلِ رجلٍ بنى بيتاً ، فأحسنه وأجمله، إلاّ موضعَ لبنةٍ من زاويةٍ ، فجعل الناسُ يطوفون ، ويعجبون ، ويقولون: هلاّ وُضِعَتْ هذه اللبنةُ؟» قال: «أنّا اللبنةُ وأنا خاتمُ النبيين»[518].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتي رسول الله (ﷺ) بلحمٍ ، فرفع إليه الذراعَ ــ وكانت تُعْجِبُه ــ فَنَهَسَ[519] منها نَهسةً ، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون ممّا ذلك؟» ثم ذكر (ﷺ) يوم القيامة ، وما يحدثُ فيه من استشفاع الناس بالأنبياء للحساب ، حتى يصلوا إليه (ﷺ) ، فذكر (ﷺ) أنّهم يقولون: «أنتَ رسول الله ، وخاتمُ الأنبياءِ ، وقد غفرَ لك ما تقدّمَ من ذنبكَ وما تأخّرَ ، تشفّع لنا إلى ربك»[520].

وقال رسول الله (ﷺ): «كانت بنو إسرائيل تسوسُهم الأنبياء ، كلّما هلكَ نبيٌّ خلفَه نبيٌّ ، وإنّه لا نبيَّ بعدي ، وسيكونُ خلفاء فيكثرون»[521].

وقد وردت أحاديثُ متعددةٌ متنوعةٌ ، جميعُها أكّدت على مدلولٍ واحدٍ ، هو انقطاع الوحي بعد النبيِّ (ﷺ) ، وختم النبوة به ، وقد بلغ بعضُ هذه الأحاديث حدَّ التواتر ، كما أنَّها في جملتها متواترة تواتراً قطعياً[522].

فرسالته (ﷺ) هي الخاتمة الناسخةُ لما قبلها ، قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [المائدة : 48] ، فهو مصدّقٌ بها في العقيدة ، فالكتبُ كلها تقول: إنه لا إله إلا الله وحده بلا شريك ، والقرآن يقول الشيء نفسه ، والكتب كلها تقول: . والقرآن يدعو الدعوة ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *﴾ ، ولكنّ القرآن مهيمنٌ على ما بين يديه من الكتب في شأن التشريع ، فهو يحمِلُ النسخة الأخيرة المنزلة من عند الله ، وشرعُه هو الشرعُ الواجبُ الطاعة ، ومن ثَمَّ فهو ينسخُ كلَّ ما أتى قبله ، مخالفاً له ، وعلى هذا المعنى تفهم أيضاً هذه الآية: ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة : 68].

فهم مطالبون بإقامة التوراة والإنجيل في أمر عبادة الله الواحد بلا شريك ردّاً على قول اليهود: عزيز ابن الله ، وقول النصارى: المسيح ابن الله.

518 البخاري رقم (3534).
519 النهس: أخذ اللحم بأطراف الأسنان.
520 البخاري رقم (4712).
521 البخاري رقم (3455).
522 حقوق النبي على أمته (1/109).





وفي الأمر بالاعتراف برســـالة محمد (ﷺ) لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل باسمه بإقامة ما أنزل إليهم من ربهم ــــ أي القرآن ــــ عقيدة وشريعة ، وإلاَّ فهم ليسوا على شيءٍ كما تصفهم الآية ، أي ليسوا على دين صحيح يقبله الله منهم[523].

إنّ القرآن الكريم يدعو الناس كافةً إلى الإيمان برسول الله (ﷺ) وطاعته ، واتّباع شريعته ، بما في ذلك أهل الكتاب ، كقوله تعالى: ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُــولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ *يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْـوَانَهُ سُـبُلَ السَّـلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾ [المائدة : 15 ـ 16].

ففي هذه الآيات تصريحٌ بأنّ الشرائع السابقة قد نُسِختْ برسالةِ سيدنا محمد (ﷺ) وأنّ الهداية والنجاح منحصِرٌ في طاعته (ﷺ) ، واتّباع شـريعته[524]، فرســالة محمد (ﷺ) جمع اللهُ فيها محاســنَ ما قبلها من الرســالات ، وزادها من الكمالات ما ليس في غيرها ، فلهذا جعلها الله شاهدةً وأمينةً وحاكمةً على الرسالات كلها ، وخاتمةً لها وناسخة[525].

2 ـ إنها رسالة عالمية:

جاءت رسالةُ الإسلام عامةً إلى الثقلين: الإنس والجن ، وإلى الأبيض والأسود ، وهذه من الخصائص الكبرى المميّزة للإسـلام ، فإن الرسـالات السـابقة كانت خاصـةً بأمة معينة ، وتنقضـي بزمان محدّد ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُــولٍ إِلاَّ بِلِسَــانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [ابراهيم : 4]. وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ *﴾ [فاطر : 24]. وأمّا خاتم النبيين محمد (ﷺ) فقد خاطبه الله تعالى بقوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُــولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الاعراف : 158]. وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا *﴾ [الفرقان : 1]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ : 28].

كما وصــف القرآن بأنّه: ﴿ بَلاَغٌ لِلنَّاسِ﴾ [ابراهيم : 52] و ﴿ بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 138] و ﴿ هُدىً لِلنَّاسِ﴾ [البقرة : 185].

كما ورد في الحديث الصحيح عنه (ﷺ): «فُضّلتُ على الأنبياء بستٍّ ، أُعْطِيْتُ جوامعَ الكلم ، ونُصِرْتُ بالرُّعبِ، وأُحِلَّتْ لي الغنائمُ ، وجُعِلَتْ ليَ الأرضُ طهوراً ومسجداً ، وأُرْسِلْتُ إلى الخَلقِ كافةً ، وخُتِمَ بي النبيون»[526].

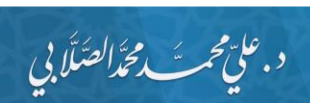
---

523 ركائز الإيمان ص (329).

524 عقيدة التوحيد ص (260).

525 تفسير ابن كثير (68/2).

526 مسلم رقم (523).



ولا يتنافى مع هذا العموم ، أن يكون المخاطبون في بادأى الأمر هم العرب قومُ الرسول (ﷺ) ، وأن يبدأ بالإنذار بهم ، وقال تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ *﴾[الشعراء: 214] ، وقال تعالى: ﴿ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: 92] ، وأنْ يكونَ العربُ هم أداة التبليغ ، وأن تكون لغتُهم هي وسـيلة ذلك: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *﴾ [الزخرف: 3] ، وأن يكون لهم بذلك ذكراً ومنزلةً ورفعةً: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ *﴾ [الزخرف: 44].

ولذلك كانت لغتُهم التي نزل بها القرآن الكريم ، وأساليبُهم وعاداتُهم هي المرجعُ في فهم القرآن ومعرفة الإسلام ، لأنها روعيت في الخطابِ الذي وجّه إليهم بادأى ذي بدء[527].

وقد حمل العربُ هذه الرسالة إلى الناس كافةً ، لأنَّها الرسالةُ العالميةُ التي ارتضاها الله للبشرية جمعاء ، فالنوعُ البشريُّ بأجمعه مكلَّفٌ بالإيمان برسالة الإسلام وتصديقها واتباعها ، فلا يحقُّ لأحد بَلَغَتْهُ رسالةُ الإسلام أن يدينَ بغيره ، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ *﴾ [آل عمران: 85][528] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران: 19].

3 . موافقتها للفطرة:

من الخصائص التي تمتازُ بها الرسالة المحمدية أنّ الإسلامَ دينُ الفطرةِ ، فهو بنُظُمه ومبادئه وأساليبه في التربية والتهذيب يمثّل أسلمَ سبيل للوصول إلى الإنسان المهذّب السليم ، ذلك بأنّه قبل كلِّ شيءٍ يعترفُ بهذه الفطرة كحقيقةٍ ماثلةٍ في تركيب الإنسان ، ويضعُ لها من التشريع والصيانة والاهتمام ما يجعلها تسيرُ في مسارها الصحيح بغير عوج أو التواء ، فالإنسانُ بفطرته يبغضُ عدوّه ، ويرغب في صدّه ودفع أذاه ، وضربه في معقله إن تجاوزَ واعتسفَ أو اعتدى على العقيدة أو النفس أو المال أو العرض ، وفي صدّ العدوان ما يرضي الفطرة ، يقول القرآن: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة : 194].
ويقول تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ *﴾ [الشورى : 40].

وفي ذلك إرضاء للنفس كي لا تعاني من الكبت والضغينة إلاّ إذا عفا المرءُ ، وأسقط حقّه عن طيبِ خاطرٍ ، والقرآن يمدحُ القصاصَ ، لأنّه سبيلٌ لصدِّ الشرّ وصون الأرواح ، قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة : 179].

---

527 العقيدة الإسلامية ص (244).

528 عقيدة التوحيد ص (254).



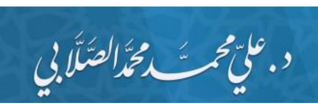
والإنسانُ بفطرته يحبُّ التملك ، وينزع إلى الاستقلال الشخصي ، فأباح له الإسلامُ الملكية بالوسائل المشروعة[529]، ليتيح للحوافز الفردية أن تعملَ ، ولا يكبتها كما تصنع الشيوعية ، ولكنّه يضع الضوابطَ التي تمنعُ الظلم ، وتمنع الفسادَ، فيحرّم الربا والاحتكار ، والغصب والسلب والنهب والسرقة والغش كطرق للتملك أو لتنمية المال ، ثم يفرضُ الزكاةَ التي تحدّ من التضخم ، وتشركُ الفقراءَ في أموال الأغنياء ، ويوجِبُ الإنفاق في سبيل الله ، ويحرّم الكنز ، ويحرّم الترفَ والمخيلةَ بالمال ، وهذه كلُّها ضوابط تمنع ما يحدثُ في الغرب الرأسمالي من فسادٍ خلقي ، وظلم اجتماعي ، وسياسي ، واقتصادي ، وهكذا لو تتبعت جميع مجالات الحياة تجد التوافق الكامل ، بين هذا الدِّين وبين الفطرة البشرية ، كما تجدُ التوجيهات التي تمنع الانحراف أو تعالجه عند حدوثه ، فتظلّ الفِطَرُ أقربَ ما يكونُ إلى السلامة والحياة ، وأقربَ إلى الاستقرار[530]، قال تعالى: ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم : 30].

إنّ في الفطرة البشرية كما خلقها الله مجموعةً من الدوافع، أودعها الله في الفطرةِ لتعينَ الإنسانَ على القيام بما كُلّف به من أمر الخلافة في الأرض ، كدافع الطعام، والشراب ، والملبس ، والمسكن ، والجنس ، والتملك ، وإثبات الذات.. إلخ، ولكنّ هذه الدوافع مع ضرورتها لعمارة الأرض خطيرةٌ على الكيان البشري إذا تُركت بلا ضابط يضبطها، فعندئذٍ تتحوّل إلى شهواتٍ جامحةٍ لا يملكُ الإنسانُ نفسَه من سلطانها ، والنظام الأمثل هو الذي يسمحُ لهذه الدوافع بالقدر المعقول من الحركة ، فلا يعطّلها ولا يكبتها ، وفي الوقت ذاته يضبطها ، فلا تتحوّل إلى شهوات ، فيأخذ الإنسان نصيبه من المتاع الطيب ، وينضبط سلوكُه في الوقت ذاته في الحدود التي تعود عليه بالعطب والدمار ، وذلك بالضبط هو ما صنعه الإسلام، فيتيحُ للدوافع كلها أن تعمل، لا يستقذر شيئاً منها ولا يستنكره، وفي الوقت ذاته يعمل على تهذيب هذه الدوافع ، والارتفاع بها إلى أقصى ما يملك الإنسان من رفعةٍ في حدود كيانه البشري ، فلا تصبحُ شهواتٍ جامحةً ، وإنّما رغبات منضبطة بالحدود التي شرعها الله بعلمه وحكمته ، وقال عنها: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة : 187]. وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة : 229] ، لذلك لا يقرّ الإسلامُ الرهبانية ، لأنّها تعطل دوافعَ الفطرة وتكبِتُها.

ذهب ثلاثةُ رهطٍ إلى بيتٍ من بيوتِ رسول الله (ﷺ) ، فسألوا عن عبادته (ﷺ) ، ولما أُخبروا كأنّهم تقالّوها ، فقال أحدُهم: أمّا أنا فأصومُ الدهرَ ولا أفطرُ ، وقال الاخر ، وأمّا أنا فأقومُ الليلَ ولا أنام ، وقال الثالث: أمّا أنا فلا أتزوجُ النساءَ ، فلمّا سمع بهم رسول الله (ﷺ) قال لهم: «أمّا واللهِ إنّي لأخشاكم للهِ ، وأتقاكم له ، ولكنّي أصومُ وأفطِرُ ، وأصلّي وأرقدُ ، وأتزوّجُ النساء ، فمن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنّي»[531].

---

[529] عقيدة التوحيد ص (254).
[530] ركائز الإيمان ص (356).
[531] مسلم رقم (1402).



كذلك لا يقرّ الإسلامُ الانفلاتَ من الشهواتِ الجامحةِ كما تصنعُ الجاهليةُ المعاصرة بصفة خاصة ، فتفسد الفطرةَ ، وتفسد الأخلاقَ ، وتنحطُّ بالإنسانِ إلى دركِ الحيوان[532].

4 . شمولها لمطالب البشرية في جميع الميادين:

إنّها تتضـمّن كلَّ ما يحتاجُ إليه الإنســانُ من شـؤون الدين والدنيا والاخرة على وجهٍ يكفلُ المصـلحة للناس جميعاً ، ويؤمّن لهم السـعادة الحقيقية إذا هم التزموا بها ، وعملوا على تحقيقها ، فهي تَنْظُمُ أمورَ العقيدة والأخلاق والعبادات ، والأسرةِ ، والمعاملات المالية ، والقضاء والعقوبات وما إلى ذلك[533].

قال تعالى: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الانعام : 38].

وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة : 3].

وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ *﴾ [النحل : 89].

لله دَرُّ العلامة ابن القيم ، فقد بيّن معنى الشمول في رسالة الإسلام بياناً شافياً ، فقال: وعموم رسالته (ﷺ) بالنسبة إلى كلّ ما يحتاج إليه العبادُ في معارفهم وعلومهم ، وأعمالهم ، وأنّه لم يحوج إلى أحدٍ بعده ، وإنما حاجاتهم إلى مَنْ يبلّغهم عنه ما جاء به ، فلرسـالته عمومان محفوظان ، لا يتطرّق إليهما تخصـيصٌ: عموم بالنسـبة إلى المرسـل إليهم ، وعمومٌ بالنسبة إلى كلّ ما يحتاجُ إليه مَنْ بعث إليه في أصول الدين وفروعه ، فرسالته كافيةٌ شافيةٌ عامةٌ ، لا تُحْوِجُ إلى سواها ، ولا يتمّ الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا ، وهذا وقد توفي رسول الله (ﷺ) وما طائرٌ يقلّب جناحيه في السـماء إلا ذكر للأمة منه عِلْماً ، وعلّمهم كلَّ شـيءٍ حتى اداب التخلّي ، واداب الجِماع ، والنوم ، والقيام ، والقعود ، والأكل والشرب ، وبالجملة جاءهم بخيري الدنيا والاخرة برمته ، ولم يحوجهم إلى أحد سواه[534].

فالشمول من الخصائص التي تميّزت بها رسالة الإسلام عن كلِّ ما عرفه الناسُ من الأديان والفلسفات والمذاهب ، وهذا الشمول تمثّل فيما يلي:

أ ـــ قد اشتملت على ما في تعاليم النبوّات السابقة من مبادأى جوهرية ثابتة في العقيدة والأخلاق ، ونسخت ما كان فيها من تشريعات مؤقتة ، وأحكام عارضة.

---

[532] ركائز الإيمان ص (355).

[533] عقيدة التوحيد ص (258).

[534] أعلام الموقعين (375/4).

ب ــ تناولت الشريعةُ فيها حياةَ الإنســان من جميع أطرافهــا ، ومن كلّ جوانب نشاطاتها الاقتصاديــة والسياسيــة والاجتماعية والعقلية والروحية والخلقية.. إلخ.

ج ـــ وضعتِ المبادأى الكليّة ، والقواعدَ الأساسية فيما يتطوّر فيها ويتحوّر بتغير الزمان والمكان ، ووضعتْ الأحكامَ التفصيلية والقوانينَ الجزائية فيما لا يتطوّر ولا يتحوّر بتغير الزمان والمكان ، وهذا هو الكمال والشمول الذي تميّزت به الشريعة الإسلامية ، وأشارت إليه الآيات القرآنية[535].

ومع هذا الشمول تبرزُ خاصية المرونة التي تكسب الرسالة المحمدية عنصرَ الاستجابة لكلّ المشكلات جميعاً ، فلا تقفُ متخلفةً عن ركب الحياة الناشطة المتحركة ، بل هي قادرةٌ على احتواء الواقع البشـري كله مهما امتدّ الزمنُ ، أو تبدّلت الأحوال والظروف[536].

إنَّ الإسلامَ لا يقفُ في سبيل التقدّم العلمي والنهوض الحضاري ، بل إنّ الإسلامَ هو الذي بعثَ المسلمين لينشئوا حركةً علميةً ضخمةً ، كان من أهم اثارِها المنهجُ التجريبي في البحث العلمي ، التي تعلمته أوربة على يد المسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي وصقلية وجنوب إيطالية الإسلامي ، والذي قامت عليها نهضتُها العلمية الحاضرة ، والإسلامُ هو الذي أنشأ حضارةً تاريخيةً ضخمةً أنارت العالمَ كلّه وقتَ أنْ كانت أوربة تعيش في ظلام القرون الوسطى ، المظلمة بالنسبة إليها ، المزدهرة بالنسبة للإسلام ، وكان أروعَ ما في هذه الحضارةِ أنّها تعمُرُ الأرضَ بأقصى ما في طاقة البشـــر من قدرةٍ على التعمير في جميع الميادين ، وجميع الاتجاهات ، ولكن دونَ أن تقطعَ ما بين الحياة الدنيا والاخرة ، كما تصنعُ تلك الجاهلية ، فتدفع الناسَ دفعاً إلى التكالب المزري على شهوات الأرض ، وعلى تحطيم كل القيم الفاضلة في سبيل ذلك المتاع الرخيص ،وما ينشأ عن ذلك حتماً من فساد الفطر ، وفساد الأخلاق ، والصراع الرهيب الذي يهدّد الأرضَ بالدمار.

كلا إنّ الإسلامَ يُنْشِىءُ حضارةً من نوع اخر ، أثمن وأعلى حضارة تعمر الأرض ، ولكنّها تعْمُرُها بمقتضى المنهج الرباني ، فلا تحرمُ الناسَ من المتاع الطيب ، ولكنّها تحافظُ على كيانهم الإنساني ، وهم يتناولون ذلك المتاع ، ولا تهبطُ بهم إلى مستوى الحيوان[537]، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ﴾ ﴿ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *﴾[الأعراف: 32]. وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ *﴾[محمد: 12].

535 العقيدة الإسلامية ص (345).
536 عقيدة التوحيد ص (258).
537 ركائز الإيمان ص (346).





5 . اهتمامها بالعقل البشري وتميزها بالمنهج الفكري:

من خصائص الرسالة المحمدية ، أنَّها أحلّت العقل الإنسانيَّ محله اللائق ، فخاطبته لإيقاظه ، ودفعته لاستخدامه ، قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ *﴾ [النحل : 17].

وقال تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ *﴾ [المؤمنون : 91].

قال تعالى: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا *﴾[النساء : 82].

فمن خصائص الدعوة المحمدية أنّها تخاطِبُ الإنسان كلّه ، وجدانه وفكره على السواء ، وكما يستثيرُ القرآن وجدانَ الإنسان ، لينفعلَ بمشاهدة آيات الله ويستسلمَ له ، فكذلك يوقِظُ القرآن عقلَ الإنسان ليتدبّر ، وليناقِشَ الأمورَ مناقشة فكرية منطقية هادئة تصلّ به إلى اليقين[538]، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ *أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ *أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *﴾ [النمل : 59 . 64].

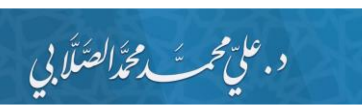
وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ *﴾ [البقرة : 170].

وقال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً *﴾ [الاسراء : 36].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ *﴾[سبأ : 46].

إنّ هذه الآيات وأمثالُها تكوّنُ في مجموعها منهجاً فكرياً للوصولِ إلى الحقّ يمكن تلخيصُه في هذه النقاط:
* عدم اقتفاء أي فكرة قبل تمحيصها وعرضها على البرهان والمنطق ، لأنّ الإنسان مسؤول عن تفكيره واعتقاده ، لأنّ الله أعطاه سمعاً وبصراً وعقلاً ، ليفكر لنفسه ، ويتدبر ، ويوم القيامة يسأل عن سمعه وبصره وعقله: كيف اقتفى شيئاً دون أن يعرف حقيقته؟.

[538] ركائز الإيمان ص (347).



* التدبّر في كلّ الأمور بالمنطق العقلي ، وعدمُ اتخاذ المواقفِ بدافع الهوى ، لأنّ الهوى يُعمِي الإنسان عن الحق.
* التخلّي عن التقليد الأعمى ، والموروثات الفاسدة ، التي لا تقومُ على دليلٍ ولا برهان.

فإذا اتّبع الإنســـانُ المنهج ، فألقى عنه موروثاته ، التي لا تقومُ على دليل ، وكفّ عن التقليدِ الأعمى ، ورفضَ أن يتّبَعَ شيئاً يعرضُ عليه إلاّ ببرهانٍ ، ثم راحَ يفكّر بالمنطقِ ، بعيداً عن الهوى ، فإنّه لابدّ واصلٌ بإذن الله إلى الحق[539].

إنّ الإســلام دعا العقل البشــري أن يعملَ فيما هو متاحٌ له ، ليصــلَ إلى اليقين في تلك الحقائق الرئيســة الكبرى التي تكوّن أساسَ الإيمان.

على أنّ المنهج الفكري الذي تتميّز به هذه الدعوة ، لا ينحصِرُ فيما يتعلّق بأمور العقيدة ، بل يمتدّ فيشـمل ميادين أخرى ، فإذا كان القرآن قد طالب العقل البشري بأن يتدبّر آيات الله في الكون ، ليتعرّفَ على الخالق ، الذي له ملك السـماوات والأرضِ ، وهو على كل شــيء قدير ، فقد طالبه كذلك بالتفكر في تلك الآيات ، ليتعرّف على الســنن الربانية ، التي تحكمُ سيرَ هذا الكون ليتمكن من استخدام ما سخّر الله له في هذا الكون من طاقات: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّـــمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية : 13]. ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِـرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْـلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّـنِينَ وَالْحِسَـابَ وَكُلَّ شَـيْءٍ فَصَّـلْنَاهُ تَفْصِـيلاً *﴾ [الاسراء : 12]. ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ﴾ [البقرة : 189]

وإنّ أمثال هذه التوجيهات في القرآن والسـنة ، لا تكتفي بطلب مشـاهدة الأشـياء ، بل تلفِتُ النظر إلى عللها ، التي بعثت الأمة الإسلامية تطلب العلم من مصادره ، التي كانت متاحة يومئذ ، ثم تنشأ من بعدُ حركتها العلمية الذاتية، التي تتلمذت عليها أوربة ، فأنشـأت نهضـتها ، وكان أبرزُ ما فيها منهجَ المشـاهدة والملاحظة والتجريب ، الذي يقومُ على أسـاسه كلُّ التقدم العلمي الحاضر ، كذلك يطلبُ القرآن من العقل البشـري أن يتأمّلَ في حكمة التشريع (بقدر ما يتاحُ له) حتى إذا طبّقه كان تطبيقه واعياً متفهّماً ، فتختم كثيراً من الأحكام بمثل هذا التعقيب: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *﴾ [النور : 61].

وهذا التوجيه هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي، وهو أثمَنُ ما أنتجه العقل المسلم من روائع ، وما يزالُ هذا الإنتاج حياً وقابلاً للحياة والنمو ما دامت الحياة ، كما أنّ الإسـلام وجّه العقل البشـري إلى تدبّر السـنن الربانية ، التي تسـيّرُ حياةَ البشــر على الأرض ، قال تعالى: ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُـنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً *﴾ [الفتح : 23]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الرعد : 11].

[539] ركائز الإيمان ص (348).



وقال تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *﴾ [الروم : 41]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا*﴾ [الاسراء : 16].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الاعراف : 96].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ *﴾ [الانعام : 44] وقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الانفال : 25].

والغرضُ من هذه التوجيهات هي أنْ يعرفَ الإنسانُ أنّ حياته لا تمضي بلا ضوابط ، وأنّه ليس معفًى من نتائج عمله ، بل إنّ كلّ عمل يعمله الإنسانُ فرداً أو جماعةً له عواقبه ، سواء في الحياة الدنيا ، أو في الاخرة حسب سنن ربانية لا تتبدَّل ولا تتحوّل ، ولا تحابي فرداً ولا جماعة ، فمِنْ أجلِ ذلك عليه أن يتدبّرَ الطريقَ الذي ينبغي أن يسلكه، ويتدبّرَ عواقبَ عمله قبل أن يقدمَ عليه.

كذلك يطلبُ الإسلامُ من العقل البشري أن يتدبّر عبر التاريخ: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ *﴾ [آل عمران: 137]. ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ *﴾ [غافر : 21]. ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ *﴾ [الحج : 46] ، فالمطلوبُ إذن دراسة التاريخ ، لا على أنّه مجموعةٌ من الحوادث حدثت بغير رابطٍ ولا دلالةٍ ، ولكن على أنّه يجري حَسْبَ السنن الربانية الثابتة ، وأنّ هناك رباطاً يربطُ الأحداثَ هو قدر الله المقدور ، الذي يسير حسب تلك السنن الثابتة ، فإذا تدبّر العقلُ ذلك ، ووعى عبرةَ التاريخ ، فإنّه قمينٌ ألاّ يقعَ فيما وقعَ فيه السابقون من أخطاء وخطايا ، بل يقوّم خطأه بحيث لا يصطدِمُ مع السنن الربانية ، فيسيرُ امناً في الحياة الدنيا ، وفي طريق يؤدّي به إلى الأمن في الدار الاخرة ، وعلى ذلك يمكن تلخيص المجالات التي يطلبُ الإسلامُ من العقل البشري أن يتفكّرَ فيها بهذه المجالات الخمسة:

* التدبر في آيات الله في الكون، للتعرّف على الخالق، والإيمان به ، والتسليم له ، والتعرّف على السنن التي يسير الكون لاستخلاص طاقاته ، وتسخيرها لعمارة الأرض.

* التدبر في حكمة التشريع ، لإحسان تطبيقه على الأحوال المتجدّدة في حياة الناس.

* التدبر في السنن الربانية ، التي تسيّرُ حياة الناس في الأرض بمقتضاها لتقويم حياة المجتمع البشري.



* التدبر في عِبَرِ التاريخ ، والاستفادة منها في تجنّب الأخطاء ، والاستقامة على الطريق الصحيح.

وذلك أوسعُ مجالٍ يمكن للفكر البشري أن يعملَ فيه العمل المثمر المفيد[540].

6 . تحقيق المصلحة ودفع المفسدة:

إنّ الرسالةَ المحمّدية جاءت لجلب الخير للناس ، ودفع الشرِّ وأشكال الضرر عنهم ، فهي ليست للعبث أو الهزل أو اللهو ، ولم تأتِ كذلك لتجلب للإنسان الحرجَ والشقاءَ ، ولكنّها جاءت جادّة في دفع المفسدة ، وجلب المنفعة ، حتى إذا ما تحققت للناس عناصرُ الخير والراحة والسعادة والاستقرار ، فقد تحققت مقاصدُ الشريعة على التمام ، يقول الشاطبيُّ في هذا الصدد: إنّ تكاليفَ الشريعة ترجعُ إلى حفظِ مقاصدها في الخلق ، وهذه المقاصدُ لا تعدو ثلاثة أقسام:

أحدها: أن تكون ضرورية.
وثانيها: أن تكون حاجية.
وثالثها: أن تكون تحسينية.

فأمّا الضرورية فمعناها أنّها لابدّ منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالحُ الدّنيا على استقامة، بل على فسادٍ وفوتِ حياة ، وفي الحياة الأخرى فوت النجاة والنعيم ، والرجوع بالخسران المبين.

ومجموع الضروريات خمسةٌ وهي: حفظ الدين ، والنفس ، والنسل ، والمال ، والعقل ، وقد صانت الشريعةُ كلاً من هذه الضروريات ، وأوجبت لصونها عقوبات ، كالقصاص في القتل ، والحد في الزنى والقذف والسرقة وشرب الخمر.

وأما الحاجيات فمعناها أنها مفتَقَرٌ إليها من حيثُ التوسعة ، ودفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة ، ومن أجل ذلك شرعت الرخص المخففة في العبادات ، كإباحةِ الإفطار للمسافر والمريض ، وشرعت في المعاملات عقودَ القروض والمساقاة وغيرها.

وأما التحسينات فمعناها الأخذُ بما يليقُ من محاسن العادات ، وتجنّب ما تأنفه العقول الراجحةُ ، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق ، وذلك كالطهارة وستر العورة ، وأخذ الزينة ، واداب الأكل والشرب ، ومجانبة الإسراف والإقتار وغير ذلك[541].

---

540 ركائز الإيمان ص (347 . 352).
541 ركائز الإيمان ص (257).

وخلاصةُ القول: إنَّ الإسلامَ بعقائده وشرائعه ونُظمه وتعاليمه ومعانيه إنّما جاء ليحقّق للإنسان الحياةَ الفاضلة الكريمة التي تتجسّدُ فيها أسبابُ المصالح ، وتندفعُ فيها أسبابُ المفاسد.

إنّ الأنظمة الوضعية التي وضعها البشر لم تفلحْ في صبغ الحياة البشرية بصبغة الأمن والسعادة والاستقرار ، فضلاً عن إخفاقها الذريع في دفع الضرر والفساد على وجه الأرض ، بل إنّ الحقيقة المرة هي أنّ هذه المبادأى والنظم التي صنعها البشر قد أفلحت في إغراق الإنسان في جحيم الكوارث والماسي والويلات ، وأوردته مواردَ الشقاء والعيش البائس ، ذلك العيش المنكود ، الذي تجسّد في حصائل متعددة من الأمراض والحروب والمجاعات والقلق ، والأحزان ، وهي أضرارٌ ومفاسدُ يعاني منها الإنسان ، وسيظلّ يعاني حتى يهتدي ، فيعودُ إلى الصواب بعد أشواط طوال من الويلات والأرزاء[542].

7 . سماحتُها ويسرُها ورفعُ الحرج عنها:

إن الله لم ينزل هذا الدين أصلاً ليعنت به الناس ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ *﴾ [البقرة : 143].

فالسماحةُ من أكبر صفات الدعوة المحمدية ، قال رسول الله (ﷺ): «أحبُّ الدِّينِ إلى اللهِ الحنيفيةُ السمحةُ»[543]، ويرجعُ معنى السماحة إلى التيسير المعتدل ، وهو معنى اليسر الموصوف به الإسلام: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة : 185].

ومن سماحة الدعوة المحمدية إنكارها على أصحاب النزعات المتطرفة والذين يحرّمون الطيبات والزينة التي أخرج لعباده.

قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ *وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ *﴾ [المائدة : 87 . 88].

وهذه الآية الكريمة تبيّن للمسلمين حقيقةَ منهج الإسلام في التمتع بالطيبات ومقاومة الغلو الذي وجد في بعض الأديان أو عند بعض المتنطعين[544].

ومن سماحة الدعوة المحمدية ما يتبعه من منهج في الدعوة إلى الله عز وجل وجدال المنافقين ، ففي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل : 125].

---

542 ركائز الإيمان ص (257).

543 البخاري في الأدب المفرد رقم (88).

544 سماحة الإسلام ، عمر بن عبد العزيز ص (370).

ومن تأمل الآية الكريمة يجد أنّها لا تكتفي بالأمر بالجدال بالطريقة الحسنة ، بل أمرت بالتي هي أحسن ، فإذا كان هناك طريقتان للحوار والمناقشة إحداهما: حسنة ، والأخرى أحسن منها ، وجب على المسلم أن يجادِلَ بالتي هي أحسن جذباً للقلوب النافرة ، وتقريباً للأنفس المتباعدة[545].

ومن أبرز المزايا التي تتحلّى بها الدعوة المحمدية بأنها سهلةٌ ميسورةٌ وهي بطبيعتها تعارِضُ المشقة ، وتنفي أية صورة من صور الضيق والحرج ، وفي القرآن الكريم والسنة المطهرة نصوص كثيرة تنفي كل أنواع الحرج التي لا يطيقها الإنسان أو يشق عليه احتمالها ، ومن أدلة التيسير.

قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة : 185]. وقال سبحانه: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا *﴾ [النساء : 28]. وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا *إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا *﴾ [الشرح : 5 ـ 6]. وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا *﴾ [الطلاق : 4]. وقال تعالى: ﴿ آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا *﴾ [الطلاق : 7].

* ومن أدلة رفع الحرج:

من أقوى الأدلة في الدلالة على رفع الحرج قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : 78] ، أي ما كلفكم ما لا تطيقون ، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً[546].

وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور : 61].

وفي هذه الآيات دلالةٌ ظاهرةٌ على رفع الحرج عن هذه الأمة ، وأنّ الله لم يجعل في التشريع حرجاً ، وبعض هذه الآيات وإن كانت خاصة في أحكام معينة ولكننا نجدُ التعليل عاماً ، فكأنّ التخفيف ورفع الحرج في هذه الأحكام والفروض بإعادة الشيء إلى أصله ، وهو رفع الحرج عن هذه الأمة ، فكل شيء يؤدي إلى الحرج لسبب خاص أو عام فهو معفو عنه ، رجوعاً إلى الأصل والقاعدة[547].

ومن أدلة عدم التكليف بما يضاد الوسع والطاقة:

قال سبحانه: ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة : 286].

---

545 الإيمان بالقران والكتب السماوية للمؤلف ص (94).

546 تفسير الطبري (207/17).

547 الوسطية في ضوء القران د. ناصر العمر ص (106).

وقال سبحانه: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِيْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة : 286].

وقال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ*﴾ [الاعراف : 42].

هذه الأدلة يظهر من خلالها الإسلام في صورته الوضيئة المشرقة وفي طابعه الكريم السهل ، وفي جوهره الذي ينبذ الغلو والتعسير والتنطع ، والذي يحبذ التيسير والتسهيل تمشياً مع فطرة الإنسان ، التي تضيق بالعنت والإحراج[548].

8 . غنى مصادرها التشريعية:

ممّا تميّزت به هذه الدعوةُ كذلك غنى مصادرها التشريعية ، فالرسالاتُ السابقةُ كلّها تجدُ تشريعاتها في الكتاب المنزل فحسب ، أمّا هذه الدعوة التي لم تنزل لقوم محدودين ، ولا لفترة من الزمان محدودة ، وإنّما نزلت للبشرية كافة ، ولأمدٍ من الزمن ممتدّ إلى قيام الساعة ، فقد خصّها الله بسعةٍ في المصادر التشريعية تلائِمُ سعة رقعتها ، وامتداد زمانها ، فنجدُ مع الكتابِ سنّةَ الرسول (ﷺ) تفصّل ما أجمله الكتاب ، وتبيّن أحكامه تارةً ، وتستقلُّ تقرير الحكم تارة أخرى ، فقد فرض اللهُ الصلاة ـ مثلاً ـ ولكنّ أحكامَ الصلاةِ بيّنتها السنّةُ ، وكذلك الأمر في الزكاة ، فالسنّةُ ببعض الأحكام ، كحدِّ الردّة ، وحدّ الخمر ، وحكم الرجم للزاني المحصن ، وأحكام البيع والشراء.. إلخ.

وإلى جانب الكتاب والسنة فبابُ الاجتهاد مفتوحٌ فيما لم يرد فيه نصٌّ ، أو في طريقة تطبيق النصّ على حالة لم تقع في عهد الرسول (ﷺ) ، وهذا هو الذي كفل لهذه الشريعة أن تتسع للنمو الدائم في حياة البشر ، ولا تضيق عنه ، وجعل الحياةَ في ظلّها تتحرّك وتنمو أبداً لا تتجمّد ، وهو ما لم يكن متاحاً للدعوات السابقة ، لأنّ الله قدّر لها فترة محدودة من الزمن تُنْسخُ بعدها ، أمّا هذه الرسالة فلا ناسخَ لها ، لذلك وهبها اللهُ القدرةَ على الامتدادِ ومواكبة الحياة المتجدّدة على الأرض[549].

9. دعوتها إلى الإيمان بما جاء به الأنبياء من قبل:

الرسالة المحمّدية هي الرسالةُ الوحيدةُ التي يؤمِنُ أتباعُها بالرسل جميعاً ، وبما أنزل إليهم ، فقد كفر اليهودُ بعيسى عليه السلام ومحمد (ﷺ) ، وكفر النصارى بمحمد (ﷺ) وامنوا بعيسى ، ولكن لا على أنّه رسول ، بل على أنه إلهٌ وابنُ إله ، أمّا المسلمون فهم وحدهم الذين يؤمنون بالرسل جميعاً من لدن ادم ونوح إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم ،

[548] عقيدة التوحيد ص (257).
[549] ركائز الإيمان ص (353).



قال تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ﴾ ﴿ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *﴾[البقرة: 136].

10 . حفظ الله تعالى للرسالة المحمدية:

لما كانت الرسالات السابقة مرهونةً بوقت معين ، وزمان محدود ، لم يتكفل الله تعالى بحفظها ، بل وكل حفظَها إلى علماء تلك الأمم ، التي أنزلت إليها ، فأوكل حفظ التوراة إلى الربانيين: ﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة : 44]. ولم يستطع الربانيون والأحبارُ حفظ كتابهم ، وخان بعضُهم الأمانةَ ، فغيروا وبدّلوا وحرّفوا ، أمّا هذه الرسالة الخاتمة فقد تكفّل الله بحفظها ، ولم يكل حفظها إلى البشر ، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ *﴾ [الحجر : 9] ، وحفظ كتابها من التحريف والتبديل: ﴿ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ *﴾ [فصلت : 42][550].

11 . شهادة أمة الإسلام على الأمم:

إن المؤمنين بهذه الرسالة يشهدون يوم القيامة على سائر الأمم من أصحاب الرسالات السابقة ، يقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة : 143].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج : 78].

روى البخاري في (صحيحه) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ رسول الله (ﷺ) قال: «يُجاءُ بنوحٍ فيقال له: هل بلّغتَ؟ فيقول: نعم يا ربِّ ، فتسأله أمته هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير ، فيقول: مَنْ شهودك؟ فيقول: محمد وأمته ، فيجاء بكم فتشهدون» ثم قرأ رسول الله (ﷺ): ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة : 143][551].

أنزل الله تعالى أمة محمد (ﷺ) منزلة العدول من الحكّام ، فإنّ الله تعالى إذا حكم بين العباد فجحدت الأممُ تبليغَ الرسالة أحضر أمّةَ محمّد (ﷺ) فيشهدون على الناسِ بأنّ رسلهم أبلغتهم ، وهذه الخصيصةُ لم تثبتْ لأحدٍ من الأنبياء[552].

---

[550] العقيدة الإسلامية ص (146).

[551] البخاري رقم (7349) ، الواسطة بين الله وخلقه ، المرابط الشنقيطي ص (183).

[552] المصدر السابق ص (184).





12. السيرة المحمدية:

هي السيرة القطعية الثبوت في التاريخ ، فمن قدر الله بالنسبة للإسلام أن تبقى أصوله كاملة ومن غير تحريف ، لأنّه الدين الباقي إلى أن تقوم الساعة ، والذي قدر الله سبحانه وتعالى أن يحفظه ويُظهره على الدين كله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الصف : 9].

وكما حفظ الله القرآن بقدرته حيث قال جلَّت قدرته: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ *﴾ [الحجر : 9]. فقد حفظ كذلك السنة المطهرة ، وحفظ السيرة النبوية الكريمة ، فلم تضعِ كما ضاعت سيرُ كثيرٍ من الأنبياء من قبلُ، ولم تدخل عليها التشويهات والتحريفات التي دخلت على سير أنبياء بني إسرائيل من موسى إلى عيسى عليهما الصلاة والسلام ، فيما يُسمَّى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد (المقابلين للتوراة والإنجيل).

إنّ من يقرأ العهدَ القديم بصفة خاصة يتقزّز من بشاعةِ ما أُلصق بالأنبياء في سيرهم المزيفة. من تهمٍ فاحشةٍ لا تليقُ بشخص عادي ، فضلاً عن نبيٍّ مرسلٍ ، فما من جريمة في الأرض ــ على بشاعتها ــ إلا وأُلصِقَتْ زوراً وبهتاناً بأولئك الأنبياء ، من قتلٍ وسرقةٍ ، وغصبٍ ، ونهبٍ ، وغشٍ ، وكذبٍ ، وفسقٍ خُلقي ، وهذا كله مكتوب بأيدي المؤمنين بأولئك الرسل ، وصدق الله العظيم: ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *﴾ [البقرة : 93]. قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيدِيهِمْ وَوَيلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ *﴾ [البقرة : 79].

لقد حرَّفوا سير أنبيائهم لا عن جهل ، ولكن ليبرروا لأنفسهم شناعة سلوكهم في الأرض ، فإذا كان أنبياؤهم يصنعون ما ينسبونه إليهم من أفاعيل ، أفلا يكونون هم في حلٍّ مما يفعلون؟ فأمّا العهد الجديد في تزويره لسيرة عيسى عليه السلام فلا تقِلُّ نكراً من تأليه عيسى ، وادِّعاء بنوته لله: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا *لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا *تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا *أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَدًا *﴾ [مريم : 88 ــ 91]. ذلك ما أصاب سير الأنبياء من قبلُ من نسيان أو تحريف.

فأما سيرة رسول الله (ﷺ) فقد صانها الله عن العبث وعن النسيان ، ووكلها ــ بقدر منه ــ إلى أمة ذات قدرة غير عادية على حفظ الروايات والنصوص ، ومن ثَمَّ بقيت محفوظة على مدار التاريخ ، وبذلك فهي السيرة القطعية في التاريخ كله التي يمكن الوثوق بوقائعها وأحداثها ونسبتها إلى صاحبها (ﷺ).

ومن خلال هذه السيرة ـ ومن خلال القرآن كذلك ـ حفظت اللمحات الصادقة من سير الأنبياء من قبلُ ، فلا حقَّ يوثق به في سير أولئك الأنبياء إلا ما ورد في القرآن أو الحديث ، وفضلاً عن ذلك ، فإننا نستطيع أن نقرأ في سيرة الرسول (ﷺ) سيرَ الأنبياء جميعاً ، فقد تجمَّع في حياته (ﷺ) ما تفرق في حياة الأنبياء من قبل[553].

---

[553] ركائز الإيمان ص (323 . 330).





ثانياً ـ وضع العالم الإسلامي ومستقبله:

1 ـ وضع العالم الإسلامي المعاصر:

لم يحدث في تاريخ الأمة الإسلامية أن تكالبَ عليها أعداؤها بمثل الضراوة التي يتكالبون بها عليها في الوقت الحاضر: يذبَّحون ويقتَّلون في كل مكان غلب عليهم أعداؤهم ، ويشــرَّدون من أرضـــهم وأموالهم ، ويســلَّط عليهم أعداء من داخلهم أو من خارجهم ، يحكمونهم بغير ما أنزل الله ، لحســاب أعدائهم الذين لا يؤمنون بلا إله إلا الله ، وينتقص الوطن الإسلامي مرةً بعد مرةً بإقامة دول غير إسلامية في أرضه ، وتفتت وحدته ، ثم تقسّم الدول منه إلا دويلات.

والفقر والجهل والمرض يتفشّـــى في العالم الإســـلامي على الرغم من أنّ تربته تحتوي على أكبر ثروات العالم على الإطلاق.

لقد وعد الله هذه الأمة بالاستخلاف والتمكين: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور : 55].

لقد اشترط الله عليهم شروطاً للتمكين ، مقابل الاستخلاف والتمكين والتأمين: ﴿ يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾، فأين هم اليوم من هذا الشرط؟! أين هم من الالتزام بأمر ربهم وتحكيم شريعته؟!

لقد أعرضوا عن القرآن الكريم إعراضاً ، ــ إلا ما رحم ربي ــ فلا هو الذي يستمدّون منه الشريعة التي تحكمهم ، ولا هو الذي يستمدون منه منهجَ تربيتهم ، ولا هو الذي يستمدّون منه أخلاقهم وأفكارهم ومشاعرهم وأنماط سلوكهم ، وإنما وجهتهم في ذلك كله هي أوربة ، شـرقها أو غربها سـواء ، فكيف يطمعون أن ينصـرهم ربّهم وهم معرضـون عن كتابه؟! وأن يمكّن لهم في الأرض وهم مخالفون لشرطه؟!.

لقد ابتلى اللهُ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام ذلك الابتلاء الضخم الذي أبلى فيه بلاءً حسناً ، فكافأه الله على طاعته فقال: ﴿ اني جاعلك للناس اماما﴾ وعندئذٍ أدركته رغبته الفطرية في أن يكون هذا العهد لذريته من بعده فيكونون أئمة للناس: ﴿ قال ومن ذريتي﴾ فماذا قال له الله سبحانه وتعالى لحظة التقريب والتكريم والإعزاز؟ ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ *﴾ [البقرة : 124].



فهذه سنةٌ من سنن الله الجارية ، التي لا تتبدّل ولا تحابي أحداً ، إنّ الله لا يعطي الناس التمكين في الأرض لأنهم من ذرية قوم مؤمنين ، بل لأنهم هم أنفسهم مؤمنون ، فإذا تخلّوا عن شرطِ الإيمان الصحيح ، فلا يمنعهم يومئذٍ أن يكونوا ذرية لقوم مؤمنين[554].

ولقد عرض القرآن علينا سيرة بني إسرائيل بتفصيل كامل ، لكي لا نقعَ فيما وقعوا فيه ، وحذّرنا من ذلك تحذيراً ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *﴾ [البقرة : 211].

فماذا كان من بني إسرائيل: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لاَ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *﴾ [الاعراف : 169].

والأمة الإسلامية اليوم تقف في الموقف الذي حذرنا الله منه ، يتركون كتابهم من أجل عرض من أعراض الحياة الدنيا، ويمنّون أنفسهم بالأماني الفارغة ويقولون سيُغفر لنا! لا جرمَ إذن أن يكونوا على حالهم الذي هم فيه. «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل».

قال تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا *وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا *﴾ [النساء : 123 ـ 124][555].

2 ـ مستقبل الأمة الإسلامية:

لا خلاص للأمة الإسلامية مما هي منه إلا بالرجوع إلى الله ، واتّباع المنهج القرآني ، لقد جرّب العالم الإسلامي أن يقتفيَ أثرَ الشرق أو الغرب من أجل الإصلاح ، فكانت النتيجةُ نكساتٍ تلو نكساتٍ ، والاستضعافُ مستمرٌّ في الأرض ، لا خلاصَ للأمة الإسلامية ممّا هي فيه إلا بالرجوع إلى الله ، واتباع المنهج القرآني ، لقد جرّب العالم الإسلامي أن يقتفي أثرَ الشرق أو الغرب من أجل الإصلاح ، فكانت النتيجةُ نكساتٍ تلو نكساتٍ ، والاستضعافُ مستمرٌّ في الأرض والتقتيلُ والتشريدُ قائمٌ ، وتفتيت وحدةِ المسلمين يشتدُّ يوماً بعد يوم ، ذلك أنهم ماضون في مخالفة أمر الله ، والبعد عن كتابه الكريم ، وقد أخبرهم الله ورسوله (ﷺ) بأنهم لن ينتصروا ، ولن ينصلحَ حالهم ، إلا بالتزام أوامر الله: ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ *﴾ [محمد : 38].

554 ركائز الإيمان ص (387).

555 ركائز الإيمان ص (389).



وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ *﴾ [محمد : 38].

وقد ان للأمة الإسلامية أن تعرفَ هذه الحقيقة ، وتعمل بمقتضاها ، ان لها أن تدركَ أولاً أنّ ما بين يديها من كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) خيرٌ مما يسعون إلى اكتسابه من مناهج الجاهلية: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ *﴾ [المائدة : 50].

وأنّ التشريع السماوي الذي يعرضون عنه هو أكملُ تشريع ، وأفضلُ تشريع ، بينما شرائع الجاهلية كلّها نقصٌ وانحرافٌ واختلالٌ ، وأنّ منهج التربية الإسلامية هو وحده الكفيل بإنشاء الإنسان الصالح ، وما سواه كله انحراف[556].

والبداية هي معركة النفوس ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:، فإذا غيّر المسلمون ما بأنفسهم ، وكفّوا عن إعراضهم عن كتاب الله ، وعادوا إلى الأخذِ بمنهجهم القرآني ، فسيعيدُ الله خيراتهم إليهم ــ بقدر منه وبجهدٍ يبذلونه تنفيذاً لأمر ربهم ــ فيصبحون أغنى أمة في الأرض ، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الاعراف : 96]. ويصبحون من ثَمَّ أقوى أمة في الأرض، فإن الغني هو الذي أنشأ القوة المادية ، التي ينتصر بها المؤمنون ، ويصبحون أداة سلامٍ في العالم المهدَّدِ بالدمار ــ لأن العالم ــ بمعسكريه إنّما يتنازعُ على امتلاكنا نحنُ ، امتلاك خيراتنا ، واستعبادنا ، وكسر شوكتنا ، فيوم نكونُ أصحابَ ثرواتنا ، ومُلاّك أنفسنا ، فسنكوّن القوّةَ التي تمنعُ النزاع في الأرض ، أو في القليل يكون نزاعهم خارجاً عنا ، وليس واقعاً علينا كما هو اليوم[557].

---

[556] ركائز الإيمان ص (391).

[557] المصدر نفسه.



ثالثاً ـ حقوق النبي (ﷺ):

1 ـ الإيمان به (ﷺ):

هو تصديقه ، وطاعاته ، واتّباع شريعته[558]، وهذه الأمور هي الركائز التي يقوم عليها الإيمان بالنبي (ﷺ).

وعن بيان هذه الأمور المطلوبة عند الإيمان به بالنبي (ﷺ). قال العلماء:

أ ـ أما تصديقه (ﷺ) فيتعلّق به أمران عظيمان:

أحدهما: إثباتُ نبوته ، وصدقه فيما بلّغه عن الله ، وهذا مختصٌّ به (ﷺ)[559].

ويندرج تحت هذا الإثبات والتصديق عدّةُ أمورٍ منها:

* الإيمانُ بعموم رسالته إلى كافة الثقلين إنسهم وجنهم.

* الإيمان بكونه خاتم النبيين ، ورسالته خاتمة الرسالات.

* الإيمان بكون رسالته ناسخة لما قبلها من الشرائع.

* الإيمان بأنه (ﷺ) قد بلغ الرسالة ، وأكملها ، وأدّى الأمانة ، ونصح لأمته حتى تركهم على بيضاء ليلها كنهارها.

* الإيمان بعظمته.

* الإيمان بماله من حقوق ، كما سيأتي تفصيلُها بإذن الله.

ب ـ تصديقُه فيما جاء به ، وأنَّ ما جاء به من عند الله حقٌّ يجبُ اتباعه ، وهذا يجب عليه (ﷺ) وعلى كلِّ أحد[560].

فيجب تصديقُ النبيّ (ﷺ) في جميع ما أخبر به عن الله عز وجل ، من أنباء ما قد سبق وأخبار ما سيأتي ، وفيما أحلّ من حلال ، وحرّم من حرام ، والإيمان بأنّ ذلك كله من عند الله عز وجل ، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى *﴾ [النجم : 3 ـ 4].

ويجب على كلّ أحدٍ أن يؤمنَ بما جاء به الرسول (ﷺ) إيماناً مُجملاً ، ولا ريبَ أنَّ معرفة ما جاء به الرسول (ﷺ) على التفصيل فرضٌ على الكفاية[561].

ب ـ طاعته واتباع شريعته:

إنّ الإيمان بالرسول (ﷺ) كما يتضمّن تصديقه فيما جاء به ، فهو يتضمّن كذلك العزم على العمل بما جاء به ، وهذه هي الركيزةُ الثانيةُ من ركائز الإيمان به (ﷺ) ، وهي تعني: الانقياد له (ﷺ) ، وذلك بفعل ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه وزجر ، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر : 7][562].

---

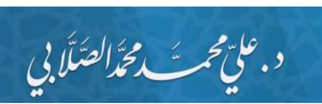
[558] اقتضاء الصراط المستقيم ، لابن تيمية ص (92).

[559] مجموع الفتاوى (91/15).

[560] المصدر نفسه ، وحقوق النبي (ص) على أمته (35/1).

[561] شرح العقيدة الطحاوية ص (66).

[562] حقوق النبي على أمته (35/1).



2. وجوب طاعة النبي (ﷺ) ولزوم سنته ، والمحافظة عليها:

إنَّ الآيات الواردة في الأمر بطاعة النبي (ﷺ) واتباعه والاقتداء به ، جاءت في مواطنَ متعددة من القرآن الكريم ، واتّصفت تلك الآيات بتنوع أساليبها ، وتعدّد صيغها مع اتحادها جميعاً في الأمر بالاقتداء بالنبي (ﷺ) وطاعته في جميع ما جاء به من شرائع وأحكام من عند الله عز وجل[563]، ويمكن تقسيمُها على حسب ما اتّحدت به في السياق على النحو التالي:

أ. الآيات التي جاء فيها الأمر بطاعته:

ومن تلك الآيات:

قوله تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء : 80].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *﴾ [آل عمران: 132].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ ورَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *﴾ [النور : 52].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا *﴾ [الاحزاب : 71].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ *﴾ [آل عمران: 32].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا *﴾ [الفتح : 17].

ب. وفي آيات أخر يأمر الله سبحانه بطاعته وطاعة رسوله (ﷺ) ،

مع إعادة الفعل ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ ما يأمرُ به رسول الله (ﷺ) تجبُ طاعته فيه ، وإن لم يكن مأموراً به بعينه في كلام الله ، الذي هو القرآن ، فتجبُ طاعةُ الرسول (ﷺ) مفردةً ، كما تجب مقرونةً بأمره سبحانه ، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ *﴾ [محمد : 33].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ *﴾ [المائدة : 92].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ *﴾ [النور : 54].

وقال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء : 59].

---

[563] المصدر نفسه (173/1).

وفي هذه الآية أمر تعالى بطاعته، وطاعة رسوله (ﷺ)، وأعاد الفعل إعلاماً بأنّ طاعة الرسول (ﷺ) تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً ، سواء كان ما أمرَ به في الكتاب أو لم يكن فيه ، فإنّه أوتي الكتاب ومثله معه[564]، لقوله (ﷺ): «ألا أني أوتيت الكتاب ومثله معه»[565].

ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالاً ، بل حذف الفعلَ ، وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول (ﷺ) ، إيذاناً بأنهم إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول (ﷺ) ، فمن أمر منهم بطاعة الرسول (ﷺ) وجبت طاعته ، ومن أمر منهم بخلاف ما جاء به الرسول (ﷺ) فلا سمعَ له ولا طاعة ، كما صحّ عنه (ﷺ) أنه قال: «لا طاعة في معصية الله ، إنما الطاعة في المعروف»[566]، وقال (ﷺ): «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبّ أو كره، إلا أنْ يؤمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة»[567].

وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ *﴾ [النور : 54].

فقد أخبر تعالى في هذه الآية أنّ الهداية في طاعة الرسول (ﷺ) لا في غيرها ، فإنه معلّق بالشرط ، فينتفي بانتفائه.. وهذا من الأحكام التي ترتبت على شروط وعلقت ، فلا وجودَ لها بدون شروطها[568] إذا ما علّق على الشرط ، فهو عدم عند عدمه ، وإلا لم يكن شرطاً له ، وإذا ثبت هذا ، فالآية نصٌّ في انتفاء الهداية عند عدم طاعته[569].

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ ، والمعنى: أنّه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها ، وحملتم طاعته ، والانقياد له ، والتسليم[570].

ج ـ الآيات التي جاء فيها الأمر باتباعه والتأسي به والأخذ بما شرعه:

فقد جاء الأمر من الله تبارك وتعالى باتباع رسوله (ﷺ) والتأسي به في مواطن متعددة كما في كتابه العزيز[571]. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31].

---

[564] أعلام الموقعين ، لابن القيم (48/1).
[565] أبو داود رقم (4604).
[566] مسلم (15/6).
[567] البخاري رقم (7144).
[568] حقوق النبي على أمته (177/1).
[569] المصدر نفسه (177/1).
[570] حقوق النبي (ص) على أمته (187/1).
[571] المصدر نفسه (178/1).



ففي هذه الآية الأولى جعل الله الاتّباع سبيلاً إلى نيل حبّه ، ووسيلةً إلى تحقيق رضاه ، وحصول غفرانه ، إذ باتّباع الرسول (ﷺ) يحصلُ حبُّ الله تعالى ورضاه ومثوبته ، فالخير كلّ الخير في اتّباعه ، والشرّ كلّ الشرّ في مخالفته والابتعاد عن سنته ، فالاتّباع هو دليل المحبّة وبرهانها ، وبتحقّقه تكون المحبّة التي هي إحدى ثمراته ، كما قال تعالى: ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ، كما أنّ من ثمراته غفران الذنوب ، كما جاء في هذه الآية نفسها ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾

وهذه المنزلةُ والمكانةُ لاتّباع الرسول (ﷺ) نابعةٌ من كون هذا الاتباع إنّما هو في الحقيقة اتباع لله ، إذ الرسول (ﷺ) إنّما جاء لهذا الدين من عند الله عز وجل ، فهو شـرعُ الله ودينه الذي أوحاه لرسـوله (ﷺ) ليبلغه للعباد ، فالرسـول (ﷺ) إنّما هو مبلّغ عن الله ، ولم يأتِ بشـيء من عند نفسـه ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *﴾ [الكهف : 110]. وقال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة : 285].

ومن الآيات التي جاء فيها الأمرُ بالتأسّي به واتباعه قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *﴾ [الاعراف : 158].

جاء الأمر بالاتباع عقب الأمرِ بالإيمان تأكيداً على وجوب اتباع النبي (ﷺ) ، وإلا فإنّ الاتباع داخل في الإيمان ، ولكن أفرد بالذكر هنا تنبيهاً على أهميته وعظيم منزلته[572].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُـولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشـر : 7]. فهذه الآية أوجبت الاتّباع المطلق للنبي (ﷺ) ، فما أمر به من شـيء ، فإن علينا فعله ، وما نهى عن شـيء ، فإنّ علينا تركه واجتنابه ، فهو لا يأمر إلا بخير ، ولا ينهى إلا عن شر[573].

وفي هذا الاتّباع والانقياد حياتنا وفلاحنا ، كما قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْـتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ *﴾ [الانفال : 24].

إذ الحياةُ الحقيقية الطيّبة هي حياةُ مَنِ اسـتجابَ لله ولرسـوله (ﷺ) ظاهراً وباطناً، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات، وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكملُ الناس حياة أكملَهم استجابةً لدعوة الرسول (ﷺ) ، فإنّ كلّ ما دعا إليه ففيه الحياة ، فمن فاته جزءٌ منه فاته جزءٌ من الحياة ، وفيه من الحياة بحسـب ما اسـتجاب للرسول(ﷺ)[574].

---

[572] حقوق النبي (ص) على أمته (180/1).

[573] المصدر نفسه (180/1).

[574] الفوائد ، لابن القيم ص 88 بتصرف.



ولقد أعقب هذا الأمرَ بالاستجابة تحذيرَ مَنْ تركَ الاستجابة له ، أو تثاقل وتباطأ عنها ، فقال تعالى: والمعنى: أنكم إن تثاقلتم عن ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ ، وأبطأتم عنها ، فلا تأمنوا أنّ الله يحول بينكم وبين قلوبكم ، فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم بعد وضوح الحق واستبانته[575].

وأما قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا *﴾ [الاحزاب : 21].

فقد جعل الله تبارك وتعالى من رسوله (ﷺ) الأسوة والقدوة ليحتذيَ به الخلقُ في أقواله وأفعاله ، وجميع ما جاء به النبي (ﷺ)[576]، قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة أصلٌ كبيرٌ في التأسّي برسول الله (ﷺ) في أقواله وأفعاله وأحواله[577].

د. الآيات التي جاء فيها التسليم لحكمه والانقياد له:

قال تعالى: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا *﴾ [النساء : 65].

يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدّسة أنّه لا يؤمن أحدٌ حتى يحكِّمَ الرسول (ﷺ) في جميع الأمور ، فما حَكَمَ به فهو الحقُّ الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ، ولهذا قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا *﴾ [النساء : 65] ، أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم ، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمتَ به ، وينقادون له في الظاهر والباطن ، فيسلّمون لك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة[578].

وهذه الآية ينبغي لكلِّ مسلم أن يعرض نفسه عليها[579] ومتى أراد العبدُ أن يعلم ـــ قبوله لحكم الرسول (ﷺ) والتسليم له ـــ فلينظرْ في حاله ، ويطالعْ قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه ، أو على خلاف ما قلد فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها: ﴿ بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ *وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ *﴾ [القيامة : 14 ـ 15].

فسبحان الله كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص بودّهم أنْ لو لم ترد؟ وكم من حزازة في أكبادهم منها؟ وكم من شجًى في حلوقهم منها ومن موردها؟ ستبدو لهم تلك السرائر بالذي يسوء ويخزي يوم تبلى السرائر[580].

---

[575] الفوائد ، لابن القيم (90).
[576] حقوق النبي (ص) على أمته (181/1).
[577] تفسير ابن كثير (474/3).
[578] تفسير ابن كثير (520/1).
[579] حقوق النبي (ص) على أمته (183/1).
[580] حقوق النبي (ص) على أمته (183/1).



ومن الآيات التي جاءت في وجوب التسليم لحكمه ، والانقياد له ، قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ [النور : 51].
وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً *﴾ [الاحزاب : 36].

وأمّا الأحاديث النبوية في حَثِّ الأمة على طاعة رسول الله (ﷺ) وامتثال أمره ، واتباع ما جاء به ، فهي كثيرةٌ منها: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله (ﷺ) قال: «كلُّ أمتي يدخلونَ الجنَّةَ إلا مَنْ أبى» قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخلَ الجنَّة ، ومن عصاني فقد أبى»[581].
وقال رسول الله (ﷺ): «من أطاعني فقد أطاعَ الله ، ومن عصاني فقد عصى الله»[582].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ رسول الله (ﷺ) قال: «ما مِنْ نبيٍّ بعثَه اللهُ في أُمةٍ قبلي إلاّ كان له من أُمّته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنّته ، ويقتدون بأمره ، ثم إنّها تخلف من بعدهم خلوفٌ يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، ومن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراءَ ذلك من الإيمان حبةُ خردلٍ»[583].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاءَ ثلاثةُ رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي (ﷺ) يسألون عن عبادة النبي (ﷺ)، فلمّا أخبروا كأنّهم تقالّوها ، فقالوا: وأينَ نحنُ من النبيّ (ﷺ) ، وقد غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر؟! قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلّي الليل أبداً. وقال اخر: أنا أصومُ الدهرَ ولا أفطرُ. وقال اخر: أنا أعتزِلُ النساءَ فلا أتزوّجُ أبداً.

فجاء رسول الله (ﷺ) فقال: «أنتم الذين قلتُم كذا وكذا؟ أما واللهِ أنِّي أخشاكم للهِ وأتقاكم له ، ولكنِّي أصومُ وأُفْطِرُ، وأُصَلّي وأَرْقُدُ ، وأتزوّجُ النساءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عن سنّتي فليسَ مني»[584].
وقد رسم النبي (ﷺ) في هذا الحديث ركيزتين أساسيتين في هذا الدين هما: الاتباع ، وترك الابتداع[585].

وقد بيّن الرسول (ﷺ) مواقفَ الناسِ من الأخذ بدعوته واتّباع سنته ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبيّ (ﷺ) أنه قال: «إنّ مثلَ ما بعثني الله به عزّ وجلّ من الهُدى والعلم كمثل غيثٍ أصابَ أرضاً ، فكانت منها طائفةٌ طيبةٌ قبلتِ الماءَ فأنبتتِ الكلأَ والعشبَ الكثيرَ ، وكان منها أجادِبُ أمسكتِ الماءَ ، فنفع الله منها الناسَ ، فشربوا

---

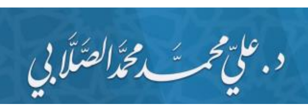
581 البخاري رقم (7280).

582 البخاري رقم (7137).

583 مسلم (50).

584 البخاري رقم (563).

585 حقوق النبي (ص) على أمته (197/1).



منها ، وسُقوا ، وزرَعوا ، وأصابَ طائفةً منها أُخرى ، إنّما هي قِيعانٌ لا تمسِكُ ماءً ، ولا تُنْبِتُ كلأً ، فذلك مَثَلُ مَنْ فَقِه في دينِ اللهِ ، ونفعه الله به فعلِمَ وعَلَّمَ ، ومثل مَنْ لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به»[586].

وفي هذا الحديث قسّم النبيُّ (ﷺ) الناسَ ــ فيما يتّصل بدعوته ــ إلى ثلاث أقسام ، وشبّه (ﷺ) العِلْمَ الذي جاء به بالغيث ، لأنّ كلاً منهما سبب الحياة ، فالغيثُ سببُ حياة الأبدان ، والعلمُ سببُ حياة القلوب ، وشبّه القلوبَ بالأودية كما قال تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد : 17] كما أنّ الأرضين ثلاثة بالنسبة إلى قبول الغيث.

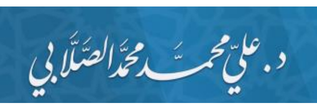
إحداها: أرضٌ زكية، قابلةٌ للشراب والنبات ، فإذا أصابها الغيثُ ارتوتْ ، ومنه يثمِرُ النبتَ من كلِّ زوجٍ بهيجٍ ، فذلِكَ مَثَلُ القلبِ الزكي الذكي ، فهو يَقْبَلُ العلمَ بذكائه ، فيثمِرُ فيه وجوه الحِكَمِ ودين الحق بزكائه ، فهو قابِلٌ للعلم بذكائه ، ويثمِرُ فيه وجوهَ الحكم والدين بزكائه ، فهو قابِلٌ للعلمِ مثمرٌ لموجبه وفقهه وأسرار معادنه.

والثانية: أرضٌ صلبةٌ قابلةٌ لثبوتِ ما فيها وحفظه ، فهذه تنفعُ الناسَ لورودها والسقي منها ، والازدراع وهو مثل القلب الحافظ للعلم ، الذي يحفظه كما سمعه دون في تصرّف فيه ، ولا استنباط ، بل للحفظِ المجرّدِ فهو يؤدّي كما سمع ، وهو مِنَ القسم الذي قال فيه النبيُّ (ﷺ): «فَربَّ حامِلِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقه منه ، وربَّ حامِلِ فقهٍ غيرِ فقيهٍ»[587].
فالأول: كمثل الغني التاجر الخبير بوجوه المكاسب والتجاراتِ ، فهو يكسب بماله ما شاء.
والثاني: مثل الغني الذي لا خبرةَ له بوجوه الربح والمكسب ، ولكنّه حافِظٌ لما لا يحسن التصرف والتقلب فيه.
والأرض الثالثة: أرضٌ قاعٌ ، وهو المستوى الذي لا يقبلُ النباتَ ، ولا يمسِكُ ماءً ، فلو أصابها من المطر ما أصابها لم تنفع منه بشيءٍ.
فهذا مثل القلب الذي لا يقبل العلم والفقه والدراية ، وإنّما هو بمنزلة الأرض البور التي لا تنبت ولا تحفظ ، وهو مثلُ الفقيرِ الذي لا مال له ، ولا يحسن يمسك مالاً.

فالأول: عالمٌ معلّمٌ ، وداع إلى الله على بصيرةٍ ، فهذا من ورثةِ العلم.
والثاني: حافظٌ مؤدٍّ لما سمعه ، فهذا يحمِلُ لغيره ما يتّجِرُ به المحمولُ إليه ويستثمر.
والثالث: لا هذا ولا هذا ، فهو الذي لم يقبل هدى الله ، ولم يرفع به رأساً فاستوعب هذا الحديثُ أقسام الخلق في الدعوة النبوية ومنازلهم منها قسمان: قسم سعيد ، وقسم شقي[588].

---

[586] البخاري رقم (79).
[587] سنن ابن ماجه (188/2) حديث صحيح.
[588] حقوق النبي على أمته (201/1).





هـ – الأدلة من القرآن الكريم على التحذير من معصية الرسول (ﷺ) وحكم من خالفه:

ورد التحذيرُ من معصية الرسول (ﷺ) في مواطنَ عدّة من القرآن الكريم ، وقد جاء التحذيرُ مصحوباً بالوعيد الشديد لذلك المخالف العاصي ومن تلك المواطن.

قوله تعالى: ﴿ لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *﴾ [النور : 63].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ *﴾ [النساء : 14].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً *﴾ [النساء : 36].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا *﴾ [الجن : 23].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *﴾ [الانفال : 13].

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ *﴾ [التوبة : 63].

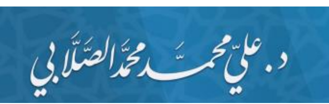
وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ *﴾ [المجادلة : 20].

كما أنّ كلَّ من أعرضَ عن حكم الرسول (ﷺ) ولم ينقد له ، ولم يرضَ به إلاّ إذا كان موافقاً لهواه ، فهو محكومٌ عليه بالنفاق بنصِّ القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا *﴾ [النساء : 60 ـ 61].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ *وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ *أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ [النور : 48 ـ 51].

فمن سمةِ المنافقين أنّهم لا يتحاكمون لشرع الله ، إلاّ إذا كان الحقّ في صفّهم ، وحكم الشرع لصالحهم ، أمّا إذا كان الأمرُ على خلافِ ذلك ، فلا ترى منهم سوى الإعراضِ عن شرع الله المتمثّل في كتاب الله وسنة نبيه (ﷺ). وأمّا أهل الإيمان الذين ترسّخ في قلوبهم الإيمانُ بشرع الله اعتقاداً بالقلبِ ، وقولاً باللسان ، وعملاً بالجوارح ، فإنّ من صفاتهم وعلاماتهم تحاكمهم لكتاب الله وسنة رسول الله (ﷺ) في جميع أحوالهم وشؤونهم مع الرضى والتسليم لذلك الحكم



سواء كان لهم أم عليهم ، ولذلك فقد وصف الله أهل الإيمان بالفلاح[589]، فقال تعالى: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ بينما وصفَ أهلَ النفاقِ بالظلم حيث تعالى: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *﴾.

3 . وجوب محبته (ﷺ):

لما كانت محبة الله ورسوله (ﷺ) من أعظم واجبات الإيمان ، وأكبر أصوله ، وأجل قواعده ، بل هي أصلُ كل عمل من أعمال الإيمان والدّين ، كما أنَّ التصـــديق أصــلُ كلّ قولٍ من أقوال الإيمان[590]، ولما كانت هذه المحبةُ من الإيمان الواجب الذي لا يتمّ إيمانُ العبدِ إلاّ به ، ولما كانت هذه المحبّة هي إحدى الحقوق الواجبة للنبيّ (ﷺ) على أمته ، فقد جعل الله هذه المحبة فوق محبة الإنسانِ لنفسه وأهله وماله والناس أجمعين ، كما نصَّ على ذلك:

أ . في كتاب الله العزيز ،

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِـيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَـوْنَ كَسَـادَهَا وَمَسَـاكِنُ تَرْضَـوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُـولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَـبِيلِهِ فَتَرَبَّصُـوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *﴾ [التوبة : 24].

فالآية نصّـــت على وجوب محبة الله ورســـوله (ﷺ) ، وأنّ تلك المحبة يجب أن تكون مقدّمةً على كلِّ محبوبٍ ، ولا خلافَ في ذلك بين الأمة[591].

كفى بهذه الآية حضّـاً وتنبيهاً ، ودلالة وحجة على لزوم محبته ، ووجوب فرضـــها ، واســتحقاقه لها (ﷺ) ، إذا قرّع تعالى مَنْ كان مالُه وأهلُه وولدُه أحبَّ إليه من الله ورســوله (ﷺ) ، وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿ فَتَرَبَّصُـــوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ ، ثم فسّقهم بتمام الآية ، وأعلمهم أنهم ممّن ضلَّ ، ولم يهده الله[592].

ب . ومن الآيات التي يستدلّ بها على وجوب محبّةِ النبي (ﷺ)

قوله تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ، فالآية دليلٌ على أنّ مَنْ لم يكن الرسول (ﷺ) أولى به من نفسه، فليس من المؤمنين ، وهذه الأولوية تتضمّن أموراً أهمها:

أن يكونَ النبي (ﷺ) أحبَّ إلى العبدِ من نفســه ، لأنَّ الأولية أصـلُها الحبّ ، ونفس العبد أحبُّ إليه من غيره ، ومع هذا يجب أن يكون الرسول (ﷺ) أولى به منها ، فبذلك يحصلُ له اسمُ الإيمانِ.

ويلزمُ من هذه الأولوية والمحبة كما الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة من الرضا بحكمه والتسليم لأمره ، وإيثاره على من سواه[593].

---

[589] حقوق النبي على أمته (252/1).

[590] مجموع الفتاوي (48/10 . 49).

[591] تفسير القرطبي (95/8) بتصرف.

[592] الشفا (563/2).

[593] حقوق النبي على أمته (304/1).

ج . ومما يستدلُّ به كذلك على وجوب محبّة النبي (ﷺ)

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة : 165].

ووجه الاستدلال بهذه الآية: أنَّ الآية قد تضمّنت وجوبَ محبة النبي (ﷺ) ، لأنّه ممّا يدخل في محبة الله محبة ما يحبّه الله ، والله يحبُّ نبيه وخليله (ﷺ) ، فمن أجل ذلك وجبتْ علينا محبته ، ومن المعلوم أن أصــل حب أهل الإيمان هو حب الله ، ومن أحب الله أحب من يحبه الله ، وكل ما يحب سواه فمحبته تكون تبعاً لمحبة الله ، إذ ليس في الوجود ما يســـتحقُّ أن يحبّ لذاته من كلّ وجهٍ إلا الله تعالى ، فالرســـولُ (ﷺ) إنّما يحب لأجل الله ، ويطاع لأجل الله ، ويتبع لأجل الله ، وكذا الأنبياء والصــالحون وســائر الأعمال الصــالحة تحَبُّ جميعاً ، لأنها مما يُحِبُّ الله ، وبهذا يعلم تعين محبة النبي (ﷺ) ووجوبها ولزومها.

هذا وقد جاء ذكر محبة الرســـول (ﷺ) مقترناً بمحبّة الله في قوله تعالى: وكذلك في قوله (ﷺ): ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ بهنّ حلاوةَ الإيمان: مَنْ كانَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممّا سواهما...»[594].

وهذا الاقترانُ يدلِّل على مدى الصـــلة الوثيقة بين محبة الله ومحبة رســـول الله (ﷺ)، وإن كانتْ محبّةُ الرســـولِ (ﷺ) داخلةً ضِـــمْنَ محبة الله تعالى أصـــلاً ، لكنّ إفرادها بالذكر مع أنّها ضِـــمْنَ محبّة الله فيه إشـــارة إلى عِظَمِ قدرها وإشـــعارٌ بأهميتها ومكانتها[595].

د . ومن الأدلة:

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [آل عمران: 31].

ففي هذه الآية إشـــارةٌ ضـــمنية إلى وجوبِ محبّة النبيّ (ﷺ) ، لأنَّ الله تبارك وتعالى قد جعل برهانَ محبّته تعالى ودليلَ صدقها هو اتّباعُ النبيِّ (ﷺ) ، وهذا الاتّباعُ لا يتحقّقُ ولا يكونُ إلا بعد الإيمان بالنبيِّ (ﷺ) ، والإيمانُ به لابدّ فيه من تحقق شـــروطه ، التي منها محبة النبي (ﷺ) ، فعن أبي هريرة رضـــي الله عنه أنَّ رســـول الله (ﷺ) قال: «فوالذي نفســـي بيده لا يؤمنُ أحدُكم حتّى أكونَ أحبَّ إليه من ولده ووالده»[596].

هـ والأدلة من السنة على وجوب محبته (ﷺ) كثيرة منها:

قوله (ﷺ): «لا والذي نفسي بيده حتى أكونَ أحبَّ إليكَ من نفسِكَ» فقال له عمر: فإنّه الان واللهِ لأنتَ أحبُّ إليَّ من نفسي ، فقال النبي (ﷺ): «الان يا عمر»[597].

---

594 البخاري رقم (21).

595 حقوق النبي على أمته (306/1).

596 البخاري رقم (14).

597 البخاري رقم (6632).

وعن أنس رضـــي الله عنه قال: قال النبي (ﷺ): «لا يؤمنُ أحدُكم حتّى أكونَ أحبَّ إليه من والدِهِ وولدِهِ والناسِ أجمعين»[598].

وعن أنس بن مالك رضـــي الله عنه عن النبيِّ (ﷺ) قال: «ثلاثٌ منْ كُنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمان: أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممّا سواهما ، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبّه إلا لله ، وأن يكرَهَ أن يعودَ في الكفرِ بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يُقْذَفَ في النار»[599].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: «وما أعددتَ للساعة؟» قال: حب الله ورسوله. قال: «فإنك مع مَنْ أحببت» قال أنس: فما فرحنا بعدَ الإسلام فرحاً أشدَّ من قول النبي (ﷺ): «فإنك مع من أحببتَ» قال أنس: فأنا أحبُّ الله ورســـوله وأبا بكر وعمرَ ، فأرجو أن أكون معهم ، وإن لم أعمل بأعمالهم[600].

من علامات محبته (ﷺ):

- اتباعه والأخذ بسنته (ﷺ).
- الإكثار من ذكره (ﷺ).
- تمني رؤيته والشوق إلى لقائه (ﷺ).
- النصيحة لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم.
- تعلّم القرآن الكريم.
- محبة من أحب الله ورسوله (ﷺ).
- بغض من أبغض الله ورسوله (ﷺ).
- الزهد في الدنيا[601].

---

[598] البخاري رقم (15).

[599] البخاري رقم (21).

[600] البخاري رقم (6171).

[601] حقوق النبي على أمته (321/1).



4 . وجوب تعزيره وتوقيره وتعظيمه:

ومعنى التعزير: اسمٌ جامع لنصره وتأييده ، ومنعه من كل ما يؤذيه[602].

ومعنى التوقير: اسم جامع لكلِّ ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام ، وأن يعامَل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حدّ الوقار[603].

ومعنى التعظيم: التبجيل ، وقد استخدمه العلماء في كلامهم عند هذه المسألة ، وذلك لقربه في المعنى إلى ذهن السامع ، ولتأديته للمعنى المراد من لفظتي (التعزير) و(التوقير)[604].

إنّ تعظيمَ النبي (ﷺ) وإجلالَه وتوقيرَه شعبةٌ عظيمةٌ من شعب الإيمان ، وهذه الشعبةُ غير شعبة المحبة ، بل إنَّ منزلتها ورتبتَها فوقَ منزلة ورتبة المحبة ، ذلك لأنّه ليس كلُّ محبِّ معظِّماً ، ألا ترى أنّ الوالد يحبُّ ولده ، ولكن حبه إياه يدعوه إلى تكريمه ، ولا يدعوه إلى تعظيمه ، والولد يحب والده فيجمع بين التكريم والتعظيم ، فعلمنا بذلك أنَّ التعظيم رتبته فوق رتبة المحبة[605].

ومن حق النبي (ﷺ) على أمته أن يُهابَ ويعظَّم ويوقّر أكثر من كل ولد لوالده ، ومن كل عبد لسيده ، فهذا حق من حقوقه الواجبة[606]. وهو ما أمر الله به في كتابه العزيز قال تعالى: ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح : 9]. وقال تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ [الاعراف : 157].

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة جاء فيها التأكيد على هذا الحق من حقوقه (ﷺ) وبخاصة في جوانب معينة من جوانب تعظيمه ، ومن تلك الآيات ما يلي:

أ ــ قوله تعالى: ﴿ لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: 63]. ففي هذه الآية نهي من الله أن يدعى رسول الله (ﷺ) بغلظة وجفاء ، وأمرهم أن يدعوه بلين وتواضع[607]، وأمرهم أن يفخّموه ويشرّفوه[608].

فقد خص الله نبيه في هذه الآية بالمخاطبة بما يليق به ، فنهى أن يقولوا: يا محمد أو يا أحمد ، أو يا أبا القاسم ، ولكن ليقولوا: يا رسول الله ، يا نبي الله ، وكيف لا يخاطبونه بذلك ، والله سبحانه أكرمه في مخاطبته إياه بما لم يكرمْ به

---

[602] الصارم المسلول ، لابن تيمية ص (422).

[603] المصدر نفسه ص (422).

[604] حقوق النبي على أمته (422/2).

[605] المصدر نفسه (423/2).

[606] المصدر نفسه (423/2).

[607] تفسير الطبري (177/18).

[608] المصدر نفسه (177/18).



أحداً من الأنبياء ، فلم يدعُه باسمه في القرآن قط بل يقول: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [الاحزاب : 28]. وقال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة : 67][609].

ب ـ وقال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ولاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ *إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ *إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ *وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [الحجرات : 1 ـ 5].

ج ـ وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ التوبة : 120].

د ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِيناً *﴾ [الاحزاب : 57].

هـ ـ وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا *﴾ [الاحزاب : 53].

و ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *﴾ [النور: 62 ـ 63].

فهذه الآيات تبيّنُ لنا حقوق رسول الله (ﷺ) ، وأنّه أجلّ وأعظمُ وأكرمُ وألزمُ لنا وأوجبُ علينا من حقوق الاباء على أولادهم ، لأنّ الله أنقذنا به من النار في الاخرة ، وعصم به لنا أرواحنا وأبداننا وأعراضنا وأموالنا وأهلينا وأولادنا في العاجلة ، فهدانا به لأمر إن أطعناه كانت طاعته سبباً في دخول جنات النعيم ، فأيُّ نعمة توازي هذه النعم؟! وأية مِنّةٍ تداني هذه المنن؟! فحقٌّ علينا إذن أن نحبّه ونجلّه ونعظّمه ونهابه ، فبهذا نكون من المفلحين: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ

609 حقوق النبي على أمته (425/2).

الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ [الأعراف: 157][610].

فالآية بيّنت أنّ الفلاح إنّما يكون لمن جمع إلى الإيمان به تعزيره ولا خلاف أن التعزير هنا التعظيم ، فلقد سجل الله في هذه الآية الفلاح بأسلوب الحصر للذين تأدّبوا بهذا الأدب القرآني الرفيع ، وكما قال تعالى في الإناطة بمقامه الأشرف ، وبيان حقه على كل مؤمن ومؤمنة: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا *لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: 8 ـــ 9] ، راجع إلرسول الله (ﷺ) وتفخموه في أدب المخاطبة ، والتحدث إليه ومجالسته[611]، فالتسبيحُ لله وحده ، والتعزيرُ والتوقيرُ للرسول (ﷺ) ، والإيمان بالله ورسله[612].

فهذه الآيات وغيرُها نزلت لتبيّن مقامَ شرف رسول الله (ﷺ) وعظيم منزلته عند ربه ، مما يوجِبُ على المؤمنين برسالته أن يكونوا في مخاطبتهم معه على سنن الإجلال والتعظيم[613].

ومما يدل على عظيم قدره ، ورفعة مكانته عند ربه ، الخصائص التي أمتنّ الله بها على عبده ورسوله محمد (ﷺ) ، والتي تدلل على تشريف الله عز وجل وتكريمه لنبيه محمد (ﷺ) ، فقد أكرم الله نبينا محمد بخصائص في الدنيا والاخرة دلّت على علو قدره ، ورفعة مكانته ، وسموّ منزلته عند الخالق تبارك وتعالى ، فقد قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا *﴾ [النساء : 113].

ففي هذه الآية يمتنُّ الله على نبيه (ﷺ) بما أسبغَ عليه من الفضائل ، التي هي المناقب والمراتب التي أعطاه الله إياه ، وميّزه بها على بقية أنبيائه ، فالله سبحانه فضّل بعض الرسل على بعض ، فقال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة : 253].

فكان لنبيّنا محمد (ﷺ) النصيبُ الأوفر من هذا الفضل ، فقد خصّه الله وميّزه بخصائص ومناقب دنيوية وأخروية ، فُضِّلَ بها على سائر الأنبياء ، ومَنْ سواهم من البشر.

---

[610] حقوق النبي على أمته (2/445).
[611] المصدر نفسه (2/445).
[612] المصدر نفسه (2/446).
[613] المصدر نفسه (2/446).





ومن هذه الخصائص على وجه الاختصار[614]:

أ. أخذ العهد له (ﷺ) على جميع الأنبياء والرسول عليهم الصلاة والسلام:

من الأمور التي تدل على عظيم قدره (ﷺ) عند ربه ما أخذ الله من العهد له (ﷺ) على جميعِ الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام على أنّه لو بُعِثَ (ﷺ) وهم أحياء
أو أحدٌ منهم ، فإنّه يجب عليهم أن يؤمنوا به ويتبعوه وينصروه[615].

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ *﴾ [آل عمران: 81].

ب. أنه (ﷺ) أكثرُ الأنبياء تبعاً:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ (ﷺ) قال: «ما مِنْ نبيٍّ إلا أُعْطِيَ من الآيات ما مِثْلُهُ امنَ عليه البشرُ ، وإنّما كان الذي أُوْتِيْتُه وَحْياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يوم القيامة»[616].
وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «أنا أكثرُ الأنبياء تبعاً يوم القيامة»[617].

ج. أنّ قرنه (ﷺ) خيرُ قرون بني ادم كما أنه خير قرون أمته والقرون التي تلي قرنه (ﷺ):

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله (ﷺ) قال: «بُعِثْتُ من خيرِ قرونِ بني ادم قرناً فقرناً حتى كنتُ من القرنِ الذي كنتُ فيه»[618].
وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) قال: «خيرُ الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم»[619].

د. أن الله تعالى أخبره أنه غَفَرَ له ما تقدّمَ من ذنبه وما تأخّرَ وهو حيٌّ صحيحٌ يمشي على الأرض:

قال تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً *لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا *وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا *﴾ [الفتح : 1 . 3].

---

614 حقوق النبي على أمته (394/2).
615 المصدر نفسه (395/2).
616 البخاري رقم (7374).
617 مسلم رقم (130/1).
618 البخاري رقم (3557).
619 البخاري رقم (3557).



هـ – أن الله رفع له ذكره:

قال تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ *﴾ [الشرح : 4].

فلا يذكر الله سبحانه إلا ذكر معه ، ولا تصحُّ للأمة خطبةٌ ولا تشهّدٌ حتى يشهدوا أنّه عبده ورسوله ، وأوجب ذكره في كل خطبة ، وفي الشهادتين اللتين هي عمادُ الدين ، إلى غير ذلك من المواضع[620].

و . أن الله أقسم بحياته (ﷺ):

قال تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ *﴾ [الحجر : 72].

والإقسامُ بحياة المقسَم بحياته يدلُّ على شرف حياته ، وعزتها عند المقسم بها ، وأنّ حياته (ﷺ) لجديرةٌ أن يقسَمَ بها لما فيها من البركة العامة والخاصة ، ولم يثبت هذا لغيره (ﷺ)[621].

ز . أن الله وقره في ندائه ، فناداه بأحبِّ أسمائه وأحسنِ أوصافه ، فقال: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾:

وهذه الخصيصة لم تثبت لغيره ، بل ثبت أنَّ كلا منهم نودي باسمه ، فقال تعالى: ﴿ يَازَكَرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم : 7]، ﴿ يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم : 12] ، ﴿ يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ [ص : 26]. ﴿ يَاآدَمُ اسْكُنْ﴾ [البقرة : 35]. ﴿ يانُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ﴾ [هود : 48]. ﴿ يالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ [هود : 81].

فمن دُعِيَ بأفضل أوصافه وأخلاقه كان ذلك مبالغة في تعظيمه واحترامه[622].

ح . أنّ الله أمرَ الأمةَ بأن لا تناديه باسمه ، بل تناديه يا رسول الله ، يا نبي الله[623]:

قال تعالى: ﴿ لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *﴾ [النور : 63].

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير عند تفسيرها كانوا يقولون: يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عزّ وجلّ عن ذلك إعظاماً لنبيه (ﷺ) ، وأمرهم أن يقولوا: يا نبي الله ، يا رسول الله[624].

ط ـــ أن الله نهى الأمة أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته (ﷺ) ولا يجهروا له بالقول ، كما هو الحال بين الناس ، حتى لا تحبطَ أعمالهم:

---

[620] حقوق النبي على أمته (401/2).
[621] المصدر نفسه (401/2).
[622] حقوق النبي على أمته (402/2).
[623] تفسير ابن كثير (306/3).
[624]

قال الله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ولاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ *﴾ [الحجرات : 2].

فعن أنس بن مالك رضـي الله عنه أن النبي (ﷺ) افتقد ثابتَ بن قيس[625] ، فقال رجلٌ: يا رسـول الله أنا أعلمُ لك عِلْمَه ، فأتاه ، فوجده جالساً في بيته منكِّساً رأسَه ، فقال له ما شأنك؟.

فقال: شر. كان يرفعُ صوته فوقَ صوت النبي (ﷺ) ، فقد حبط عمله ، وهو من أهل النار ، فأتى الرجلُ النبيَّ (ﷺ) فأخبره أنّه قال كذا وكذا ، فقال موسى[626] ، فرجع إليه المرة الاخرة ببشارةٍ عظيمة ، فقال: «اذهب إليه فقل له: إنكَ لستَ من أهل النار ، ولكنّك من أهلِ الجنَّة»[627].

قال عبد الله بن الزبير بن العوام: ما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمعُ رسول الله (ﷺ) بعد هذه الآية حتى يستفهمه[628].

ي ـــ أن الله أمرَ الأمةَ بأنهم إذا أرادوا أن يناجوه (ﷺ) بأن يقدّموا بين يدي نجواهم صدقةً ، ثم نسخ ذلك ، وأمرهم بالطاعة:

قال تعالى: ﴿ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّـلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *﴾ [المجادلة : 12 ـ 13].

ك ـ ما وهبه الله له من المعجزات التي تميزت عن معجزات من قبله من الأنبياء:

فمعجزة سـيد الأولين والاخرين هي القرآن العظيم ، الباقي إلى يوم الدين ، الذي لا تنضـبُ معانيه ، ولا تفنى عجائبه، ولا تنقطع فوائده ، وهو المحفوظ ـ بحفظ الله له ـ من التغيير والتبديل والتحريف ، فيه دواء وشفاء ، ومواعظ وأحكام ، فيه خبرُ مَنْ سبقنا ، وأحوالُ منْ بعدنا ، وهو حبلُ الله المتين ، مَنْ امن به واتبعه رشد ، ومن تركه وضلّ عنه غوى وهلك ، وخاب وخسر ، فهو المعجزة الخالدة الباقية ما بقي الإنسان في هذه الدنيا ، بينما تصـرّمت وانقرضت معجزاتُ مَنْ قبله من الأنبياء[629].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «ما مِنْ نبيّ إلا أُعْطِيَ من الآيات ما مِثْلُهُ امنَ عليه البشرُ، وإنّما كان الذي أوتيته وحياً أوحى الله لي ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يوم القيامة»[630].

---

[625] ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري الخزرجي.

[626] موسى بن أنس بن ثابت ، قاضي البصرة.

[627] البخاري رقم (4846).

[628]

[629] حقوق النبي على أمته (2/590).

[630] البخاري رقم (7274).



وكذلك فقد وجد من معجزاته ما هو أظهرُ في الإعجاز من معجزات غيره ، كتفجير الماء بين أصـــبعيه (ﷺ) ، فهو أبلغ في خرق العادة من تفجيره من الحجر ، لأن جنس الأحجار ممّا يتفجر منه الماء ، وكانت معجزته بانفجار الماء من بين أصابعه (ﷺ) أبلغُ من انفجار الماء من الحجر لموسى عليه الصلاة والسلام[631].

وعيسى عليه السلام أبرأ الأكمه مع بقاء عينه في مقرها ، ورسول الله (ﷺ) ردَّ العين بعد أن سالت على الخدِّ ، ففيه معجزة من وجهين: إحداهما: التئامها بعد سيلانها. والأخرى: ردُّ البصر إليها بعد فقده منها[632].

فعن عاصم بن عمر بن قتادة عن أبيه عن جده قتادة أنه أُصيبتْ عينُه يومَ أُحدٍ فسالت حدقتُه على وجنته ، فأرادوا أن يقطعوها ، فسألوا النبيّ (ﷺ) فقال: «لا». فدعا به ، فغمز عينه براحته ، فكان لا يَدرِي أيّ عينيه أصيبتْ.[633]

والأمثلة في هذا الباب كثيرة وقد تطرّق إليها مَنْ كتب في (الدلائل) و(الخصائص)[634].

قال الشافعي: ما أعطى الله نبياً ما أَعطى محمّداً (ﷺ)[635].

وقال السيوطي: قال العلماء: ما أوتي نبيٌّ معجزة ولا فضيلة إلا لنبينا (ﷺ) نظيرها أو أعظم منها[636].

ل . أنه سيد ولد ادم يوم القيامة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «أنا سيدُ ولدِ ادم يوم القيامة ، وأوّلُ من يَنْشَقُّ عنه القبر ، وأوّلُ شافعٍ وأوّلُ مشفّع»[637].

وسيادة النبي (ﷺ) للناس يوم القيامة تظهر واضحة جلية بما سيناله من الشرف العظيم يوم القيامة ، وعلى رأس ذلك الشرفِ شفاعتُه في أهل الموقف ، واختصاصه بذلك من بين الأنبياء والرسل[638].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنّا مع النبي (ﷺ) في دعوةٍ ، فرُفعت إليه الذراعُ ــ وكانت تُعْجِبُه ــ فنهسَ منها نهسةً ، قال: «أنا سيد الناسِ يومَ القيامة ، هل تدرون بمن يجمع الله الأولين والاخرين في صعيد واحد فيبصرهم الناظر،

[631] بداية السول في تفصيل الرسول ، للعز بن عبد السلام ص (41).

[632] المصدر السابق ص (41 . 42).

[633] أبو نُعيم في دلائل النبوة ص (418).

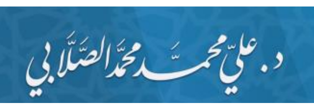
[634] كدلائل النبوة للبيهقي والخصائص الكبرى للسيوطي.

[635] اداب الشافعي ومناقبه لأبي حاتم ص (83).

[636] الخصائص الكبرى (304/2).

[637] مسلم رقم (59/7).

[638] حقوق النبي على أمته (407/2).



ويســمعهم الداعي ، وتدنو منهم الشــمس ، فيقول بعض الناس: ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما أبلغكم؟! ألا تنظرون إلى من شفع لكم إلى ربكم؟!.

فيقول بعض الناس: أبوكم ادم ، فيأتونه فيقولون: يا ادم أنت أبو البشــر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك مِنْ روحه ، وأمر الملائكةَ فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك؟! ألا ترى ما نحن فيه ما بلغنا؟!.

فيقول: ربي غَضِبَ غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، ونهاني عن الشجرة فعصيت ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح.
فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرســل إلى أهل الأرض ، وسمّاك الله عبداً شــكوراً ، أما ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى إلى ما بلغنا؟! ألا تشفع لنا إلى ربك؟.
فيقول: ربي غضبَ اليومَ غضباً لم يغضبْ قبله مثله ، ولا يغضبُ بعده مثله ، نفسي نفسي ، حتى ينتهوا إلى عيسى عليه السلام فيقول لهم: ائتوا النبيَّ (ﷺ) فيأتوني ، فأسجدُ تحت العرش ، فيقال: يا محمدُ ارفع رأسك ، واشفع تشفَّع، وسل تعطى»[639].

واشتمل الحديث كذلك على خصيصة أخرى تدلُّ على تخصيصه وتفضيله (ﷺ)، وهي كونه أول شافع ، وأول مشفّع ، فهذا أمرٌ خص الله تعالى به رسوله (ﷺ) ، إذ جعله الشفيع يوم المحشر في إتيان الرب جل جلاله لفصل القضاء بين عباده ، وهو المقام المحمود الذي لا يليقُ إلا له ، والذي يحيدُ عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين ، حتى تنتهي النوبة إليه ، فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه عليه[640].

وقد اتفق المســـلمون على أنه (ﷺ) أعظمُ الخلق جاهاً عند الله ، ولا جاه لمخلوق عند الله أعظمُ من جاهه ، ولا شفاعة أعظمُ من شفاعته[641].

م ـ أن الله جعل لواء الحمد بيد النبي (ﷺ) يوم القيامة:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «أنا سيّدُ الناس يوم القيامة ولا فخرَ ، ما مِنْ أحدٍ إلا هو تحت لوائي يوم القيامة ينتظِرُ الفرجَ ، وإن معي لواءَ الحمد ، أنا أمشـــي ويمشـــي الناس معي ، حتى اتي باب الجنة، فأســـتفتح ، فيقال: من هذا؟ فأقول محمد ، فيقال: مرحباً بمحمد ، فإذا رأيتُ ربي خررت له ســـاجداً أنظر إليه»[642].

---

[639] البخاري رقم (3340).
[640] حقوق النبي على أمته (2/408 ـ 409).
[641] مجموع الفتاوي (1/145).
[642] الحاكم في مستدركه (1/30).



وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «أنا سيد ولد ادم يوم القيامة ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذٍ ادمَ فمن سواه ، إلا تحت لوائي ، وأنا أول من تنشقُّ عنه الأرض ولا فخر»[643].

فهذه الخصيصةُ وغيرُها من الخصائص تدلُّ على علوِّ مرتبته (ﷺ) ، وعلوّ منزلته ، إذ لا معنى للتفضيل إلا التخصيص بالمناقب والمراتب[644].

ن . أنه أول من يجوز على الصراط ، وأول من يقرع باب الجنة ، وأول من يدخلها:

وهذه الأمور مما خُصَّ به النبي (ﷺ) عن باقي الأنبياء السابقين ، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل قال: إن ناساً قالوا: يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة؟... وفيه «يضرب الصراط بين ظهراني جهنم ، فأكونُ أول من يجوزُ من الرسلِ بأمته»[645].

وعن أنس رضـــي الله عنه قال: قال رســـول الله (ﷺ): «أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يقرعُ بابَ الجنة»[646].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «اتي باب الجنة يومَ القيامة فأستفتحُ ، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد ، فيقول: بك أُمرتُ لا أفتح لأحدٍ قبلك»[647].

---

643 مسند أحمد (2/3) ، سنن الترمذي رقم (3615) حسن صحيح.
644 غاية السول ص (35) حقوق النبي على أمته (410/2).
645 البخاري رقم (806).
646 مسلم (130/1).
647 مسلم (130/1).





5 ـ توقير النبي (ﷺ) في اله وأزواجه أمهات المؤمنين:

إنّ من توقير النبي (ﷺ) ورعاية جنابه وتبجيله وتعظيمه توقيرُ اله وذريته وأزواجه ، كما حضَّ عليه (ﷺ) ، وسلكه السلف الصالح رضوان الله عليهم.

أ ـ فآل بيت النبي (ﷺ) لهم من الحقوقِ ما يجبُ رعايتُها ، فإنَّ الله جعل لهم حقاً في الخمس والفيء:

قال تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾ [الانفال : 41].

وقال تعالى: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر : 7].

وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله (ﷺ) ، ففي الحديث عن كعب بن عُجْرة رضي الله عنه قال: خرجَ علينا رسول الله (ﷺ) فقلنا: قد عرفنا كيف نسلّم عليك ، فكيف نصلّي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى ال محمد ، كما صليت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد ، وعلى ال محمد ، كما باركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد[648]».

فالصلاة على ال محمّدٍ حقٌّ لهم عند المسلمين ، وذلك سببٌ لرحمة الله تعالى لهم بهذا النسب ، كما تجبُ محبتهم لحبِّ رسول الله (ﷺ) ، ولأن محبتهم من محبة رسول الله (ﷺ) ، وأنّ نتولاهم ، ونحفظ فيه وصية رسول الله (ﷺ) حيث قال في يوم غدير خم: «وأهل بيتي أذكّركم الله في أهل بيتي ، أذكّركم الله في أهل بيتي».

فقيل لزيد بن أرقم: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟.

قال: نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته مَنْ حُرِمَ الصدقةَ بعده.

قيل: ومن هم؟.

قال: الُ عليٍّ ، وال عقيل ، وال جعفر ، وال عباس.

قيل: كلُّ هؤلاء حُرِمَ الصدقة؟.

قال: نعم[649].

ولا تنكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم ، فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وُجِدَ على ظهر الأرض فخراً وحسباً ، إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية ، كما كان عليه سلفهم

[648] فتح الباري (532/8).
[649] مسلم (7/122 ـ 123).



العباس وبنوه وعلي وأهل بيته وذريته رضـــي الله عنهم أجمعين[650]. وكذلك ال عقيل وال جعفر كما في حديث مســلم السابق.

قال رسول الله (ﷺ): «إن الله اصطفى كنانةَ من ولدِ إسماعيلَ ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريشٍ بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم»[651].

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: ارقبوا محمّداً (ﷺ) في أهل بيته[652].

ب . أما زوجات النبي (ﷺ) رضوان الله عليهن أجمعين فيجب علينا أن نحفظ لهنّ حقهنّ في الحرمة والاحترام ، والتوقير والإكرام والإعظام ، والمكانة التي جعل الله لهنّ ، فلقد رفع الله مقامهن ، وبوّأهن أعلى منزلة عند جميع المؤمنين ، وهي منزلة الأمومة ، فجعلهنّ أمهات في التحريم والاحترام ، فقد قال تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الاحزاب : 6].

شـــرّف الله تعالى أزواجَ نبيّه (ﷺ) بأن جعلهن أمهات المؤمنين ، أي في وجوب التعظيم والإجلال ، وحرمة النكاح على الرجال ، وحجبهنّ رضي الله تعالى عنهن بخلاف الأمهات[653].

وكيف لا تكون لهنّ هذه المنزلة والمكانة وهنّ اللائي اخترن الله ورسوله (ﷺ) والدار الاخرة، عندما نزلت ايتا التخيير، قال تعالى: ﴿ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا *﴾ [الاحزاب : 28 . 29].

وبعد اختيارهن رضي الله عنهن اللهَ ورسولَه والدّارَ الاخرة كرّمهن الله تبارك وتعالى ، وكافأهنّ ، فكان لهنّ ما أعد الله لهنّ من الأجر العظيم.

ثم ميّزهن عن نساءِ العالمين في العذاب والأجر فقال: ﴿ يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [الاحزاب : 32]. يعني في الفضـــل والشـــرف ، وذلك لما منحهنَّ الله من صـــحبة نبيه (ﷺ) ، وعظيم المحل منه ، ونزول القرآن في حقهن[654].

ولقد تضـمنت سـورة الأحزاب كثيراً من الأمور التي أكرم الله بها أزواج النبي (ﷺ) ، مجازاة لهن على حسـن صـنيعهن في اختبارهنّ لله ورســوله والدار الاخرة ، فمن حقهنّ علينا أن نحفظَ لهنَّ هذه المكانة ، وذلك بأن نتولاهن ، وأن نثني

[650] تفسير ابن كثير (113/4).
[651] مسلم (58/7).
[652] البخاري رقم (3713).
[653] تفسير القرطبي (123/14).
[654] تفسير القرطبي (177/14) بتصرف.

عليهن بما ورد في فضائلهن ، ومع ما كان لهن من دور في مؤازرة النبي (ﷺ) ونصرته ، وما كان لهنّ من دور بعد وفاته (ﷺ) في حفظ مسائل الدين ، ونشرها بين الأمة[655].

والمسلمون يتولّون أزواج رسول الله (ﷺ) أمهات المؤمنين ، ويؤمنون بأنهنّ أزواجه في الاخرة ، خصوصاً خديجة رضي الله عنها أم أولاده ، وأوّل من امن به ، وعاضده على أمره ، وكان له منها المنزلة العالية ، والصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما ، التي قال فيها النبي (ﷺ): «فضلُ عائشةَ على النساءِ ، كفضلِ الثريدِ على سائرِ الطعام»[656].

6 . توقيره (ﷺ) في أصحابه رضوان الله عليهم:

ومن توقيره وبرّه (ﷺ) توقيرُ أصحابه وبرُّهم ، ومعرفة حقهم ، والاقتداء بهم ، وحسنُ الثناء عليهم ، والاستغفارُ لهم، والإمساكُ عما شجر بينهم ، ومعاداةُ مَنْ عاداهم.. ولا يُذْكَرُ أحدٌ منهم بسوء ، ولا يُغْمَصُ[657] عليه أمرٌ ، بل تُذْكَرُ حسناتُهم وفضائلُهم وحميدُ سيرتهم ، ويُسْكَتُ عمّا وراء ذلك[658].

فهم أناس قد اختارهم الله وشرفهم بصحبة نبيه (ﷺ) ، وخَصَّهم في الحياة الدنيا بالنظر إلى النبيّ (ﷺ) ، وسماع حديثه من فمه الشريف ، وتلقي الشريعة وأمور الدين عنه ، وتبليغ ما بعث الله به رسوله (ﷺ) من النور والهدى على أكمل الوجوه وأتمّها ، فكان لهم الأجرُ العظيمُ لصحبتهم رسول الله (ﷺ) والجهادِ معه في سبيل الله ، وأعمالهم الجليلة في نشر الإسلام والدعوة إليه ، ولهم من الأجر مثل أجور مَنْ بعدهم ، لأنّهم الواسطة بينهم وبين رسول الله (ﷺ) ، ومن دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقصُ ذلك من أجورهم شيئاً ، ولقد أوجبت الحالُ التي كانوا عليها من الهجرةَ والجهادَ والنُّصرةَ ، وبذلَ المهَج والأموال ، وقتل الاباء والأولاد ، والمناصحة في الدين ، وقوة الإيمان واليقين: القطع على عدالتهم ، وأنهم أفضل من جمع المعدِّلين والمزكّين ، الذين يجيئون من بعدهم أبدَ الابدين[659].

ولقد أثنى ربّهم عليهم أحسنَ الثناء ، ورفع ذكرهم في التوراة والإنجيل والقرآن ، ووعدهم المغفرة والأجر العظيم ، فقال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *﴾ [الفتح : 29].

---

[655] حقوق النبي على أمته (483/2 . 484).
[656] مجموع الفتاوى (154/3) البخاري رقم (3770).
[657] لا يغمص: لا يعاب ولا ينقص في أمر من أموره.
[658] الشفا (611/2 . 612).
[659] حقوق النبي على أمته (486/2).



وأخبر في ايةٍ أُخرى برضاه عنهم ، ورضاهم عنه ، فقال تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *﴾ [التوبة : 100]. وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح : 18].

وأمر النبيُّ بالعفو عنهم ، والاستغفار لهم ، فقال: ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159].

وأمره بمشاورتهم تطييباً لقلوبهم ، وتنبيهاً لِمَنْ بعدهم من الحكّام على المشاورة في الأحكام فقال: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 159].
وندب مَنْ جاء بعدهم إلى الاستغفار لهم ، وألا يجعلوا في قلوبهم غِلاًّ للذين امنوا فقال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *﴾ [الحشر : 10].

وأثنى رسول الله (ﷺ) عليهم ، ونهى عن النيل منهم ، فقال (ﷺ): «لا تسبّوا أصحابي ، فلو أنّ أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغَ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[660].
كما شهد (ﷺ) بكونهم خيرَ أمته التي هي خيرُ الأمم ، فقال (ﷺ): «خير الناس قرني» فالصحابة كلّهم عدولٌ بتعديلِ الله لهم ، وثنائه عليهم ، وثناء رسوله (ﷺ) ، قال النووي: الصحابةُ كلُّهم عدولٌ مَنْ لابسَ الفتن وغيرهم بإجماع مَنْ يعتدّ به[661].

وقال ابن حجر: اتفق أهل السنة على أنّ الجميعَ عدولٌ ، ولم يخالِفْ في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة[662].

وعن الإمام أبي زرعة الرازي قال: إذا رأيتَ الرجلَ ينتقصُ أحداً من أصحاب رسول الله (ﷺ) فأعلم أنّه زنديق، وذلك أنَّ رسول الله (ﷺ) عندنا حق ، والقرآن حق ، وإنّما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحابُ رسول الله (ﷺ) ، وإنّما يريدون أن يجرّحوا شهودنا ، ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرحُ بهم أولى، وهم زنادقة[663].

---

660 البخاري رقم (3673).
661 تدريب الراوي ، للسيوطي (214/2).
662 الإصابة (17/1).
663 الكفاية ، للخطيب البغدادي ص (97).



7. الصلاة والسلام على النبي:

ومن حقوق الرسول (ﷺ) الثابتة التي تعدُّ جانباً مهماً من جوانب تعظيمه وتوقيره عليه الصلاة والسلام ، فقد أمرنا الله عز وجل بذلك فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا*﴾ [الاحزاب : 56] ، فهذه الآية هي الأصل في بيان هذا الحقّ ، وأجمع أهل العلم على أنّ فيها من تعظيم الرسول (ﷺ) وبيانِ منزلته ، والتنويهِ بمقداره ما ليس في غيرها[664].

والمقصود من هذه الآية أنّ الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه (ﷺ) عنده في الملأ الأعلى ، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين ، وأنّ الملائكة تصلي عليه ، ثم أمر تعالى أهلَ العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ، ليجتمعَ الثناءُ عليه من أهل العالمين: العلوي والسفلي جميعاً[665]، وبهذه الآية شرّف الله نبيّه (ﷺ) في حياته ، وبعد موته ، وأظهر للعالمين منزلته عنده[666].

وقد تضافرت الأدلة النقلية الصحيحة على مشروعية الإكثار من الصلاة على النبي (ﷺ) في سائر الأوقات وكثير من الأماكن ، وتتأكد تلك المشروعية في مواطن إما وجوباً وإما استحباباً مؤكداً[667].

ومن هذه المواطن في الصلاة في التشهد الأول ، وفي التشهد الأخير منها ، وفي اخر القنوت ، وبعد التكبيرة الثانية من صلاة الجنازة ، وفي الخطب ، كخطبة الجمعة والعيدين ، والاستسقاء ، وغيرها ، وبعد إجابة المؤذن ، وعند الدعاء، وعند دخول المسجد ، وعند الخروج منه ، وعلى الصفا والمروة ، وعند اجتماع القوم قبل تفرقهم ، وعند ذكره (ﷺ)[668].

ولصلاة العبد على النبي (ﷺ) أجرٌ عظيم ، وفضلٌ عميم ، طالما حصّله الذاكرون المصلون ، وضيعه الغافلون[669].

إنّ طلب الصلاة من الله على رسوله (ﷺ) هو من أجلّ أدعية العبد ، وأنفعها له في دنياه واخرته[670].

---

664 حقوق النبي على أمته (514/2).

665 تفسير ابن كثير (514/3).

666 الواسطة بين الله وخلقه ص (213).

667 المصدر نفسه ص (214).

668 هناك مواطن أخرى بيّنها ابن القيم في كتابه (جلاء الافهام في الصلاة والسلام على خير الأنام) والسخاوي في كتابه (القول البديع في الصلاة والسلام على الحبيب الشفيع).

669 الواسطة بين الله وخلقه ص (214).

670 الواسطة بين الله وخلقه ص (214) ، نقلاً عن بدائع الفوائد.



والأحاديث التي جاءت في فضل الصلاة على النبي (ﷺ) كثيرةٌ منها:

حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضـــي الله عنهما أنه سمع النبي (ﷺ) يقول: «إذا سمعتم المؤذّنَ فقولوا مثل ما يقول ، ثم صـلّوا علي ، فإنّه مَنْ صـلّى عليّ صـلاةً ، صـلّى الله عليه بها عشـراً ، ثم سـلوا ليَ الوسـيلة ، فإنّها منزلةٌ في الجنة، لا تنبغي إلاّ لعبدٍ من عبادِ اللهِ ، وأرجو أن أكونَ أنا هو ، فمن سأل ليَ الوسيلةَ حلّتْ له الشفاعة»[671].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله إنِّي أكثرُ الصلاة عليك ، فكم أجعلُ لك من صلاتي؟.

قال: «ما شئتَ».

قلت: الربع؟

قال: «ما شئت، وإن زدتَ فهو خيرٌ».

قلت: النصف؟

قال: «ما شئتَ، وإنْ زدتَ فهو خير».

قلت: الثلثين؟.

قال: «ما شئتَ، وإنْ زدتَ فهو خيرٌ».

قلت: أجعلُ لك صلاتي كلها ؟.

قال: «إذن تكفى همّك، ويُغْفَرُ لكَ ذنبُك»[672].

وبوقفة يسيرة مع هذه الأحاديث وغيرها يعرِفُ المرءُ عظيمَ فضل الصلاة على النبي (ﷺ) وأنّه يجني بامتثال هذا الأمر ثمراتٍ نافعةٍ ، ويحصـل على فوائدَ جمةٍ في الدنيا والاخرة ، وذلك لأنّ صـلاتنا على النبي (ﷺ) امتثالٌ لأمر الله أولاً ، وموافقة له سـبحانه وتعالى في الصـلاة على النبي (ﷺ) ثانياً ، وكذلك موافقة ملائكته الكرام عليهم السـلام ، وإن اختلفت تلك الصلوات ، فصلاتُنا عليه دعاءٌ وسؤالٌ ، وصلاةُ الله عليه ثناءٌ وتعظيمٌ وتشريفُ ، وصلاة الملائكة عليه رقةٌ تبعث على استدعاء الرحمة[673].

---

671 مسلم (85/4).

672 سنن الترمذي (646/4) حسن صحيح.

673 الشفا (50/2) ، فتح الباري (532/8).





وقد ذكر العلامة ابن القيم في الباب الرابع من كتابه الرائع «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام» عدداً من تلك الفوائد الجمة ، والثمرات النافعة من أهمها:

* امتثال أمر الله.

* حصول عشر صلوات من الله على المصلي مرة.

* أنه يُرفع عشر درجات.

* أنه يُكتب له عشر حسنات.

* أنه يُمحى عنه عشر سيئات.

* أنه يُرْجَى إجابة دعائه إذا قدّمها أمامه، فهي تصاعِدُ الدعاءَ إلى عند رب العالمين.

* أنها سببٌ لشفاعته (ﷺ) إذا قرنها بسؤالِ الوسيلةِ له.

* أنها سببٌ لغفران الذنوب.

* أنها سببٌ لكفايةِ الله العبدَ ما أهمّه.

* أنها سببٌ لقرب العبد منه (ﷺ) يومَ القيامةِ.

* أنها سببٌ لدوام محبّته للرسول (ﷺ)، وزيادتها، وتضاعفها.

* أنّ الصلاة عليه (ﷺ) سببٌ لمحبته للعبد.

* أنها سببٌ لهدايةِ العبدِ وحياةِ قلبه.

* أنها سببٌ لعرض المصلي عليه (ﷺ) وذكره عنده.

* أنّ الصلاة عليه (ﷺ) أداءٌ لأقل القليل من حقه، وشكرٌ له على نعمته التي أنعم الله بها علينا.





* أنّها متضمِّنةٌ لذكر الله وشكره، ومعرفة إنعامه على عبده بإرساله[674].

هذه بعض الفوائد والثمار للصلاة على النبي (ﷺ).

والأحاديث التي بينت الفوائد كثيرة منها:

قال رسول الله (ﷺ): «من صلّى علي واحدةً صلى الله عليه عشراً»[675].

وقال رسول الله (ﷺ): «من صلّى علي صلاةً واحدةً صلّى الله عليه عشرَ صلوات، وحطَّ عنه عشرَ خطيئات»[676].

وقال رسول الله (ﷺ): «إنّ أولى الناسِ بي يومَ القيامةِ أكثرُهم عليَّ صلاةً»[677].

وكما وردت أحاديثُ ترغّب في الصلاة على النبي (ﷺ) ، وتبيّن فضلها ، فقد وردت أحاديثُ تذمُّ تاركَ الصلاة عليه (ﷺ) ، منها:

ما رواه أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكِرْتُ عندَه فلم يصلِّ عليَّ، ورَغِمَ أنفُ رجلٍ دَخَلَ عليه رمضانُ، ثم انسلخ قبلَ أن يُغْفَرَ له ، ورَغِمَ أنفُ رَجُلٍ أدركَ عنده أبواه الكِبَرُ ، فلم يُدْخلاهُ الجنة»[678].

وروى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): «البخيلُ مَنْ ذكرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ»[679].

وروى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): «مَنْ نسيَ الصلاةَ عليَّ أَخْطَأَ طريقَ الجنّة»[680].

وفي الختام نرجو من الله تعالى أن يرزقنا حُسْنَ الاقتداء، والحِرْصَ على اتباع النبي (ﷺ)، والقيامَ بحقوقه، وأن يحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

[674] جلاء الإفهام (344/335) بتصرف.

[675] مسلم (17/2).

[676] صحيح ابن حبان: موارد (2390) ، النسائي في عمل اليوم والليلة رقم (63).

[677] لا بأس بسنده فتح الباري (167/11).

[678] سنن الترمذي رقم (3545) صحيح ابن حبان موارد رقم (2387).

[679] سنن الترمذي رقم (3546) صحيح ابن حبان موارد رقم (2388).

[680] سنن ابن ماجه رقم (895) وقال الألباني حسن صحيح صحيح ابن ماجه (150/1).

الخاتمة

وبعدُ: فهذا ما يسّره الله لي من الحديث عن الإيمان بالرسل والرسالات في هذا الكتاب، وقد سمّيته «الإيمان بالرسل والرسالات»، فما كان فيه من صواب فهو محضُ فضلِ الله عليَّ، فله الحمد والمنة، ما كان فيه من خطأ، فأستغفرُ الله تعالى، وأتوب إليه، والله ورسوله بريءٌ منه، وحسبي أني كنتُ حريصاً ألاّ أقع في الخطأ، وعسى ألا أحرم من الأجر.

أدعو الله أن ينفع بهذا الكتاب بني البشر أينما وجدوا، وأن يكونَ سبباً في الهداية والتعليم والتذكير، وردِّ الشبهات عَنْ مَنْ اصطفاهم الله لدعوته الخالدة.

كما أرجو من الله تعالى أن يطرح البركة والقبولَ في كلِّ ما أكتب، وأن يجعل كلَّ حرف وكلمة وجملة وصفحة وكتاب خالصاً لوجهه الكريم وعلى خطى ومنهج سيد المرسلين.

وأرجو من القارىء الكريم ألا ينسى العبدَ الضعيف من الدعاء بالسداد والتوفيق، فإنَّ دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابةٌ إن شاء الله تعالى.

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *﴾ [الحشر : 10].

وممّا زادني شَرَفاً وتِيْهاً ... فَكِدْتُ بِأَخْمَصِي أَطَأُ الثُّرَيا
دُخُولِي تَحْتَ قولِكَ يا عِبَادِي ... وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيّا

سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك[681].

* * *

681 تشرف بالعناية بهذا الكتاب وما سبقه من هذه السلسلة المباركة (أركان الإيمان) الفقير إليه تعالى حسن السماحي سويدان غفر الله له ولوالديه بمنّه وكرمه.
دمشق غرة ربيع الأول 1432هـ = 4 شباط . فبراير 2011م.

فهرس الموضوعات




سلسلة أركان الإيمان ٤
الإيمان بالرسل والرسالات









كتب صدرت للمؤلف:

1. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
3. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
4. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
5. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
6. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب. شخصيته وعصره.
7. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
8. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
9. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
11. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12. الوسطية في القرآن الكريم.
13. الدولة الأموية ، عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار.
14. معاوية بن أبي سفيان ، شخصيته وعصره.
15. عمر بن عبد العزيز ، شخصيته وعصره.
16. خلافة عبد الله بن الزبير.
17. عصر الدولة الزنكية.
18. عماد الدين الزنكي.
19. نور الدين محمود.
20. دولة السلاجقة.
21. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.
22. الشيخ عبد القادر الجيلاني.
23. الشيخ عمر المختار.
24. عبد الملك بن مروان بنوه.
25. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.
26. حقيقة الخلاف بين الصحابة.
27. وسطية القرآن في العقائد.
28. فتنة مقتل عثمان.



29 . السلطان عبد الحميد الثاني.

30 . دولة المرابطين.

31 . دولة الموحدين.

32 . عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33 . الدولة الفاطمية.

34 . حركة الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي.

35 . صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس.

36 . استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ﷺ): دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37 . الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38 . الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39 . المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيان الانكسار.

40 . سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41 . السلطان محمد الفاتح.

42 . الشورى فريضة إسلامية.

سلسلة أركان الإيمان:

43 . الإيمان بالله جل جلاله.

44 . الإيمان بالملائكة.

45 . الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.

46 . الإيمان بالرسل والرسالات.

47 . الإيمان باليوم الاخر. 48 . الإيمان بالقدر.